لحقه وقيل استتبعه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين. روي أن قومه سألوه أن يدعو على موسى ومَنْ معه فقال: كيف أدعو على مَنْ معه الملائكةُ، فألحوا حتى دعا عليهم فبقُوا في التيه.

وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

(١٧٦) ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء. ﴿بِهَا﴾ بسبب تلك الآيات وملازمتها. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ مال إلى الدنيا، أو إلى السفالة. ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضىٰ الآيات، وإنما علقَ رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العَبْد تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالةَ انتفاء المسبب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث إن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مبالغةً وتنبيهاً على ما حمله عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ فصفته التي هي مَثَلٌ في الخسة. ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ كصفته في أخس أحواله، وهو: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ أي يلهث دائماً سواء حُمِل عليه بالزجر والطرد أو تُرِك ولم يُتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده. واللهْثُ إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والشرطية في موضع الحال والمعنى: لاهثاً في الحالتين، والتمثيل واقع موقعَ لازم التركيب الذي هو نفيُ الرفع ووضعُ المنزلة للمبالغة والبيان. وقيل لما دعا على موسى عليه السلام خرج لسانُه فوقع على صدره وجعل يلهث كالكلب. ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ.

(١٧٧) ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ أي مَثَلُ القوم، وقرىء ساء مَثَلُ القوم على حذف المخصوص بالذم. ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها. ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ إما أن يكون داخلاً في الصلة معطوفاً على كذبوا بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وَباله لا يتخطاها، ولذلك قدم المفعول.

(١٧٨) ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تصريح بأن الهدىٰ والضلال من الله وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفرادُ في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين،

= للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال (س٣/ ٢٩٢).

والاقتصارُ في الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء وتنبيه على أنه في نفسه كمالٌ جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني المصرين على الكفر في علمه تعالى. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[1] إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا ينظرون إلى ما خلق الله نظرَ اعتبار. ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر. ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماعِ للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيُقْدم على النار. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات. ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء. ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم وإلحادَهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات من الله، والعزى من العزيز ولا توافقوهم عليه، أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقرأ حمزة هنا وفي فصلت يَلْحدون بالفتح يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلَقَ للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر، واستُدل به على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»[2]، إذ لو اختص بعهد الرسول أو

---

(١) حذف مفعول يفقهون للتعميم، أي لهم قلوب لا يفقهون بها أي شيء من شأنه أن يفقه (س٣/ ٢٩٥).

(٢) أخرج البخاري (١٣/ ٢٩٣ رقم ٧٣١١) من حديث المغيرة عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون».

وأخرجه مسلم (٢/ ١٥٢٣ رقم ١٧١/ ١٩٢١) عن المغيرة أيضاً بلفظ «لن يزالَ قوم من أمتي ظاهرين على الناس، حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون».

● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٤ رقم ١٧٤/ ١٠٣٧) عن معاوية مرفوعاً بلفظ «لا تزالُ طائفة من أمتي قائمة بأمرِ اللهِ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمرُ اللهِ وهم ظاهرون على الناس». =

غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم[١].

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

(١٨٢) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سنستدنيهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً، وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة[٢]. ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم، عطف على سنستدرجهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني محمداً ﷺ[٣]. ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ من جنون. روي: أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فَخِذاً فَخِذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال: قائلهم إنّ صاحبكم لمجنون بات يُهَوِّت إلى الصباح، فنزلت[٤]. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ موضح إنذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ نظر استدلال. ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه. ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطف على ملكوت، وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وكذا اسم يكون. والمعنى: أولم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل

= ● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٣ رقم ١٧٠/ ١٩٢٠) عن ثوبان مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم. حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك» وليس في حديث قتيبة «وهم كذلك».

● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٤ رقم ١٧٣/ ١٩٢٣) عن جابر بن عبدالله مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي يُقاتِلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

(١) والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للإيذان بأن اهتداءهم في أنفسهم أمر محقق غني عن التصريح به (س٣/ ٢٩٧).

(٢) وإضافة الآيات إلى نون العظمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها (س٣/ ٢٩٧).

(٣) والتعبير عنه بصاحبهم للإيذان بأن طول مصاحبتهم له عليه السلام مما يطلعهم على نزاهته عليه السلام عن شائبة ما ذكر، ففيه تأكيد للنكير وتشديد له (س٣/ ٢٩٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ١٣٦) عن قتادة.
وذكره الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٦٦ رقم ٤٢) ـ أخرجه ـ الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة.

مغافصة الموت ونزول العذاب. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر. وقيل هو متعلق بقوله: «عسى أن يكون» كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه، فإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به، وقوله:

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٦) ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ كالتقرير والتعليل له[١]. ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء لقوله «من يضلل الله»، وحمزة والكسائي به وبالجزم عطفاً على محل فلا هادي له، كأنه قيل: لا يهده أحد غيرُه ويذرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال من هم.

(١٨٧) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقُها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها عند الله كساعة. ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها أي إثباتُها واستقرارها. ورسوّ الشيء ثباتُه واستقراره، ومنه رسا الجبل وأرسى السفينة. واشتقاقُ أيان من أيّ لأن معناه أيُّ وقتٍ؟ وهو من أويت إليه لأن البعض أوى إلى الكل. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ استأثر به لم يُطلع عليه مَلَكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً[٢]. ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها. ﴿إِلَّا هُوَ﴾والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره إلى وقت وقوعها، واللام للتأقيت كاللام في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[٣]. ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الساعة تهيج بالناس والرجلُ يُصلح حوضه والرجلُ يَسقي ماشيته والرجل يقوّم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»[٤]. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ عالم بها، فعيل من حفىٰ عن الشيء إذا سأل عنه،

---

(١) توحيد الضمير في حيز النفي نظراً إلى لفظ مَنْ، وجمْعُه في حيز الإثبات نظراً إلى معناها، وذلك للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكل (س٣/ ٣٠٠).

(٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأن توفيقه عليه السلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد (س٣/ ٣٠١).

(٣) الإسراء: «٧٨».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٤٠) عن قتادة.
وأخرج البخاري (١١/ ٣٥٢ رقم ٦٥٠٦) و(١٣/ ٨٢ رقم ١٧٢١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناسُ آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً. =

فإن مَنْ بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحكم علمه فيه، ولذلك عُدِّي بعن. وقيل هي صلة يسألونك. وقيل هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة، والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي تتحفى بهم فتحضّهم لأجل قرابتهم بتعليم وقتها. وقيل معناه كأنك حفي بالسؤال عنها تحبّه، مِنْ حَفِيَ بالشيء إذا فرح أي تكثره لأنه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرره لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة وللمبالغة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

(١٨٨) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ جلب نفع ولا دفع ضر، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب[١]. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء. ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ما أنا إلا عبد مرسَل للإنذار والبشارة[٢]. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بهما، ويجوز أن يكون متعلقاً بالبشير ومتعلق النذير محذوف.

(١٨٩) ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدم[٣]. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها كقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[٤]. ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير ذهاباً إلى المعنى ليناسبَ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها. ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خف عليها ولم تلقَ منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فاستمرت به أي قامت

= ولتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبنِ لقحتهِ فلا يطعمهُ. ولتقومنّ الساعة وهو يَليط حوضَهُ فلا يُسقى فيه. ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلتَهُ إلى فيهِ فلا يطعَمُها».

وأخرجه مسلم (٤/ ٢٢٧٠ رقم ١٤١/ ٢٩٥٤) بلفظ «تقوم الساعةُ والرجل يحلبُ اللِّقحةَ، فما يصلُ الإناءُ إلى فيهِ حتى تقوم. والرجُلان يتبايعانِ الثوب فما يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم والرجلُ يَلِطُ في حوضِهِ، فما يصدرُ حتى تقوم».

(١) وإعادة الأمر «قل» لإظهار كمال العناية بشأن الجواب، والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول (س٣/ ٣٠٢).

(٢) وتقديم النذير على البشير لأن المقام مقام الإنذار (س٣/ ٣٠٢).

(٣) إيقاع الموصول خبراً لتفخيم شأن المبتدأ، أي ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم... (س٣/ ٣٠٣).

(٤) النحل: «٧٢».

وقعدت. وقرىء فمَرَت بالتخفيف، وفاستَمَرّت به، وفمَارَت من المور وهو المجيء والذهاب أو من المِرْية أي فظنت الحمل وارتابت منه. ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها. وقرىء على البناء للمفعول أي أثقلها حَمْلُها. ﴿ دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنُه. ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ﴾ لك على هذه النعمة المجددة.

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

(١٩٠) ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ جعل أولادهما له شركاء فيما آتىٰ أولادهما فسموه عبدالعزى وعبدمناف على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه[١]، ويدل عليه قوله: ﴿ فَتَعَٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

(١٩١) ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ يعني الأصنام. وقيل[٢]: لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج، فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهما منه ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلة فإنْ دعوتِ الله أن يجعله خلقاً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبدالحرث، وكان اسمه حارثاً بين الملائكة فتقبلت، فلما ولدت سمياه عبدالحرث. وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء. ويحتمل أن يكون الخطاب في خلقكم لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم: عبدمناف، وعبدشمس، وعبدقصي، وعبدالدار. ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما. وقرأ نافع وأبو بكر شِرْكاً أي شَرِكة بان أشركا فيه غيره أو ذوي شرك وهم الشركاء، وهم ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة[٣].

(١٩٢) ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أي لعبَدَتهم. ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها.

---

(١) وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر لأن المساق لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح (س٣/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٤٧) عن سعيد بن جبير.
وأخرج الترمذي (٥/ ٢٦٧ رقم ٣٠٧٧) عن سمرة عن النبي ﷺ قال: لما حملتْ حواء طافَ بها إبليسُ وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبدالحارث، فعاش ذلك، وكان ذلك من وحي الشيطانِ وأمرِهِ».
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ١١) والحاكم (٢/ ٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبي والطبري (رقم: ١٥٥١٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبدالصمد بن عبدالوارث، ولم يرفعه.
قلت: الحسن قد عنعن عند الجميع وهو مدلس، وهو لم يسمع من سمرة. فالحديث ضعيف.
وأعلّه الحافظ ابن كثير من ثلاثة وجوه: انظرها في تفسيره (٢/ ٢٨٦).

(٣) إيراد الأصنام بجمع العقلاء بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرىٰ العقلاء، وكذا تسميتها آلهة. ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفي الخالقية لإبانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه في حقها وإظهار غاية جهلهم. وعدم التعرض لخالقها للإيذان بتعينه والاستغناء عن ذكره (س٣/ ٣٠٥). =

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ
ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

(١٩٣) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي المشركين[١]. ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ إلى الإسلام. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وقرأ نافع بالتخفيفِ وفتحِ الباء، وقيل الخطاب للمشركين وهم ضمير الأصنام أي: إن تدعوهم إلى أن يهدوكم لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ وإنما لم يقل أم صمتم للمبالغة في عدم إفادة الدعاء من حيث إنه مسوىً بالثبات على الصمات، أو لأنهم ما كانوا يدعونها لحوائجهم فكأنه قيل: سواء عليكم إحداثُكم دعاءَهم واستمراركم على الصمات عن دعائهم.

(١٩٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة. ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة. ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم آلهة، ويحتمل أنهم لما نحتوها بصور الأناسيّ قال لهم: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض، ثم عاد عليه بالنقض فقال:

(١٩٥) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وقرىء إنْ الذين بتخفيف إنْ ونصب عباد على أنها نافية عملت عمل ما الحجازية ولم يثبت مثله، ويَبْطُشون بالضم ههنا وفي القصص والدخان[٢]. ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر، وهي أنتم وشركاؤكم. ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تُمهلون فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله تعالى وحفظه[٣].

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن[٤]. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه.

(١٩٧) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم.

(١٩٨) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يُشبِهون الناظرين إليك، لأنهم صوِّروا بصورة مَنْ ينظر إلى من يواجهه.

---

(١) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لبيان مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت (س٣/ ٣٠٥).
(٢) القصص: «١٩» والدخان: «١٦».
(٣) وتقديم الأعين على الآذان لأنها أشهر من الآذان وأظهر عيناً وأثراً (س٣/ ٣٠٧).
(٤) ووصفُه تعالى بإنزال الكتاب للإشعار بدليل الولاية (س٣/ ٣٠٧).

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

(١٩٩) ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي خذ مَا عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلُب ما يشق عليهم، مِنَ العفو الذي هو ضد الجَهْد، أو خذ العفو عن المذنبين أو الفضل وما يسهل من صدقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ المعروف المستحسن من الأفعال. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تمارِهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق آمرة للرسول باستجماعها.

(٢٠٠) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ ينخسنك منه نخْسٌ أي وسوسة تحملك على خلاف ما أُمِرت به كاعتراء غضب وفكر، والنزغ والنسغ والنخس الغَرْزُ، شَبَّهَ وسوسته للناس إغراءً لهم على المعاصي وإزعاجاً بغرز السائق ما يسوقه. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك. ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سميع بأقوال من آذاك عليهم بأفعاله فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

(٢٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لُمَّة منه، وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم، أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً. وقرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب طَيْفٌ على أنه مصدر أو تخفيف طَيِّفْ كليّن وهيّن، والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميرَه. ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ما أمر الله به ونهىٰ عنه. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقعَ الخطأ ومكايد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها، والآيةُ تأكيد وتقرير لما قبلها وكذا قوله:

(٢٠٢) ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا يمدهم الشياطين. ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ بالتزيين والحمل عليه، وقرىء يُمِدُّونهم من أمدّ، ويُمَادُونهم كأنهم يُعِينونهم بالتسهيل والإغراء وهؤلاء يعينونهم بالاتّباع والامتثال. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يَرُدّوهم، ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يكفون عن الغي ولا يقصرون كالمتقين، ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هُوَ لَهُ.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ من القرآن أو مما اقترحوه. ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا جمعتها تقوُّلاً من نفسك كسائر ما تقرؤه، أو هلاّ طلبتها من الله. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ لستُ بمختلق للآيات، أو لست بمقترح لها. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب بها يبصر الحق ويدرك الصواب. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سبق تفسيره.

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في الصلاة، كانوا يتكلمون فيها فأُمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له . وظاهرُ اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يُقرأُ القرآن مطلقاً، وعامةُ العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف.

(٢٠٥) ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ عامّ في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمر للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً. ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السر ودون الجهر فإنه أَدْخَل في الخشوع والإخلاص. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ بأوقات الغدو والعشيات. وقرىء والإيصال، وهو مصدر آصل إذا دخل في الأصيل، وهو مطابق للغدو. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن ذكر الله.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملأ الأعلى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه. ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين ولذلك شرع السجود لقراءته. وعن النبي ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي فيقول: يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرتُ بالسجود فعصيت فلي النار»[٢] وعنه ﷺ «من قرأ سورة الأعراف جعل اللهُ يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً وكان آدمُ شفيعاً له يوم القيامة»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول عن قتادة ص٢٣٣.
(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨٧ رقم ١٣٢/ ٨١) وابن ماجه (١/ ٣٣٤ رقم ١٠٥٢) من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه الثعلبي عن أبيّ، وهو موضوع.

فهرس السور

* * *

فهرس الأجزاء

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمّى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حَقَقَهُ وَعَلَقَ عَلَيهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

محمد صُبْحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الثاني

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

المجلد الثاني

دار الرشيد

دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَنفَال

ترتيبها ٨ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ
زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي الغنائم يعني حكمها، وإنما سميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله وفضل كما سمي به ما يشرُطه الإمام لمقتحم خطر عطيةً له وزيادة على سهمه. ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي أمرُها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الأنصار[١]. وقيل شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبانُهم حتى قَتَلوا سبعين وأَسَروا سبعين ثم طلبوا نفلهم ـ وكان المال قليلاً ـ فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إلينا، فنزلت، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء[٢]، ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وعن سعد بن أبي . . . .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٢٢) و(٥/ ٣٢٤) وابن حبان (ص٤١٠ رقم ١٦٩٣ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٣٥) و(٢/ ٣٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩٢) و(٦/ ٣١٥) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٧٢) من طرق عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت. وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ١٧٥ رقم ٢٧٣٧) وابن حبان (ص٤٣١ رقم ١٧٤٣ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ ـ ٣٢٦) والنسائي ـ كما في تحفة الأشراف (٥/ ١٣٢) ـ من حديث ابن عباس. وهو حديث صحيح.

وقاص[١] رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيت به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سَلَبي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخُذه[١]. وقرىء يسألونك عَلَّنفَال بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فيها، ويسألونك الأنفالَ أي يسألك الشبان ما شرطت لهم. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه[٢]. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

(٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله. وقيل هو الرجل يهمّ بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفاً من عقابه. وقرىء وَجَلت بالفتح وهي لغة، وفَرَقَت أي خافت. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

(٤) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة، وحقاً صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقوله: هو عبدالله حقاً. ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة وعلو منزلة. وقيل درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أُعِدّ لهم في الجنة لا ينقطعُ عدده ولا ينتهي أمده.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٨٠) وأبو عبيد في الأموال (ص٢٧٩ رقم ٧٥٦) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٧٣) وابن أبي شيبة، وابن مردويه كما في «الدر» (٤/ ٣). عنه.
ورجال إسناده ثقات، إلاّ أن محمد بن عبيدالله لم يدرك سعد بن أبي وقاص (المراسيل لابن أبي حاتم: ص١٨٤ رقم ٦٦٥).
● وأخرجه أبو داود (٣/ ١٧٧ رقم ٢٧٤٠) والترمذي (٥/ ٢٦٨ رقم ٣٠٧٩) والنسائي في تفسيره (١/ ٥١٣ رقم ٢١٦) وابن جرير (٦/ج٩/ ١٧٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٩١) عن سعد نحوه.
● وأخرجه مسلم (٣/ ١٣٦٧ رقم ٣٣/ ١٧٤٨) عن سعد نحوه مختصراً.

(٢) وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة (س٤/ ٣).

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

(٥) ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال في كراهتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراهتهم له، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة. أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ أي الأنفال ثبتت لله والرسول ﷺ مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة لأنها مهاجره ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم. ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ في موقع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهلَ مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عِيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبدالمطلب أن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبقَ بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضىٰ بهم إلى بدر وهو ماءٌ كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين إمآ العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه فقال بعضهم: هلاّ ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فردد عليهم وقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالا فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انظُر أمرَك فامضِ فيه فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: امضِ لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أشيروا عليَّ أيها الناس وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوّف أن لا يروا نصرته إلا على عدو دَهَمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله، فقال: أجل، قال: آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لَصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسِرْ بنا على بركة الله تعالى، فنشطه قوله ثم قال: سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع . . . .

---

(١) المائدة: ٢٤.

القوم[١]. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له: عليك بالعير فناداه العباس وهو في وَثَاقه لا يصلح فقال له لِمَ؟ فقال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله[٢].

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقّي العير عليه. ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنهم يُنصَرون أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي يَكْرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم إذ روي أنهم كانوا رجالة وما كان فيهم إلا فارسان، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

(٧) ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ على إضمار اذكر[٣]، وإحدى ثاني مفعولي يعدكم وقد أبدل منها. ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ يعني العير فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ، والشوكة الحِدّة مستعارة من واحدة الشوك[٤]. ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي يثبته ويعليه. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الموحىٰ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/١٨٥ ـ ١٨٦) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبدالله بن عباس وأخرجه أيضاً ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٢٩٥ ـ ٣٠٦) من نفس الطريق.
- أما حديث ندب الرسول أصحابه لملاقاة العير فقد صرح ابن اسحاق بالسماع وسنده صحيح.
- وأما حديث رؤيا عاتكة: فقد صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع.
- أما مشاورة النبي ﷺ لأصحابه، فقد أخرجه البخاري (٧/ ٢٨٧ رقم ٣٩٥٢) عن ابن مسعود. ومسلم (٣/١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ رقم ٨٣/ ١٧٧٩) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٩، ٣١٤، ٣٢٦) والترمذي (٥/ ٢٦٩ رقم ٣٠٨٠) والحاكم (٢/ ٣٢٧) من حديث ابن عباس.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وقال الألباني في ضعيف الترمذي ضعيف الإسناد.
قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة. كما أن العباس كان من الأسارى فكيف عرف كلام الله هذا؟.

(٣) والتنكير بالوقت ـ مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث ـ للمبالغة في إيجاب ذكرها، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها ـ (س٤/ ٦) ـ.

(٤) والتعبير عنهم بذلك للتنبيه على سبب مودتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير (س٤/ ٧).

بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد. وقرىء بكلمته. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويستأصلهم، والمعنى: أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تَلقوْا مكروهاً والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين.

لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي فَعَل ما فعل، وليس بتكرير لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مُرَادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من إذ يَعِدكم، أو متعلق بقوله ليحق الحق، أو على إضمار اذكر، واستغاثتُهم أنهم لما علموا أنْ لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابةُ لا تُعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربَّك فإنه سينجِزُ لك ما وعدك[1]. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ بأني ممدكم، فحذف الجارّ وسلط عليه الفعل. وقرأ أبو عمرو بالكسر[2] على إرادة القول أو إجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من القول. ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ مُتْبِعين المؤمنين أو بعضهم بعضاً، مِنْ أردفته أنا إذا جئت بعده، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين، أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه. وقرأ نافع ويعقوب مُرْدَفين ـ بفتح الدال ـ أي متبَعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم، وقرىء مُرُدِّفين بكسر الراء وضمها وأصله مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء في الدال فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الاتباع، وقرىء بآلاف ليوافق ما في سورة آل عمران[3]. ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة، أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم. واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار تدل عليها[4].

(١٠) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤ رقم ٥٨/ ١٧٦٣) والترمذي في السنن (٥/ ٢٦١ رقم ٣٠٨١) وأحمد (١/ ٣٠ ـ ٣٢).

(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

(٣) آل عمران: «١٢٥».

(٤) وصيغة الاستقبال في تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة (س٤/ ٧).

فيزول ما بها من الوجل لقلّتكم وذلتكم. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمدادُ الملائكة وكثرةُ العَدد والأُهَبِ ونحوهما وسائطُ لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ
سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بدلٌ ثان من إذ يعدكم لإظهار نعمة ثالثة، أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل أو بجعل أو بإضمار اذكر. وقرأ نافع بالتخفيف من أغشيته الشيءَ إذا غشيته إياه، والفاعل على القراءتين هو الله تعالى، وقرأ ابن كثير وأبو عمر يَغْشَاكم النعاسُ بالرفع. ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أمناً من الله، وهو مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله يغشيكم النعاس متضمن معنى تنعسون، ويغشاكم بمعناه، والأمنة فعْل لفاعله، ويجوز أن يراد بها الإيمان فيكون فعلَ المغشي، وأن تَجْعَل على القراءة الأخيرة فعلَ النعاس على المجاز لأنها لأصحابه، أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف فلما غشيهم فكأنه حصلت له أمنة من الله لولاها لم يغشَهم كقوله:

يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يَغْشَى عُيُوناً تَهَابُكَ فَهُوَ نَفَّارٌ شَرُودُ

وَقرىء أَمْنَةً كرَحْمة وهي لغة. ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الحدث والجنابة. ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخييله، أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كثيب أَعْفَرَ تسُوخُ فيه الأقدامُ على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصَرون، وقد غُلبتم على الماء وأنتم تصلون محدِثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، فأشفقُوا فأنزل الله المطر، فمُطِروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عُدْوته وسَقُوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[1]. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ بدل ثالث، أو متعلق بيثبّت. ﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم، وهو مفعول يوحي. وقرىء بالكسر[2] على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه. ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم، فيكون قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله أني معكم فثبتوا، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ومن مَنَعَ ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب أو على أن قوله: ﴿سَأُلْقِى﴾ إلى قوله ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ تلقين

---

(١) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس (روح المعاني ٩/١٧٦).
(٢) أي بكسر الهمزة «إني».

للملائكة ما يثبتون المؤمنين به كأنه قال: قولوا لهم قولي هذا. ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس. ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع أي جُزّوا رقابهم واقطعوا أطرافهم[١].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب أو الأمر به، والخطاب للرسول، أو لكل أحد من المخاطبين قَبْل. ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بسبب مشاقّتهم لهما، واشتقاقه من الشَّقّ لأن كلاً من المتعاديَيْن في شق خلاف شِق الآخر كالمعاداة من العُدوة والمخاصمةِ من الخصم وهو الجانب. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

(١٤) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات، ومحله الرفع أي: الأمر ذلكم أو ذلكم واقعٌ، أو نُصِب بفعل دل عليه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أو غيره مثل باشروا أو عليكم، فتكون الفاء عاطفة. ﴿وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ عطف على ذلكم، أو نصب على المفعول معه، والمعنى ذوقوا ما عُجِّل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما. وقرىء وإنّ بالكسر على الاستئناف.

(١٥) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ كثيراً بحيث يُرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبيُّ إذا دب على مِقْعَده قليلاً قليلاً سمي به وجُمع على زحوف، وانتصابه على الحال. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ بالانهزام فضلاً أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، والأظهر أنها محكمة مخصوصة بقوله: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾[٢] الآية، ويجوز أن ينتصب «زحفاً» حالاً من الفاعل والمفعول أي: إذا لقيتموهم متزحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا، أو من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوْا، وهم اثنا عشر ألفاً.

(١٦) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يريد الكرّ بعد الفر وتغرير العدو، فإنه من مكايد الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم، ومنهم من لم يَعْتبر القرب لما روىٰ ابنُ عمر رضي الله عنهما: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ ففرّوا إلى المدينة فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون فقال: «بل أنتم العكّارون وأنا فئتكم»[٣].

---

(١) وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره (س٤/١١).
(٢) الأنفال: «٦٥».
(٣) أخرجه أبو داود (٣/١٠٦ ـ ١٠٧ رقم ٢٦٤٧) والترمذي (٤/٢١٥ رقم ١٧١٦). وأحمد (٢/٧٠، ٨٦، ١١١) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٧٦، ٧٧).

وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الحال، وإلا لغوٌ لا عمل لها، أو الاستثناءِ من المولين أي إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحيز مُتَفَيْعِل لا مُتفعّل وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز. ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضِّعف لقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاءِ الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العقَنْقل قال عليه الصلاة والسلام: «هذه قريش جاءت بخُيَلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصباء فرمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبقَ مشرك إلا شُغِل بعينيه، فانهزموا ورَدِفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتلتُ وأسرت، فنزلت[1]. والفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم. ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد رمياً توصِله إلى أعينهم ولم تقدر عليه: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي إذ أتيت بصورة الرمي. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنتُم من قطع دابِرهم، وقد عرفتَ أن اللفظ يُطلق على المسمى وعلى ما هو كمالُه والمقصود منه. وقيل معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم. وقيل إنه نزل في طعنة طُعِن بها أُبيّ بن خلف يوم أُحُد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات[2]. أو رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كِنانةَ بن أبي الحقيق على ....

= والبخاري في الأدب المفرد (رقم: ٩٧٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلاّ من حديث يزيد بن أبي زياد.
قلت: يزيد هذا ضعيف. انظر ترجمته (٩/ ٢٦٥) والكامل (٧/ ٢٧٢٩) والمجروحين (٣/ ١١٢) والميزان (٤/ ٤٢٣).
والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعّفه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٠٣).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٢٠٤) عن هشام بن عروة مرسلاً وليس فيه (أمر جبريل له بذلك).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٢٠٥) عن ابن عباس، (أمر جبريل له بذلك).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) عن حكيم بن حزام ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وابن زيد.
وانظر «الكافي الشاف» للحافظ ابن حجر (ص٦٨ رقم ٦٤).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٦ والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٧) وصححه ووافقه الذهبي. وساقه ابن كثير وبين أن المراد أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه بشكل خاص. (تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٣).

فراشه[١]، والجمهور على الأول. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكِنْ بالتخفيف ورفعِ ما بعده في الموضعين[٢]. ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات فَعَل ما فعَل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن أو القتل أو الرمي، ومحله الرفعُ أي المقصود أو الأمر ذلكم، وقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معطوفٌ عليه أي المقصود إبلاء المؤمنين وتوهينُ كيد الكافرين وإبطالِ حِيَلِهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو مُوَهِّن بالتشديد، وحفص مُوهِنُ كيدِ بالإضافة والتخفيف[٣].

(١٩) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرمَ الحزبين. ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين. ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لمحاربته. ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم. ﴿وَلَن تُغْنِىَ﴾ ولن تدفع. ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو المضار. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة. وقرأ نافع وابن عامر وحفص وأَنَّ بالفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك[٤]. وقيل: الآية خطاب للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا إليه نَعُد عليكم بالإنكار أو تهييجِ العدو، ولن تغنيَ حينئذ كثرتُكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإنه مع الكاملين في إيمانهم، ويؤيد ذلك:

(٢٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي ولا تتولوا عن الرسول، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذَكَرَ طاعةَ الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[٥] وقيل: الضمير للجهاد، أو للأمر الذي دل عليه الطاعة. ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق.

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم كما ذكر في الفتح السماوي ص٦٥٣.
(٢) وتجريد فعل الرمي عن المفعول به لأن المقصود الأصلي بيانُ حال الرمي نفياً وإثباتاً (س٤/١٣).
(٣) لعل الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «موهِنٌ كيدَ» بتنوين الأول وتخفيفه وبنصب الثاني.
(٤) لعل الأصل عند البيضاوي الكسر، أي «إن الله مع المؤمنين».
(٥) النساء: «٨٠».

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ
وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا ﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادّعوْا السماع. ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماعاً ينتفعون به فكأنهم لا يسمعون رأساً.

(٢٢) ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ شر ما يدب على الأرض، أو شر البهائم. ﴿ ٱلصُّمُّ ﴾ عن الحق. ﴿ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إياه، عَدَّهم من البهائم ثم جعلهم شرَّها لإبطالهم ما ميزوا به وفُضِّلوا لأجله(١).

(٢٣) ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ سعادة كتبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات. ﴿ لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم. ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم. ﴿ لَتَوَلَّوا۟ ﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول. ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ لعنادهم. وقيل(٢) كانوا يقولون للنبي ﷺ: أَحْيِ لنا قصيّاً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يَشْهد لك ونؤمن بك. والمعنى لأسمعهم كلام قصي.

(٢٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ بالطاعة(٣). ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ وحّد الضمير فيه لما سبق ولأن دعوة الله تُسمع من الرسول. وروي أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبيّ وهو يصلي، فدعاه، فعجّل في صلاته ثم جاء، فقال: «ما منعك عن إجابتي؟» قال: كنت أصلي، قال: «ألم تُخْبَر فيما أوحي إلي: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾(٤)؟». واختُلف فيه، فقيل: هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل لأن دعاءه كان لأمرٍ لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، وظاهرُ الحديث يناسب الأول. ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهلُ موتُه. قال:

---

(١) وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم، فإن السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه (س٤/ ١٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤٤) بدون راوٍ ولا سند.

(٣) كرر النداء مع وصفهم بالإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يَردُ بعده من الأوامر (س٤/ ١٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ٢١٤) والترمذي (٥/ ١٥٥ رقم ٢٨٧٥) بنحوه، وقال هذا حديث حسن صحيح. وأحمد في المسند (٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣) عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ على أبي بن كعب... الحديث.
وأخرجه البخاري (٨/ ١٥٦ رقم ٤٤٧٤) عن أبي سعيد بن المعلى.
وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٥٧): «وجمع البيهقي بأن القصة وقعت لأبي بن كعب ولأبي سعيد المعلى، ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين، واختلاف سياقهما كما سأبينه» هـ.
وانظر تحفة الأحوذي للمباركفوري (٨/ ١٨٠).

لا تعْجَبَنَّ الجَهُولَ حِلّتَه فذَاكَ مَيتٌ وَثَوْبُهُ كَفَن

أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال، أو من الجهاد فإنه سبب بقائكم إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم، أو الشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١]. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٢] وتنبيهٌ على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبُها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يَحُول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصويرٌ وتخييل لتملّكه على العبد قلبَه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصدَه ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته. وقرىء بين المَرِّ بالتشديد على حذف الهمزة وإلقاءِ حركتها على الراء وإجراءِ الوصل مجرى الوقف على لغة من يشدد فيه. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيَكم بأعمالكم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾

(٢٥) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ اتقوا ذنباً يعمّكم أثرُه كإقرار المنكَر بين أظهُركم والمداهنةِ في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد، على أن قوله لا تصيبن إما جواب الأمر على معنى إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم، وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساغ فيه كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾[٣] وإما صفة لفتنة، ولا للنفي، وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفي في غير القسم، أو للنهي على إرادة القول كقوله:

حتى إذا جَنّ الظلامُ واختلط جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قط

وَإما جوابُ قسم محذوف كقراءة من قرأ لَتُصيبنّ وإن اختلفا في المعنى، ويُحتمل أن يكون نهياً بعد الأمر باتقاء الذنب عن التعرض للظلم لأن وبالَه يصيب الظالم خاصة ويعود عليه، ومِنْ في منكم على الوجوه الأُوَل للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين، وفائدتُه التنبيه على أن الظلم منكم أقبح من غيركم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(٢٦) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش، والخطاب للمهاجرين. وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس

---

(١) آل عمران: «١٦٩».
(٢) قٓ: «١٦».
(٣) النمل: «١٨».

والروم[١]. ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ كفار قريش، أو من عداهم فإنهم كانوا جميعاً معادين لهم مضادين لهم. ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعاديكم. ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ هذه النعم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تُضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالغلول في المغانم. وروي: أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانَهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعاتٍ وأريحاء بأرض الشام، فأبىٰ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوْا وقالوا: أرسل إلينا أبا لُبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حَلْقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت. فشدّ نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقيل له: قد تيب عليك فحلّ نفسك فقال: لا والله لا أحِلُّها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُحلني، فجاءه فحله بيده فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال عليه الصلاة والسلام «يجزيك الثلث أن تتصدق به»[٢]. وأصل الخَوْن النقص كما أن أصل الوفاء التمام، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه. ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الأول، أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، أو أنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

(٢٨) ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب، أو محنةٌ من

---

(١) قوله«وإذ أنتم قليلٌ» آثر الجملة الاسمية للإيذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف (س٤/١٧).

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند، لكن سنده إليه في أول الكتاب.
وقد روى ابن إسحاق في المغازي: حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمي: «أن رسول الله ﷺ حاصرهم ـ يعني قريظة ـ خمساً وعشرين ليلة ـ فذكر القصة بطولها ـ إلى أن قال: ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر فذكر قصة مختصرة.
وأخرجهاالبيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن المسيب في قصة طويلة فذكر نحو ما هنا وهكذا ذكرها عبدالرزاق (٥/٤٠٦) عن معمر عن الزهري، قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك، فربط نفسه بسارية المسجد فذكر القصة».
وأخرجه الواقدي عن معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك مثله كما في «الكافي الشافِ»(ص٦٩ رقم ٦٧).

الله تعالى ليبلوَكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كأبي لبابة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر رضا الله عليهم وراعىٰ حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، أو نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مَخْرجاً من الشبهات، أو نجاة عما تحذرون في الدارين، أو ظهوراً يُشْهِرُ أمرَكم ويبث صيتكم من قولهم بتُّ أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي الصبح[١]. ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ ويسترها. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم. وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر. وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه، كالسيد إذا وعد عبده إنعاماً على عمل.

(٣٠) ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تذكار لمّا مَكَر قريشٌ به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خَلاَصِه مِنْ مكرهم واستيلائه عليهم، والمعنى واذكر إذ يمكرون بك. ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس، أو الإثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حِراك به ولا براحٍ. وقرىء ليثبِّتُوك بالتشديد، وليبيِّتُوك من البيات، وليُقَيِّدوك. ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ بسيوفهم. ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ من مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فَرَقُوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا من نجد سمعت اجتماعَكم فأردت أن أحضُركم ولن تُعدَموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ بئس الرأيُ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بئس الرأي يُفْسِدُ قوماً غيرَكم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العَقْل عَقَلْناه، فقال صدق هذا الفتى، فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي عليهما السلام وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيّت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار[٢]. ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ برد مكرهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين

---

(١) وتكرير الخطاب والوصف بالإيمان لإظهار كمال العناية بما بعده والإيذان بأن مقتضى الإيمان مراعاته والمحافظة عليه(س٤/١٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي: حدثني من لا أتهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: =

معهم بأن أخرجهم على بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة[١]، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم فإنه كان قاصَّهم. أو قولُ الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام، وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا، وقد تحداهم وقرّعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة مع أَنَفَتهم وفرط استنكافهم أن يُغْلَبوا خصوصاً في باب البيان. ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص.

(٣٢) ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل أبلغُ في الجحود. روي أنه لما قال النضر إنْ هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال ذلك[٢]. والمعنى إن كان هذا حقاً منزّلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمرادُ منه التهكمُ وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً. وقرىء الحقُّ بالرفع على أن هو مبتدأ غير فصل، وفائدةُ التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ وهو تنزيلُه لا الحق مطلقاً لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كأساطير الأولين.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بيان لما كان الموجب

= «لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ اعترضهم إبليس في هيئة شيخ. فذكره مطولاً».

وأخرجه الطبري ـ في جامع البيان (٦/ج٩/٢٧٧) ـ وأبو نعيم في الدلائل ـ (١/٢٥٨ ـ ٢٦١) ـ من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح. وليس في أوله أن ذلك بسبب الأنصار. وقال عبدالرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة قال «لما كثر المسلمون فذكر معناها ووصلها الواقدي عن معمر بذكر عائشة قال: وعن ابن أبي خيثمة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه ـ كما في «الكافي الشافِ» ـ للحافظ ابن حجر (ص٦٩ رقم ٨).

قلت: أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/٣٨٩ ـ ٣٩٠) عن معمر عن قتادة دون عروة.

(١) قوله للمزاوجة أي للمشاكلة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٩/١٩٩) بدون راوٍ ولا سند.

لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم، واللامُ لتأكيد النفي والدلالةِ على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبيُّ ﷺ بين أظهُرِهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يُعذَّبون. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وحالهم ذلك، ومِنْ صدهم عنه إلجاءُ رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارُهم عام الحديبية. ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء ونُدْخِل من نشاء. ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقيل الضميران لله. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنْ لا ولاية لهم عليه، كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم، أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها. ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ صفيراً، فُعَال من مكا يمكو إذا صَفَر. وقرىء بالقصر كالبُكَا. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً، تَفْعِلة من الصَّدَا، أو من الصدّ على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء. وقرىء صلاتَهم بالنصب على أنه الخبر المقدم، ومساقُ الكلام لتقريرِ استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمَنْ هذه صلاتُه. روي: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجالُ والنساء مشبّكين بين أصابعهم يُصَفِّرون فيها ويصفقون[2]. وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يُخْلِطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً. ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة، واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود: ائتنا بعذاب. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في المطعِمين يوم بدر[3]، وكانوا

---

(١) هود: «١١٧».

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٠ بسند ضعيف لأن فيه عطية بن سعد العوفي وهو صدوق، كان يخطىء كثيراً، وكان شيعياً مدلساً.

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٦) من قول مقاتل والكلبي بدون سند وكذلك البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٥).

● وأخرج ابن جرير (٦/ج٩/ ٢٤٥) من طريق ابن إسحاق عن الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن

اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُزُر. أو في أبي سفيان[1] استأجر ليوم أُحُد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا. والمرادُ بسبيل الله دينُه واتباع رسوله. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ بتمامها. ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أُحُد، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتَها تصير حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغةً. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخرَ الأمر وإن كان الحرب بينهم سجالاً قبل ذلك. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين ثبتوا على الكفر منهم إذ أسلم بعضهم. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون.

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ مما أنفقه المسلمون في نصرته، واللام متعلقة بقوله ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لِيُمَيِّز من التمييز وهو أبلغ من المَيْز. ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضمّ بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكانزين. ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين. ﴿هُمُ

= عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرحمٰن وعمرو بن سعد بن معاذ قالوا: لما أصابته المسلمون يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القليب ورجع فلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبدالله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كان له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم» إلى قوله والذين كفروا إلى جهنم يحشرون» وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم ـ كما في فتح القدير (٢/ ٣٠٧) مرسلاً ـ. وهو صحيح الإسناد.

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ج٩/ ٢٤٤) عن سعيد بن جبير.
وأخرجه ابن جرير (٦/ج٩/ ٢٤٥) عن ابن أبزى.
وذكر الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٧) ذلك عنهما بدون سند.

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسِروا أنفسهم وأموالهم.

(٣٨) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه، والمعنى قل لأجلهم. ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عن معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام. ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم. وقرىء بالتاء والكاف على أنه خاطبهم[1]، ويَغفِرْ على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى قتاله. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير كما جرىٰ على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك.

(٣٩) ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وتضمحل عنهم الأديان الباطلة. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الكفر. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيَهم على انتهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب تَعْمَلون بالتاء، على معنى فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير فيجازيكم، ويكون تعليقُه بانتهائهم دلالةً على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب.

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ
خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم
بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولم ينتهوا. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصرُكم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم. ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه. ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره.

(٤١) ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ أي الذي أخذتموه من الكفار قهراً. . ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأ خبرُه محذوف أي: فثابتٌ أن لله خمسه. وقرىء فإنّ بالكسر. والجمهورُ على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[2]، وأن المرادَ قَسْمُ الخمس على الخمسة المعطوفين. ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فكأنه قال: فأن لله خُمُسَه يصرفُ إلى هؤلاء الأخصين به، وحكمُهُ بعد باقٍ غير أن سهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه يُصرف إلى ما كان يَصْرفه إليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان رضي الله تعالى عنهما[3]. وقيل إلى الإمام. وقيل إلى الأصناف الأربعة. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية. وعن مالك رضي الله

---

(١) أي قرىء: «إن تَنْتَهوا يُغْفَرْ لكم. . .».
(٢) التوبة: «٦٢».
(٣) الشيخان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

تعالى عنه الأمر فيه مفوض إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم. وذهب أبو العالية[١] إلى ظاهر الآية فقال يُقسم ستةَ أقسام ويصرف سهم الله إلى الكعبة، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ قبضة منه فيجعلُها للكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة[٢]. وقيل سهم الله لبيت المال. وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول ﷺ. وذوو القربى: بنو هاشم وبنو المطلب، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قسم سهم ذوي القربى عليهما فقال له عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلَهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخوانَنا من بني المطلب أعطيتَهم وحرمْتَنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام». وشبك بين أصابعه[٣]. وقيل بنو هاشم وحدهم. وقيل جميع قريش الغني والفقير فيه سواء. وقيل هو مخصوص بفقرائهم كسهم ابن السبيل. وقيل الخمس كله لهم والمراد باليتامى والمساكين وابن السبيل من كان منهم والعطف للتخصيص. والآية نزلت ببدر، وقيل الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلِّموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإن العلم العملي إذا آمر به لم يُرِدْ منه العلم المجرد لأنه مقصود بالعَرَض والمقصود بالذات هو العمل. ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر. وقرىء عُبُدنا بضمتين أي الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المسلمون والكافرون. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

(٤٢) ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بدل من يومَ الفرقان، والعُدْوة بالحركات الثلاث شط الوادي وقد قرىء بها، والمشهور الضم، والكسر وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ البُعدىٰ من المدينة، تأنيث الأقصى وكان قياسه قلب الواو ياءً كالدنيا والعُليا تفرقةً بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقَوَد وهو أكثر استعمالاً من القُصْيَا. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي العير، أو قوادها. ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل، وهو منصوب على الظرف واقعٌ موقع الخبر، والجملة حال من الظرف قبلَه، وفائدتُها الدلالةُ على قوة العدو واستظهارُهم بالرَّكْب وحرصُهم على

---

(١) أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي البصري، محدث مقرىء مفسر، من كبار التابعين، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين، قيل عنه: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقران منه، توفي ٩٣ هـ (معجم المفسرين ١/ ١٩١).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص٢٩٩ رقم ٨٣٦) وأبو داود في المراسيل (ص٢٧٥ رقم ٣٧٤) وابن جرير (٦/ج١٠/٣ ـ ٤) عن أبي العالية. بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٨٢ رقم ٢٩٧٨) و(٣/ ٣٨٣ رقم ٢٩٨٠) وابن ماجة (٢/ ٩٦١ رقم ٢٨٨١) من حديث جبير بن مطعم.
وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٢٤٢).
وأخرج البخاري (٦/ ٢٤٤ رقم ٣١٤٠) و(٦/ ٥٣٣ رقم ٣٠٥٢) و(٧/ ٤٨٤ رقم ٤٢٢٩) كلهم من طرق، عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عنه.
ولفظه مثل لفظ أبي داود (رقم: ٢٩٧٨).

المقاتلة عنها وتوطينِ نفوسهم على أن لا يُخَلّوا مراكزهم ويبذلوا منتهىٰ جَهْدهم، وضعفِ شأن المسلمين والْتِياثِ أمرهم واستبعادِ غلبتهم عادة، وكذا ذِكْرُ مراكزِ الفريقين فإن العُدْوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يُمشىٰ فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء بخلاف العدوة القصوى، وكذا قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتالَ ثم علمتم حالَكم وحالَهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هَيْبة منهم ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً. ﴿وَلَٰكِن﴾ جُمِعَ بينكم على هذه الحال من غير ميعاد. ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حقيقاً بأن يُفعل، وهو نصرُ أوليائه وقهر أعدائه، وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ بدل منه أو متعلق بقوله مفعولاً، والمعنى: ليموت من يموت عن بينة عاينَها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدَها لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفرُ من كفر وإيمانُ من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإسلام. والمرادُ بمَنْ هلك ومن حيَّ المشارِفُ للهلاك والحياة، أو مَنْ هذا حالُه في علم الله وقضائه. وقرىء لِيَهْلَكَ بالفتح، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب مَنْ حَيِيَ بفك الإدغام للحمل على المستقبل. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه وإيمانِ من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدَّر باذكُر، أو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبُنتم. ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر القتال وتفرقتْ آراؤكم بين الثبات والفرار. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير أحوالها.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ الضميران مفعولا يُري وقليلاً حال من الثاني، وإنما قللهم في أعين المسلمين ـ حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمَنْ إلى جنبه أتراهم سبعين؟ فقال أراهم مائة ـ تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل[1]: إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جزور، وقللهم في أعينهم قبل الْتحام القتال ليجترئوا[2] عليهم

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٤) بدون سند.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٩).

(٢) كُتِبت الهمزة على واو، والأصل كتابتها على نَبِرة.

ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة فإن البصر وإن كان قد يَرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوي في الشروط. ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلَّل به، أو لأن المراد بالأمر ثَمَّةَ الاكتفاءُ على الوجه المحكي ههنا إعزازُ الإسلام وأهله وإذلالُ الإشراك وحزبه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاءُ مما غَلَب في القتال. ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ للقائهم. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهرين بذكره مترقبين لنصره. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد ويُقْبِل عليه بشراشِره[١] فارغَ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

(٤٦) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ باختلاف الآراء، كما فعلتم ببدر أو أحد. ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ جواب النهي. وقيل عطف عليه ولذلك قرىء: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بالجزم، والريحُ مستعارة للدَّوْلة[٢] من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذِه مُشَبَّهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل المراد بها الحقيقة، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثُها الله، وفي الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[٣]. ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالكلاءَة والنصرة.

(٤٧) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العِير. ﴿بَطَرًا﴾ فخراً وأشراً. ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسولُ أبي سفيان أَنْ ارْجَعُوا فقد سلِمَتْ عيرُكم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نَقْدَمَ بدراً ونشربَ فيها الخمور وتعزف علينا القِيانُ ونطعِم بها من حَضَرنا من العرب، فوافوها ولكن سُقُوا كأس المنايا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بَطِرين مرائين، وأمرَهم بأن

(١) أي بكلِّيته.
(٢) الدَّوْلة بفتح الدال وضمها مِنَ التداول. وقيل: الدُّولة ـ بالضم ـ تكون في المال، وبالفتح تكون في الحرب (المصباح المنير مادة دَوَلَ).
(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٥٢٠ رقم ١٠٣٥) و(٦/ ٣٠٠ رقم ٣٢٠٥) و(٦/ ٣٧٦ رقم ٣٣٤٣) و(٧/ ٣٩٩ رقم ٤١٠٥). ومسلم (٢/ ٦١٧ رقم ٩٠٠) عن ابن عباس.

يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معطوف على بَطَراً إنْ جعل مصدراً في موضع الحال، وكذا إن جُعِل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيكم عليه.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

(٤٨) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مقدّر باذكر. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ في معاداة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ مقالة نفسانية، والمعنى: أنه ألقىٰ في روعهم وخيَّل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعُدَدهم، وأوهمهم أنّ اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجيرٌ لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدىٰ الفئتين وأفضلَ الدينين. ولكم خبرُ لا غالب، أو صفته، وليس صلته وإلا لانتصب كقولك: لا ضارباً زيداً عندنا. ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي تلاقى الفريقان. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع القهقرى أي بطل كيدُه وعاد ما خُيّل إليهم أنه مجيرُهم سببَ هلاكهم. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة. وقيل: لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحْنة وكاد ذلك يُثنيهم، فتمثّل لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك الكناني وقال لا غالب لكم اليوم وإني مجيرُكم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تَنْزِل نكص وكان يده في يد الحارث بن هشام فقال له: إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهزموا، فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناسَ سراقةُ، فبلغه ذلك فقال: والله ما شَعَرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتُكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان[1]. وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ إني أخافه أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم يَرَ قبله، والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلامه وأن يكون مستأنفاً.

(٤٩) ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة. وقيل هم المشركون. وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين. ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنون المؤمنين. ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا يدي لهم[2] به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٨).
عن ابن عباس بإسناد صحيح.

(٢) أي لا قوة لهم به.

ألف. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جواب لهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يَذِلّ من استجار به وإن قلّ ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

(٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ولو رأيت، فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكسُ إنْ. ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ببدر، وإذ ظرف ترى، والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حالَهم حينئذ، والملائكةُ فاعل يتوفى ويدل عليه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله عز وجل وهو مبتدأ خبرُه: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾، والجملةُ حال من الذين كفروا، واستُغني فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين. ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ظهورهم أو أستاههم، ولعل المراد تعميم الضرب أي يضربون ما أُقبل منهم وما أدبر. ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عطف على يضربون بإضمار القول، أي ويقولون ذوقوا بشارةً لهم بعذاب الآخرة. وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضُربوا التهبت النار منها، وجواب لو محذوف لتفظيع الأمر وتهويله.

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب[1]. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهو خبر لذلك. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على «ما» للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم، لا أن لا يعذبهم بذنوبهم فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب. وظلاّم للتكثير لأجل العبيد.

(٥٢) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثلَ دأب آل فرعون، وهو عملُهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون. ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بسبب أن الله. ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكفِّ عن تعرض الآيات والرسل بمعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ تبعه منهم والسعيِ في إراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد المبعث، وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جري عادته تعالى على تغييره متى يغيروا حالهم. وأصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء

(١) وما فيه من معنى البصر للإشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة (س٤/ ٢٧).

الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وبيان ما أُخِذَ به آلُ فرعون. وقيل الأول لتشبيه الكفر والأخذ به والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم. ﴿وَكُلٌّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبْط وقتلى قريش. ﴿كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان، ولعله إخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيهِ على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، وقوله:

(٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدل من الذين كفروا بدلَ البعض للبيان والتخصيص، وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم. ومِنْ لتضمين المعاهدة معنى الأخذ، والمراد بالمرة مرة المعاهدة أو المحاربة[1]. ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ سُبّة الغدر ومغبته، أو لا يتقون الله فيه، أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فإما تصادفنهم وتظفرن بهم، ﴿فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ مَنْ وراءهم من الكفرة. والتشريد تفريق على اضطراب. وقرىء فشرذ بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر، ومِنْ خلفِهم، والمعنى واحد فإنه إذا شرَّد مَنْ وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعل المشردين يتعظون.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين. ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك. ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إلَيْهِمْ عهدهم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تناجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في الخوف أو العلم بنقض العهد، وهو في موضع الحال من النابذ على

(١) قوله «ينقضون» بصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته في كل حال (س٤/ ٣٠).

الوجه الأول أي ثابتاً على طريق سوي أو منه أو من المنبوذ إليهم أو منهما على غيره، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ خطاب للنبي ﷺ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ مفعولاه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بالياء على أن الفاعل ضمير أحد أو مَنْ خلفهم، أو الذين كفروا والمفعول الأول أنفسهم فحذف للتكرار، أو على تقدير أن سبقوا وهو ضعيف لأن أنْ المصدرية كالموصول فلا تحذف أو على إيقاع الفعل على: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر وأنّ لا صلةٌ وسبقوا حال بمعنى سابقين أي مُفْلتين، والأظهرُ أنه تعليل للنهي أي: لا تحسبنهم سبقوا فأفلتوا لأنهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبَهم عاجزاً عن إدراكهم، وكذا إن كسرتَ إنَّ إلا أنه تعليل على سبيل الاستئناف. ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدو، وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضي العهد أو الكفار. ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة بن عامر[١] سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر: «ألا إن القوة الرميُ» قالها ثلاثاً[٢]. ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أقواه. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تُربط في سبيل الله، فِعَال بمعنى مفعول، أو مصدر سمي به يقال ربط رِبْطاً ورِباطاً ورابَطَ مرابطة ورباطاً، أو جمع ربيط كفصيل وفِصَال. وقرىء رُبُطِ الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعَطْفِها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوفون به، وعن يعقوب تُرَهِّبون بالتشديد، والضمير لما استطعتم أو للإعداد. ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني كفار مكة. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة. قيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفُرس. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم. ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم[٣]. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب[٤].

---

(١) عقبة بن عامر: هو عقبة بن عامر بن نابي. الأنصاري السلمي بدري شهد العقبة الأولى وقتل باليمامة.
ـ تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣٨٤ رقم ٤١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٢ رقم ١٦٧/ ١٩١٧) عنه.

(٣) فسر البيضاوي علم الله تعالى بالمعرفة، وهذا غير صحيح لأن المعرفة مكتسبة. قال الراغب الأصفهاني. (ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال يعرف كذا) المفردات مادة «عرف».

(٤) والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجِبَة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى (س٤/ ٣٢).

۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ
أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

(٦١) ﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ ﴾ مالوا ومنه الجُناح. وقد يعدّىٰ باللام وإلى. ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ للصلح أو الاستسلام. وقرأ أبو بكر بالكسر. ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ وعاهد معهم، وتأنيث الضمير لحمل السلم على نقيضها فيه. قال:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

وقرىء فاجنُح بالضم. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ولا تَخَفْ من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم. ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنياتهم. والآية مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم وقيل عامة نسختها آية السيف.

(٦٢) ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ فإن مُحْسِبك الله وكافيك قال جرير:

إنِّي وَجَدْتُ مِنَ المَكَارِمِ حَسْبَكُم أَنْ تَلْبَسُوا حرَّ الثِّيَابِ وَتَشْبَعُوا

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ جميعاً.

(٦٣) ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾[1] مع ما فيهم من العصبية والضغينة في أدنى شيء والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ، وبيانُه: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي تناهى عداوتهم إلى حد لو أنفق منفقٌ في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ بقدرته البالغة، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء. ﴿ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ ﴾ تام القدرة والغلبة لا يَعْصى عليه ما يريده. ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده، وقيل الآية في الأوس والخزرج كان بينهم محن لا أمد لها ووقائعٌ هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوْا وصاروا أنصاراً.

(٦٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ كافيك. ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إما في محل النصب على المفعول معه كقوله:

إِذَا كَانَتِ الهَيْجَاءُ وَاشْتَجَرَ القَنَا فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكُ سَيْفٌ مُهَنَّدُ

أو الجرِ عطفاً على المكني عند الكوفيين، أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى أي كفاك الله والمؤمنون. والآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر، وقيل أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست

(١) وذكر القلوب للإشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهراً (س٤/ ٣٣).

نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه فنزلت[١]. ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في إسلامه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

(٦٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾ بالغ في حثهم عليه، وأصلُه الحَرَض وهو أن ينهكه المرض حتى يَشفى على الموت. وقرىء حَرِّصْ من الحرص. ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شرطٌ في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة والوعدِ بأنهم إنْ صبروا غَلَبوا بعون الله وتأييده. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تَكُنْ بالتاء في الآيتين ووافقهم البصريان في وإنْ تكُن منكم مائة. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر لا يثبتون ثبات المؤمنين رجاءَ الثواب وعواليَ الدرجات قَتَلُوا أو قُتِلُوا ولا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

---

(١) ● أخرجه الواحدي في «الأسباب» (ص٢٣٨) والطبري في الكبير (١٢/٦٠ رقم ١٢٤٧٠) وأبو الشيخ وابن مردويه ـ كما في فتح القدير (٢/ ٣٢٤) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي. ثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، وأسلم عمر تمام الأربعين فأنزل الله عز وجل «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين».
وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٢٨) وقال: فيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذّاب.
● وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في فتح القدير (٢/ ٣٢٤). عن سعيد بن جبير نحوه، وذكر أنهم ثلاث وثلاثون. وهو مرسل. صححه السيوطي في «لباب النقول» ص١٣٣.
وقال الشيخ عصام بن عبدالمحسن الحميدان في تخريج أسباب النزول للواحدي ص٢٣٨ عقب الحديث: ولا أراه يصح، لأسباب: ـ
١ ـ قول الحافظ ابن كثير «في هذا نظر لأن الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة، إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة» تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٤).
٢ ـ أن الثابت في السيرة أن عدد المؤمنين المهاجرين إلى أرض الحبشة ثلاث وثمانون رجلاً سوى النساء والأبناء ومن بقي بمكة (السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٦، ٢٩٤)) (السيرة النبوية لمحمود شاكر: ١٠١، ١٠٢) وإسلام عمر كان بعد ذلك فكيف يكون تمام الأربعين؟
٣ ـ أن معنى الآية يضعف هذا السبب، فالآية تأمر النبي ﷺ والذين آمنوا معه أن يكون الله وحده حسبهم، في حين أن معنى السبب يوحي بأن معنى الآية: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين مثل عمر. وهذا التفسير مستبعد جداً، لأن القرآن دائماً يقرر أن الاعتماد على الله وحده هو صلب التوحيد كما قال تعالى: «وإن يُريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله» [الأنفال: ٦٢] وغير ذلك، وقد صح عن الشعبي أنه فسرها بمثل ما قررنا (٦/ج١٠/ ٣٧) وغيره، فتح القدير (٢/ ٣٢٥) والله أعلم» هـ.

﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٦٦ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧﴾

(٦٦) ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ لمّا أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثباتَ لهم وثَقُل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل كان فيهم قلة فأُمروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد والضعف ضعف البدن. وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فيها، وفيه لغتان الفتح وهو قراءة عاصم وحمزة والضم وهو قراءة الباقين[١]. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون[٢].

(٦٧) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ وقرىء للنبي على العهد. ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ وقرأ البصريان بالتاء. ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يُكثِر القتل ويبالغ فيه حتى يُذِلّ الكفر ويُقِل حِزبه ويعزّ الإسلامُ ويستولي أهلُه، مِنْ أثخنه المرض إذا أثقله وأصله الثخانة، وقرىء يُثَخِّن بالتشديد للمبالغة. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ حطامَها بأخذكم الفداء. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه. وقرىء بجرّ الآخرة على إضمار المضاف كقوله:

أكُلَّ امْـرِىءٍ تَحْسَبِيـنَ امْـرَأً ... ونَـارٌ تُـوقَـدُ بِـاللَّيْـلِ نَـاراً

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يُغَلِّب أولياءه على أعدائه. ﴿حَكِيمٞ﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أَمَرَ بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخَيَّر بينه وبين المنّ لمّا تحولت الحالُ وصارت الغلبة للمؤمنين. روي أنه عليه الصلاة والسلام أُتيَ يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار فيهم، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومُك وأهلك استَبْقِهم لعل الله يتوب عليهم وخذْ منهم فدية تقوّي بها أصحابَك وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقَهم فإنهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء مكّني من فلان ـ لنَسيبٍ له ـ ومكنْ علياً وحمزة مِن أخويهما فنضرب أعناقهم، فلم يهوَ ذلك رسول الله ﷺ وقال: «إن الله لَيُلَيِّن قلوبَ رجال حتى تكون أَلْينَ من اللين، وإن الله ليشدِّد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مَثَلَكَ يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٣] ومَثَلُك يا عمر مَثَلُ نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى

---

(١) أي بفتح الضاد وضمها (الضَّعف، والضُّعف).

(٢) لم يتعرض هنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين ـ مع أن مدار الغلبة في الصورتين هو مجموع الأمرين ـ أي نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ـ وذلك اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر.

وما تشعر به كلمة «مع» من متبوعية مدخولها لأصالتهم من حيث إنهم المباشرون للصبر (س٤/ ٣٥).

(٣) إبراهيم: «٣٦».

ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[١] فخيّر أصحابَه فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال: يا رسول الله أخبرني فإن أجدُ بكاء بكيْت وإلا تباكيت فقال: «أبْكِ على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة»[٢]. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون، وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يُقَرون عليه.

لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا
يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباتُه في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده أو أن لا يعذب أهلُ بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحِل لهم. ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ لنالكم. ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ من الفداء. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»[٣]. وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

(٦٩) ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم. وقيل أَمسَكوا عن الغنائم فنزلت. والفاء للتسبب، والسببُ محذوف تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا. وبنحوه تشبث من زعم أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة. ﴿حَلَٰلٗا﴾ حال من المغنوم، أو صفة للمصدر أي أكلاً حلالاً. وفائدتُه إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في مخالفته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَّحِيمٞ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ وقرأ أبو عمرو من الأَسارىٰ. ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ

---

(١) نوح: «٢٦».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣، ٣٨٤) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ٤٣) والترمذي (٤/ ٢١٣ رقم ١٧١٤) مختصراً مع الإشارة إلى القصة الطويلة، وأخرجه الترمذي أيضاً (٥/ ٢٧١ رقم ٣٠٨٤) والحاكم (٣/ ٢١ ـ ٢٢) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٨) من حديث عبدالله بن مسعود.
قال الترمذي: هذا حديث حسن. وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.
فالحديث ضعيف، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.
● وأخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٥ رقم ٥٨/ ١٧٦٣) في سياق أطول من ذلك لكنه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ٤٨) لكن ليس فيه ذكر عمر بن الخطاب وفيه زيادة: لقوله: (أي سعد بن معاذ) يا نبي الله كان الإثخان أحب إليّ من استبقاء الرجال.
وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧١ رقم ٨١).. «ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع بمعناه. وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه «لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب».

خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء. روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يَفْدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بَقِيت؟! فقال: «أين الذهب الذي دفعتَه إلى أم الفضل وقتَ خروجك وقلتَ لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدثٌ فهو لكِ ولعبدالله وعبيدالله والفضل وقثم» فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي تعالى»، قال: فأشهد أنك صادق وأنْ لا إله إلا الله وأنك رسوله والله لم يَطَّلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل[1]، قال العباس فأبدلني الله خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ يعني الأسرى. ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك. ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل. ﴿مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فسيمكّنُكَ منهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(٧٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ هم المهاجرون هَجَروا أوطانهم حباً لله ولرسوله. ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فصرفوها في الكُراع[2] والسلاح وأنفقوها على المحاويج. ﴿وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمباشرة القتال[3]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار آووْا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نُسخ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[4] أو بالنصرة والمظاهرة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي من توليهم في الميراث. وقرأ حمزة وِلاَيتهم ـ بالكسر ـ تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكِتابة والإمارة كأنه بتوليه صاحبه يزاول عملاً. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢٤) من حديث عائشة.
وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) الكراع أي الخيل.

(٣) ولعل تقديم الأموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً وأتم دفعاً للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (س٤/ ٣٧).

(٤) الأنفال: «٧٥».

فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين. ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد، فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث أو المؤازرة، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولّي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار. ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر. ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين. وقرىء كَثِير.

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لمّا قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بيّن أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه في الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تَبِعة له ولا منّة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتّسم بسمتهم فقال:

(٧٥) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن. واستدل به على توريث ذوي الأرحام. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الموارث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً واعتبار القرابة ثانياً. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطي حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرشُ وحَمَلَتُه يستغفرون له أيام حياته»[1].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره كما في الفتح السماوي ص٦٦٢ وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠). فهو حديث موضوع.

سُورَةُ التَّوبَة

ترتيبها ٩ — آياتها ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

سورة التوبة مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة
وقيل إلا آيتين من قوله ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾[١]

وهي آخر ما نزل. ولها أسماء أخر: التوبة والمقشقِشَة والبَحُوث والمبعثِرة والمنقِّرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكِّلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقشة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم.

وآيها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون. وإنما تُركت التسمية فيها لأنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله أمان، وقيل كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية بيَّن موضعَها وتوفِّي ولم يبين موضعها، وكانت قصتُها تُشابه قصة الأنفال وتناسبها لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذُها فضمت إليها[٢]، وقيل لما اختلفت الصحابة في أنهما سورة واحدة هي سابعة السبع الطوال أو سورتان تُركت بينهما فرجة ولم تكتب بسم الله.

(١) ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي هذه براءة، ومِنْ ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصلةٌ من الله ورسوله، ويجوز أن تكون براءة مبتدأ لتخصصها بصفتها والخبرُ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقرىء بنصبها على اسمعوا براءةً، والمعنى: أن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

---

(١) التوبة: ١٢٨.
(٢) أخرجه أبو داود (٧٦٨) والترمذي (٣٠٨٦) وأحمد (١/ ٥٧٥) والحاكم (٢/ ٢٢١، ٢٣٠) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

وإنما عُلِّقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم وإن كانت صادرة بإذن الله تعالى واتفاقِ الرسول فإنهما برئا منها، وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً منهم بنو ضَمْرة وبنو كنانة فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال:

(٢) ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم لأنها نزلت في شوال. وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، لما روي أنها لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكب العضباء[١] ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله تعالى عنه أميراً على الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل مني» فلما دنا علي رضي الله تعالى عنه سمع أبو بكر الرُّغاء[٢] فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال مأمور، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحدثهم عن مناسكهم، وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أُمرتُ بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده[٣]. ولعل قوله ﷺ لا يؤدي عني إلا رجل مني ليس على العموم، فإنه ﷺ بعث لأن يؤدي عنه كثير لم يكونوا من عِتْرته، بل هو مخصوص بالعهود فإن عادة العرب أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها، ويدل عليه أنه في بعض الروايات «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي»[٤]. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإنْ أمهلكم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٣) ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إعلام، فعَال بمعنى الإفعال كالأمان والعطاء، ورفعُه كرفع براءة على الوجهين. ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجَمَرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[٥] وقيل يوم عرفة لقوله ﷺ: «الحج عرفة»[٦]. ووصْفُ الحج بالأكبر لأن العمرة تسمّىٰ

---

(١) أصل العضب القطع، والعضباء هي ناقة رسول الله ﷺ، وسميت بذلك لنجابتها لا لشق أذنها (المصباح المنير مادة عضب).

(٢) الرُّغَاء: صوت البعير.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٤٧٦ رقم ٣٦٧) و(٣/ ٤٨٣ رقم ١٦٢٢) و(٦/ ٢٧٩ رقم ٣١٧٧) و(٨/ ٨٢ رقم ٤٣٦٣) و(٨/ ٣١٧ رقم ٤٦٥٥ ورقم ٤٦٥٦) و(٨/ ٣٢٠ رقم ٤٦٥٧). ومسلم (٢/ ٩٨٢ رقم ١٣٤٧/٤٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٩٠) وهو حديث حسن أو صحيح. انظر الفتح السماوي ص٦٦٦.

(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٨٣ رقم ١٩٤٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١) وابن ماجة (٢/ ١٠١٦ رقم ٣٠٥٨). من حديث ابن عمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٦) أخرج أحمد في المسند (٤/ ٣٠٩، ٣٣٥) وأبو داود (٢/ ٤٨٥ رقم ١٩٤٩) والترمذي (٣/ ٢٣٧ رقم ٨٨٩) والنسائي (٥/ ٢٥٦) وابن ماجة (٢/ ١٠٠٣ رقم ٣٠١٥) وابن حبان (ص٢٤٩ رقم ١٠٠٩) والحاكم في المستدرك =

الحج الأصغر، أو لأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال، أو لأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عيدُه أعياد أهل الكتاب، أو لأنه ظهر فيه عزُّ المسلمين وذلُّ المشركين. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي بأن الله. ﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي من عهودهم. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ عطف على المستكنّ في بريء، أو على محل إن واسمها في قراءة مَنْ كسرها إجراءً للأذان مجرىٰ القول، وقرىء بالنصب عطفاً على اسم إنّ أو لأن الواو بمعنى مع ولا تكرير فيه، فإن قوله براءة من الله إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بذلك ولذلك علّقه بالناس ولم يخصّه بالمعاهدين. ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر. ﴿فَهُوَ﴾ فالتوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة أو ثبتم على التولي عن الإسلام والوفاء. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

(٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين، أو استدراك فكأنه قيل لهم بعد أن أُمروا بنبذ العهد إلى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم. ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه أو لم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط[1]. ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم ولا تُجروهم مجرىٰ الناكثين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

(٥) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انقضىٰ، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابَسه مِنْ سَلْخِ الشاة. ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها، وقيل هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وهذا مخل بالنظم مخالف للإجماع فإنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها. ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين. ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حل أو حَرَم. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم، والأَخِيذُ الأسيرُ. ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ واحبسوهم أو حِيلُوا بينهم وبين المسجد الحرام. ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾

= (١/ ٤٦٤) والدارقطني في السنن (٢/ ٢٤٠ رقم ١٩) وابن الجارود في المنتقى (ص١٨٩ رقم ٤٦٨) والدارمي (٢/ ٥٩) والطيالسي في منحة المعبود (١/ ٢٢٠ رقم ١٠٥٦) والبيهقي (٥/ ١١٦) والبغوي في شرح السنة (٧/ ٢٩٠ رقم ٢٠٠١). من حديث عبدالرحمن بن يعمر. وهو حديث صحيح. وقد صححه الألباني في الإرواء (رقم ١٠٦٤).

(١) كلمة «ثم» للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة (س٤/ ٤٢).

كل ممر لئلا يتبسطوا في البلاد، وانتصابُه على الظرف. ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الشرك بالإيمان. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فدعُوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يُخلىٰ سبيله. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف ووَعَد لهم الثواب بالتوبة.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمِّنه. ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر[١]. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ موضع أمنه إن لم يسلم، وأحدٌ رُفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إنْ من عوامل الفعل. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن أو الأمر. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وَغْرة صدورهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه. وخبرُ يكون كيف وقُدِّم للاستفهام، أو للمشركين، أو عند الله، وهو على الأولين صفة للعهد أو ظرف له أو ليكون، وكيف على الأخيرين حال من العهد، وللمشركين إن لم يكن خبراً فتبيين[٢]. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم المستثنون قبل. ومحله النصب على الاستثناء، أو الجرُّ على البدل، أو الرفع على أن الاستثناء منقطع أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام[٣]. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فتربصوا أمرهم فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾[٤] غير أنه مطلق وهذا مقيد، وما تحتمل الشرطية والمصدرية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سبق بيانه.

(٨) ﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاءِ حكمه مع التنبيه على العلة. وحذف الفعل للعلم به كما في قوله:

وخَبَّرَ تُمانِي أَنَّمَا المَوْتُ بِالقُرَى   فكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةٌ وَقَلِيبُ

(١) والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل الفصاحة (س٤/ ٤٤).
(٢) وتكرير كلمة «عند» للإيذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة (س٤/ ٤٥).
(٣) والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والإشعار بسبب توكيدها (س٤/ ٤٥).
(٤) التوبة: «٤».

أي فكيف مات[١]. ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي وحالهم أنهم إن يظفروا بكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا فيكم. ﴿إِلًّا﴾ حلفاً وقيل قرابة قال حسان:

لعَمْـــرُكَ إنَّ إلَّـــكَ مِـــنْ قُـــرَيْـــشٍ كـــإلِّ السَّقْـــبِ مِـــنْ رَألِ النَّعَـــامِ

وقيل ربوبية، ولعله اشتق للحِلف من الإلّ وهو الجؤار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، ثم استعير للقرابة لأنها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والتربية. وقيل اشتقاقه من أَلَلَ الشيءَ إذا حدده أو من ألّ البرقُ إذا لمع. وقيل إنه عبري بمعنى الإله لأنه قرىء ايلا كجبرئل وجبرئيل. ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله. ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر. ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقُبوا، فإنهم بعد ظهورهم لا يرضوْن، ولأن المراد إثباتُ إرضائهم المؤمنين بوعد الإيمان والطاعةِ والوفاء بالعهد في الحال واستبطانِ الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه[٢].

﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما تتفوه به أفواههم. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون لا عقيدة تَزَعُهم ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجرّ إلى أحدوثة السوء.

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ
إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي
الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً وهو اتباع الأهواء والشهوات. ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار. والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أداهم إلى الصد. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا أو ما دل عليه قوله:

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقيل الأول عام في الناقضين، وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرارة.

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في

---

(١) قال أبو السعود: (وحذف الفعل المستنكَر للإيذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود ما يوجب استنكاره، لا لمجرد كونه معلوما) س٤/٤٦.

(٢) ونسبة الإرضاء إلى الأفواه للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم (س٤/٤٦).
=

الذين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين.

وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ
يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهود. ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام. ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل. وقيل المراد بالأئمة رؤساء المشركين، فالتخصيص إما لأن قتلهم أهمّ وهم أحق به أو للمنع من مراقبتهم. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وروح عن يعقوب أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل، والتصريح بالياء لحن[١]. ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا أيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر ليست يميناً، وهو ضعيف لأن المراد نفي الوثوق عليها لا أنها ليست بأيمان لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾. وقرأ ابنُ عامر لا إيمان لهم بمعنى لا أمان أو لا إسلام، وتشبث به من لم يقبل توبة المرتد وهو ضعيف لجواز أن يكون بمعنى لا يؤمنون على الإخبار عن قوم معينين أو ليس لهم إيمان فيراقَبوا لأجله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقاتِلوا، أي ليكن غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه لا إيصالُ الأذية بهم كما هو طريقة المؤذِين.

(١٣) ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾ تحريض على القتال، لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل. ﴿نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاوَنوا بني بكر على خزاعة[٢]. ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في

---

(١) القراءات في «أئمة» عند القراء السبعة هي أن بعضهم قرأ بهمزتين محققتين كما هو أصل قراءتها في العربية المشهورة. وقرأ قوم بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بيْن أي بين مخرج الهمزة والياء والألف، ولعلها الأصل عند البيضاوي. وقرأ قوم بإبدال الهمزة الثانية ياء صريحة، وقد أنكر الزمخشري هذه القراءة الأخيرة فقال: (وأما التصريح بالياء فليس بقراءة، ولا يجوز أن تكون قراءة، ومن صرح بها فهو لاحِنٌ محرف) الكشاف (١٤٢/٢) والبيضاوي تبع الزمخشري في ذلك حيث قال: (والتصريح بالياء لحن)... إلا أن هذه القراءة صحيحة وقد قرأ بها رأس القراء والنحاة، لذلك رد أبو حيان على الزمخشري فقال: (وذلك دأبه في تلحين المقرئين، وكيف يكون ذلك لحناً وقد قرأ به رأس البصريين والنحاة أبو عمرو بن العلاء وقارىء مكة ابنُ كثير وقارىء مدينة الرسول ﷺ نافع) البحر المحيط (١٥/٥).

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» بدون سند (١٨/٤). وانظر القصة وتخريجها قريباً.

أمره بدار الندوة على ما مر ذكره في قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[١]. وقيل[٢] هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا بإخراجه من المدينة. ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بالمعاداة والمقاتلة لأنه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به. فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم؟ ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم. ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ فقاتلوا أعداءكم ولا تتركوا أمره. ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يُخشىٰ إلا منه..

(١٤) ﴿ قَٰتِلُوهُمْ ﴾ أمر بالقتال بعد بيان موجِبه والتوبيخ على تركه والتوعيد عليه. ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ وعد لهم ـ إن قاتلوهم ـ بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم. ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني بني خزاعة. وقيل بطوناً من اليمن وسبأ قدِموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذًى شديداً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لما لقوا منهم وقد أوفى الله بما وعدهم. والآيةُ من المعجزات. ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ ابتداء إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وقد كان ذلك أيضاً. وقرىء ويتوبَ بالنصب على إضمار أَنْ على أنه من جملة ما أجيب به الأمر، فإن القتال كما تسبب لتعذيب قوم تسبب لتوبة قوم آخرين. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بما كان وما سيكون. ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

(١٦) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، وقيل للمنافقين. وأمْ منقطعة، ومعنىٰ الهمزة فيها التوبيخ على الحسبان. ﴿ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ ولم يتبين الخلّص منكم وهم الذين جاهدوا من غيرهم، نفىٰ العلم وأراد نفي المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إنّ تعلق العلم به مستلزِم لوقوعه. ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ ﴾ عطف على جاهدوا داخلٌ في الصلة. ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ بطانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وما في «لمّا» من معنى التوقع منبِّه على أن تبين ذلك متوقع. ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعلم غرضكم منه وهو كالمزيح لما يُتوهم من ظاهر قوله: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ﴾[٣].

---

(١) الأنفال: «٣٠».
(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٦١) من قول الجبائي.
(٣) وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم =

(١٧) ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم. ﴿أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام. وقيل هو المراد، وإنما جُمع لأنه قبلة المساجد وإمامُها فعامرُه كعامر الجميع، ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد[1]. ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، وهو حال من الواو والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارةِ بيت الله وعبادةِ غيره. روي أنه لما أُسر العباس عيّره المسلمون بالشرك وقطيعةِ الرحم وأغلظَ له عليٌّ رضي الله تعالى عنه في القول فقال: ما بالُكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا إنا لنعمُر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني. فنزلت[2]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك. ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لأجله.

(١٨) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي إنما تستقيم عَمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها تزيينُها بالفَرْش وتنويرها بالسُّرج وإدامةُ العبادة والذكر ودروس العلم فيها وصيانتُها مما لم تُبنَ له كحديث الدنيا[3]، وعن النبي ﷺ:

= ومداراً للثواب.

وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين (س٤/٤٩).

(١) أي (مسجد الله).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦ج١٠/٩٥) وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/١٤٥) ـ عن ابن عباس بسند ضعيف.

وأخرجه ابن جرير (٦/ج١٠/٩٦) وأبو الشيخ ـ كما في «الدر» (٤/١٤٦) ـ عن الضحاك.

● وأخرج مسلم (٣/١٤٩٩ رقم ١١١/١٨٧٩) وابن جرير (٦/ج١٠/٩٥) وأحمد (٤/٢٦٩) والطبراني في الأوسط (١/٢٦٦ رقم ٤٢٣).

عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ، فقالَ رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلام، إلاَّ أنْ أُسْقِيَ الحاجَّ. وقال آخرُ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلامِ. إلاَّ أنْ أعمُرَ المسجدَ الحرامَ. وقال آخرُ: الجهادُ في سبيل اللهِ أفضلُ مما قلتُم. فزجرهُم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتَكُم عند منبر رسولِ الله ﷺ. وهو يومُ الجمعةِ. ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُهُ فيما اختلفتم فيه. فأنزل اللهُ عز وجلَّ: أجعلتم سقايةَ الحاجِّ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ» الآية إلى آخرها.

● وأخرجه ابن جرير (٦/ج١٠/٩٥ ـ ٩٦) من وجه آخر عن النعمان به، وإسناده صحيح.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٤/٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وقال حديث حسن غريب، وابن ماجة (٢/١٣٧٧ رقم ٤١١٢) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنَّ الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاهُ وعالمٌ أو متعلمٌ».

● وأخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/٢٢٩ رقم ٤٠٢٨) عن عبدالله بن ضَمْرَة.

● وأخرجه أبو داود في «المراسيل» (رقم: ٥٠٢) وأحمد في الزهد (رقم: ١٥٤) عن محمد بن المنكدر، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

● وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/١٥٧) و(٧/٩٠) والبيهقي في الزهد (رقم: ٢٤٦) من حديث جابر بن عبدالله.

وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٣/٥٤٩ رقم ٤٢٨٠ ـ مع الفيض) وعزاه لأبي نعيم والضياء في المختارة، عن جابر. ورمز لصحته، وقال المناوي: رمز المصنف لحسنه. =

«قال الله تعالى إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبىٰ لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المَزُور أن يكرم زائره»(١). وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما عُلِم أن الإيمان بالله قرينُه وتمامُه الإيمانُ به، ولدلالة قوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة عليه. ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي في أبواب الدين فإن الخشية عن المحاذير جِبلِّية لا يكاد العاقل يتمالك عنها. ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم؟ ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

(١٩) ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ السقاية والعمارة مصدر أسقىٰ وعَمَر فلا يُشبّهان بالجثث بل لا بد من إضمار تقديرُه أجعلتم أهل سقاية الحاج

= ● وأخرجه الطبراني ـ كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٥) ـ من حديث أبي الدرداء. وقال الهيثمي «فيه خداش بن المهاجر ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
● وأخرجه البزار في المسند (٤/ ١٠٨ رقم ٣٣١٠ ـ كشف) من حديث عبدالله بن مسعود وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٤) وقال: رواه البزار، وفيه المغيرة بن مطرف ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا».
● وأخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» (١/ ٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري.
والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧٣ رقم ٩٦): لم أجده هكذا. وفي الطبراني ـ المعجم الكبير (٦/ ٢٥٣ رقم ٦١٣٩) و(٦/ ٢٥٥ رقم ٦١٤٥)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣١) وقال: أحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، قلت: يعني رقم (٦١٤٥) ـ عن سلمان عن النبي ﷺ: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر لله، وحق على المزور أن يكرم زائره».
وروى عبدالرزاق [في المصنف (١١/ ٢٩٦ رقم ٢٠٥٨٤)] ـ ومن طريقه الطبري عن معمر عن ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، قال «وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ـ وإن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها».
ومن هذا الوجه أخرجه عبدالله بن المبارك في الزهد ـ (ص٢ رقم٦) ـ» هـ.
● وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢١٣) عن أبي سعيد الخدري بلفظ «يقول الله يوم القيامة أين جيراني؟ فتقول الملائكة، ومن ينبغي أن يكون جيرانك؟ فيقول: عمار مسجدي». وقال: غريب من حديث أبي الهيثم سليمان بن عمرو العتواري، لا أعلم رواه له راوياً إلاّ «دراجاً».
قلت: ـ وفيه مع ضعف دراج، بقية، وابن لهيعة.
وقال الحافظ العراقي في تخريج إحياء علوم الدين (١/ ١٥٢) سنده ضعيف. ثم قال بعد أن أورد الحديث «وهو في الشعب نحوه موقوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ بإسناد صحيح. وأسند ابن حبان في الضعفاء ـ (٢/ ٨٩ ـ ٩٠) ـ آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه» هـ.

كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. ويؤيد الأول قراءة من قرأ سُقاة الحاج وعَمَرَة المسجد والمعنى إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبيّن عدم تساويهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكفرةُ ظَلَمَةٌ بالشرك ومعاداةِ الرسول عليه الصلاة والسلام منهمكون في الضلالة فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب؟! وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين[1].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟
ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنىٰ عند الله دونكم.

(٢١) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وقرأ حمزة يَبْشُرهم بالتخفيف، وتنكيرُ المبشر به إشعارٌ بأنه وراء التعيين والتعريف.

(٢٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأبيد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله، أو نعيم الدنيا.

(٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلت في المهاجرين فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا: إنْ هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين[2]. وقيل نزلت نهياً عن موالاة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة[3]، والمعنى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها[4].

---

(١) وإسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم.
وتوجيهِ النفي ههنا والإنكار فيما سبق «أجعلتم سقاية..» إلى الاستواء والتشبيه ـ مع أن دعوىٰ المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين إنما هي الأفضلية دون التساوي والتشابه ـ للمبالغة في الرد عليهم، فإن نفي التساوي والتشابه نفي للأفضلية بالطريق الأولىٰ (س٤/ ٥٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤ رقم ١٠١): أخرجه الثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.
قلت: فيه ثلاث علل: التعليق، وضعف جويبر، والانقطاع بين الضحاك عن ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤): ذكره الثعلبي أيضاً عن مقاتل، وسنده إليه في أول الكتاب.
قلت: مقاتل هالك.

(٤) قوله «ومن يتولهم» إفراد الضمير في الفعل لمراعاة لفظ الموصول، وللإيذان باستقلال كل واحد منهم في =

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(٢٤) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم مأخوذ من العُشْرة. وقيل من العشرة فإن العشيرة جماعة ترجع إلى عِقْد كعِقد العشرة. وقرأ أبو بكر وعشيراتُكم وقرىء وعشائرُكم. ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها[١]. ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ الحب الاختياري دون الطبيعي، فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفظ عنه. ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ جواب ووعيد والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل فتح مكة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لا يرشدهم. وفي الآية تشديد عظيم وقَلّ من يتخلص منه.

(٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني مواطن الحرب وهي مواقفها. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين، ويجوز أن يقدر في أيام مواطن، أو يفسر الموطن بالوقت كمَقْتل الحسين، ولا يمنع إبدال قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ منه أن يعطَفَ على موضع في مواطن فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إياهم في جمع المواطن. وحنينُ واد بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون ـ وكانوا اثني عشر ألفاً، العشرة الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطُلقاء ـ هوازنَ وثقيفاً وكانوا أربعة آلاف، فلما التقوْا قال النبي ﷺ أو أبو بكر رضي الله تعالى عنه أو غيره من المسلمين: لن نُغلَب اليوم من قلّة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمين إعجابُهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فَلُّهم مكة ويقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس آخذاً بلجامه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته فقال للعباس ـ وكان صيّتاً ـ صِحْ بالناس، فنادى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكرّوا عُنُقاً واحداً يقولون لبيك لبيك، ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال ﷺ هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفّاً من تراب فرماهم ثم قال: «انهزِموا ورب الكعبة» فانهزموا[٢]. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ أي الكثرة. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء أو من

= الاتصاف بالظلم، لا أن المراد تولي فرد واحد (س٤/ ٥٤).

(١) وصفت الأموال بذلك إيماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكدّ اليمين (س٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ رقم ٧٦/ ١٧٧٥) وأحمد (١/ ٢٠٧) من حديث العباس ببعض يسير.
وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤) عن الربيع.
قلت: فيه أبو جعفر الرازي ضعيف، وكذلك أحمد بن عبدالجبار العطاردي ضعيف.

أمر العدو. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أي بسعتها لا تجدون فيها مفراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ الكفار ظهوركم. ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين والإدبار الذهاب إلى خلف خلاف الإقبال.

ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمنوا. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا[(١)]، وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حاليهما. وقيل[(٢)] هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم أي الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسبي. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم. روي أن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّهم وقد سُبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالُنا ـ وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأُخِذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ـ فقال ﷺ: «اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم» فقالوا ما كنا نَعْدِل بالأحْسَاب شيئاً، فقام رسول الله ﷺ وقال: «إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنّا خيّرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبْي وطابت نفسه أن يرده فشأنُه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه، فقالوا: رضينا وسلمنا، فقال: «إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضىٰ، فمُروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا» فرفعوا أنهم قد رضوا[(٣)].

= ● وأخرج الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٨) من حديث أنس قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة والمدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل، فلما اشتد القتال ولو مدبرين. . . الحديث.
قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح.
● وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه نحو حديث أنس ـ كما في الدر المنثور (٤/ ١٥٨).

(١) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن أبزى رضي الله عنه في قوله «وعذّب الذين كفروا» قال: بالهزيمة والقتل. وفي قوله «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء» قال: على الذين انهزموا عن النبي ﷺ يوم حنين ـ كما في «الدر» (٤/ ١٦٢) ـ.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٧٥) عن الحسن.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٤ رقم ١٠٥): «ذكره الثعلبي بغير سند، وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله. وذكرها البخاري ـ في صحيحه =

(٢٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ لخبث باطنهم، أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالباً. وفيه دليل على أن ما الغالب نجاسته نجس. وعن ابن عباس[١] رضي الله تعالى عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب. وقرىء نِجْس بالسكون وكسر النون وهو ككِبْد في كَبِد، وأكثر ما جاء تابعاً لرجس. ﴿ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ ﴾ لنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم. وقيل المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾ يعني سَنَة براءة وهي التاسعة. وقيل سنة حجة الوداع. ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ ﴾ فقراً بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرفاق. ﴿ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً ووفق أهل تبالة وجرش فأسلموا وامتاروا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض. وقرىء عائِلةً، على أنها مصدر كالعافية أو حال. ﴿ إِن شَآءَۚ ﴾ قيده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم. ﴿ حَكِيمٞ ﴾ فيما يعطي ويمنع.

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ
ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ
عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ
قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ أي لا يؤمنون بهما على ما ينبغي، كما بيناه في أول البقرة[٢]، فإن إيمانهم كلا إيمان[٣]. ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة، وقيل رسوله هو الذي يزعمون اتباعه، والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً. ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها. ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ بيان للذين لا يؤمنون. ﴿ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ ﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه، مشتق من جزَىٰ

= (٨/ ٣٢ رقم ٤٣١٨ ـ ٤٣١٩) ـ من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان، ورواها الطبري وغيره من رواية زهير بن حرد، وفيه الشعر الذي أنشده زهير» هـ.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٨٦) عنه بدون سند.

(٢) البقرة: «٦».

(٣) والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك في سلك المشركين (س٤/ ٥٨). =

دينَه إذا قضاه. ﴿عَن يَدٍ﴾ حال من الضمير أي عن يد مؤاتية بمعنى منقادين، أو عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه، أو عن غنًى ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير، أو عن يد قاهرة عليهم بمعنى عاجزين أذلاء، أو من الجزية بمعنى نقداً مسلّمة عن يد إلى يد، أو عن إنعام عليهم فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمي وتوجأ عنقُه. ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب، ويؤيده أن عمر رضي الله تعالى عنه لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ أخذها من مجوس هَجَر[١] وأنه قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[٢] وذلك لأن لهم شبهة كتاب فأُلحقوا بالكتابيين، وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى تؤخذ منهم إلا مشركي العرب لما روىٰ الزهري[٣] أنه ﷺ صالح عَبَدة الأوثان إلا من كان من العرب[٤]، وعند مالك رحمه الله تعالى تؤخذ من كل كافر إلا المرتد. وأقلها في كل سنة دينار سواء فيه الغني والفقير، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى على الغني ثمانية وأربعون درهماً وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكَسُوب ربعها ولا شيء على الفقير غير الكَسوب.

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبقَ فيهم بعد وقعة بختنصر مَنْ يحفظ التوراة، وهو لمّا أحياه الله بعد مائة عام أملىٰ عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يُكذِّبوا مع تهالكهم على التكذيب. وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب عَزَيْرٌ بالتنوين، على أنه عربي مخبر عنه بابن غيرُ موصوف به، وحذفُه في القراءة الأخرى[٥] إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصفٌ والخبرُ محذوف مثل معبودُنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم. وإنما قالوه استحالةً لأن يكون وُلد بلا أب، أو لأن يَفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى مَنْ لم يكن إلهاً. ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيقٌ مماثِل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان. ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٦).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الزكاة باب جزية أهل الكتاب (٤٢) وإسناده صحيح.

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زُهرة بن كلاب بن مُرَّة، الإمام أبو بكر القُرشيّ الزهريّ المدني أحد الأعلام، من تابعي أهل المدينة من الطبقة الرابعة، كان حافظ زمانه، قال الليث بن سعد: قال ابن شِهاب: ما صبرَ أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري. ولد سنة خمسين، وطلب العلم في أواخر عصر الصحابة وله نيف وعشرون سنة. وقد توفي سنة (١٢٤هـ).
[تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٠ ـ ٩٢) ووفيات الأعيان (٤/ ١٧٧)].

(٤) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (١٠٣٨/٣٥) عن معمر عن الزهري.

(٥) القراءة الأخرى «عزيرُ» بالضم من دون تنوين.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم والمراد قدماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى. والمضاهاة المشابهةُ، والهمز لغة فيه، وقرأ به عاصم، ومنه قولهم امرأة ضهيء على فعيل للتي شابهت الرجال في أنها لا تحيض. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن مَنْ قاتله الله هلك، أو تعجب من شناعة قولهم. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا
لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن
يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله، أو بالسجود لهم[1]. ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله[2]. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟﴾ ليطيعوا. ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وهو الله تعالىٰ وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة لله. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

(٣٢) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ يخمدوا. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقدسه عن الولد، أو القرآن، أو نبوة محمد ﷺ. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بشركهم أو بتكذيبهم. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ أي لا يرضىٰ. ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام. وقيل إنه تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يطلب إطفاء نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده بنفخه، وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجَب لأنه في معنى النفي[3]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ محذوف الجواب لدلالة

---

(١) الأحبار هم العلماء، والرهبان هم العُبّاد.

(٢) وتخصيص المسيح بالاتخاذ يشير إلى أن اليهود لم يفعلوا ذلك بعزير.. وتأخيره في الذكر ـ مع أن اتخاذهم له عليه السلام رباً معبوداً أقوىٰ من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم ـ لأنه مختص بالنصارىٰ. ونسبته عليه السلام إلى أمه ـ من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية ـ للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بالجهل والحماقة (س٤/ ٦٠).

(٣) وفي إظهار النور في مقام الإضمار مضافاً إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناءٍ بشأنه وتشريف له على تشريف =

ما قبله عليه.

(٣٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ كالبيان لقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ ولذلك كرر ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضَمّوا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله. والضميرُ في ليظهره للدين الحق، أو للرسول عليه الصلاة والسلام، واللام في الدين للجنس أي على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم.

(٣٤) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يأخذونها بالرُّشا في الأحكام. سمَّىٰ أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه. ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأحبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضنّ به، وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه ويكون اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ، ويدل عليه أنه لما نزل كبُر على المسلمين فذكر عمرُ رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّب بها ما بقي من أموالكم»[(١)]، وقوله عليه الصلاة والسلام «ما أُدي زكاته فليس بكنز»[(٢)] أي بكنز أُوعد عليه، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه، وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كُوي بها»[(٣)] ونحوه فالمراد منها ما لم يُؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام

= وإشعار بعلة الحكم (س٤/ ٦١).

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦ رقم ١٦٦٤). والحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٩) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وأقره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٥) قال الألباني: غيلان بن جامع ليس من رجال البخاري، وإنما روى له مسلم وحده، ثم قال: وعلة هذا الحديث الانقطاع.
انظر كلامه المفيد حول الحديث في «الضعيفة» (٣/ ٤٨٤ ـ ٤٨٨ رقم ١٣١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٣/ ٦٤) ـ وابن مردويه ـ كما في «الدر» (٤/ ١٧٧) ـ وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٢ ـ ٨٣) كلهم بأسانيدهم عن سويد بن عبدالعزيز عن ابن عمر. وقال الهيثمي عنه: ضعيف. وقال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٤٠): «لين الحديث».
● وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٣) من طريق نافع وعبدالله بن دينار عنه موقوفاً. وقال: وهذا هو الصحيح.
والموقوف: أخرجه البخاري (٣/ ٢٧١، ٨/ ٣٢٤).
● وأخرج أبو داود (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣ رقم ١٥٦٤) عن أم سلمة قالت: كنتُ ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت يا رسول الله: أكنزٌ هو؟ فقال: «ما بلغ أن تؤدي زكاته فزُكيَ فليس بكنز».
قال المنذري في «المختصر» (٢/ ١٧٥): في إسناده عتَّاب بن بشر، أبو الحسن الحراني، وقد أخرج له البخاري، وتكلم في غير واحد.
وقال الألباني في «ضعيف أبي داود» (ص١٥٥ رقم ٣٣٩/ ١٥٦٤) حسن ـ المرفوع منه فقط.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٩) وأحمد في المسند (٥/ ١٦٨) عن أبي ذر وفيه: أبو مجيب مجهول. [تعجيل المنفعة: ص٥١٨]. =

فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره»[1] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكي بهما.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم توقد النار ذات حمىً شديد عليها. وأصله تحمى بالنار، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير، وإنما قال عليها والمذكور شيئان لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال علي رضي الله تعالى عنه: أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز[2]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾[3]. وقيل الضمير فيهما للكنوز أو للأموال، فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول، أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم. ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإمساكهم إياه كان لطلب الوجاهة بالغنىٰ والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية، أو لأنهم ازوَرُّوا عن السائل وأعرضوا عنه وولوْه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد، أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقاديم البدن ومآخيره وجنباه. ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول. ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها. ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي وبال كنزكم أو ما تكنزونه. وقرىء تَكْنُزُون بضم النون.

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي مبلغ عددها. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ معمولُ عِدّة لأنها مصدر. ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ، أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً، والمعنى: أن هذا أمر ثابت

= وأخرجه الطبزاني في الكبير (٨/ ١٦٨ رقم ٧٦٣٦) عن أبي أمامة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٢٥) وقال فيه: بقية وهو مدلس قلت: وقد عنعن.
فالخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٨٠ رقم ٢٤/ ٩٨٧) وأبو داود (٢/ ٣٠٢ رقم ١٦٥٨). وابن جرير (٦/ج١٠/ ١٢٠) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٤/ ١٠٩ رقم ٧١٥٠) والطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١١٨ ـ ١١٩) وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ١٧٩) ـ. عن علي بإسناد صحيح.

(٣) التوبة: «٣٤».

في نفس الأمر مذ خلق الله الأجرام والأزمنة. ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ واحد فَرْد وهو رجب وثلاثة سَرْد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أي تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام والعربُ ورِثوه منهما. ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرمها. والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأوّلوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحَرَم وحال الإحرام، وعن[1] عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحُرُم إلا أن يقاتَلوا ويؤيد الأول ما روي أنه عليه الصلاة والسلام حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذي القعدة[2]. ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ﴾ جميعاً، وهو مصدر كفّ عن الشيء، فإن الجميع مكفوف عن الزيادة، وقع موقع الحال. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ أي تأخير حُرْمة الشهر إلى شهر آخر، كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محارِبون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، وعن نافع برواية وَرْش إنما النسيُّ بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء فيها. وقرىء النَّسْيُ بحذفها والنَّسْءُ والنِّسَاءُ وثلاثتها مصادر نَسَأَه إذا أخّره. ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِۖ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم. ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ضلالاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص يُضَلُّ على البناء للمفعول، وعن يعقوب يَضِلُّ على أن الفعل لله تعالى. ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ يحلون المنسي من الأشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهراً آخر. ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ فيتركونه على حُرمته. قيل: أول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني، كان يقوم على جمل في الموسم فينادِي: إن آلهتكم قد أَحَلَّت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي في القبائل إن آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرم فحرموه. والجملتان تفسير للضلال أو حال. ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة، واللام متعلقة بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ بمواطأة العدة وحدها من غير مراعاة الوقت. ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ وقرىء على البناء للفاعل وهو الله تعالى، والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء.

(٣٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم. وقرىء تَثَاقَلْتم

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/٤٥) بدون سند.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/٤٥) وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (١٠/٩٢) بدون سند.

على الأصل، وأَثَاقلتم؟ على الاستفهام للتوبيخ. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به كأنه ضُمِّن معنى الإخلاد والميل فعُدِّي بإلىٰ، وكان ذلك في غزوة تبوك[١] أُمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عَسْرة وقَيْظ مع بُعْد الشُّقة وكثرة العدوّ فشقّ عليهم. ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وغرورها. ﴿مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها. ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها. ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر[٢].

إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ إن لا تنفروا إلى ما استُنْفِرتم إليه. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع كقَحْط وظهور عدوّ. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين كأهل اليمن وأبناء فارس[٣] ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ إذ لا يقدح تثاقُلُكم في نصر دينه شيئاً فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل الضمير للرسول ﷺ أي ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالىٰ وَعَدَ له بالعصمة والنصر ووَعْدُه حق. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال:

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، فحُذِف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل عليه مقامه، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره. وإسنادُ الإخراج إلى الكفرة لأن همَّهُم بإخراجه أو قتلِه تسبَّبَ لإذن الله له بالخروج. وقرىء ثانيْ اثنين بالسكون على لغة من يجري المنقوص مجرى المقصور في الإعراب، ونصبه على الحال. ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل مِنْ إذ أخرجه بدلَ البعض، إذ المراد به زمان متسع. والغارُ نقب في أعلى ثَوْر، وهو جبل في يُمنىٰ مكة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان، أو ظرف لثاني.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٣٤) عن مجاهد.
وذكر الواحدي في «الأسباب» ص٢٤٦ ذلك بدون راوٍ ولا سند.

(٢) وفي ترشيح الحياة الدنيا مما يؤذن بنفاستها ويستدعي الرغبة فيها وتحرير الآخرة عن مثل ذلك مبالغةٌ في بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة (س٤/ ٦٥).

(٣) وإنما وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أي قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا.. (س٤/ ٦٥). =

﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه. ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بالعصمة والمعونة. روي أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين اللهُ ثالثُهما؟»[1] فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروْه وقيل لمّا دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوتَ فنسجت عليه[2]. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أَمَنَتَهُ التي تسكن عندها القلوب. ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً. ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يعني الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين، فتكون الجملة معطوفة على قوله «نَصَرَه الله». ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾ يعني الشرك، أو دعوة الكفر. ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ يعني التوحيد، أو دعوة الإسلام، والمعنى وجعل ذلك بتخليص الرسول ﷺ عن أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن، أو بحفظه ونصره له حيث حضر. وقرأ يعقوب وكلمةَ اللهِ بالنصب عطفاً على «كلمةَ الذين»، والرفعُ أبلغُ لما فيه من الإشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار، ولذلك وَسَّط الفصل. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدبيره.

(٤١) ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ لنشاطكم له. ﴿وَثِقَالٗا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو لقلة عيالكم ولكثرتها، أو ركباناً ومشاة، أو خفافاً وثقالاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً، ولذلك لما قال ابن أم مكتوم[3] لرسول الله ﷺ: أعليّ أن أنفر؟ قال: «نعم». حتى نزل: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٧٦ رقم ١٢٠): لم أجده هكذا. وفي الصحيحين ـ [البخاري: (٨/ ٣٢٥ رقم ٤٦٦٣) ومسلم (٤/ ١٨٥٤ رقم ١/ ٢٣٨١)] ـ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال «نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار. فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر ما ظنّك باثنينِ الله ثالثهما».

(٢) أخرجه البزار والطبراني عن أبي مصعب المكي قال أدركت زيد بن أرقم، والمغيرة ابن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة بات في الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار فسترت وجه النبي ﷺ وأمر الله تبارك وتعالى فنسجت على وجه الغار، وأمر الله تبارك وتعالى حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار وأتى المشركون من كل فج حتى كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم وتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين فرجع فقال لأصحابه ليس في الغار شيء... الحديث) ـ كما في «مجمع الزوائد» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣) ـ وقال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم.

قلت: وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٤٣ رقم ١٠٨٢) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٢٢) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/ ٤١٩ رقم ٢٢٩) وغيرهم.

وفيه أبو مصعب المكي مجهول. وعون بن عمرو القيس: منكر الحديث مجهول. انظر «الميزان» (٣/ ٣٠٦).

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

فائدة: ـ قال الشيخ محمد درويش الحوت في «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» ص٣٧٧: «فائدة: ما يذكر في السير من نبات شجرة عند فم الغار وقت هجرته ﷺ، وأنه فتح باب من ظهر الغار وظهر عنده نهر، وأن الحيّة لدغت أبا بكر في الغار باطل لا أصل له» هـ.

(٣) لم أقف عليه.

وأورده الحافظ في «الكافي الشافِ» ولم يخرجه رقم (١٢٣).

حَرَجٌ﴾[١]. ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تركه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير علمتم أنه خير، أو إن كنتم تعلمون أنه خير، إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ أي لو كان ما دُعوا إليه نفعاً دنيوياً. ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطاً. ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك. ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تُقطَع بمشقة. وقرىء بكسر العين والشين[٢]. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين. ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ يقولون لو كان لنا استطاعة العِدّة أو البدن. وقرىء لوُ استطعنا بضم الواو تشبيهاً لها بواو الضمير في قوله: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[٣]. ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ سادّ مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه. ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب، وهو بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك، أو حال من فاعله. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ذاك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

(٤٣) ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن خطئه في الإذن، فإن العفو من روادفه. ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كنّىٰ عنه بالعفو ومعاتبة عليه، والمعنى لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلُّوا بأكاذيب وهلاّ توقفت؟ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في الاعتذار. ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه. قيل إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما: أَخْذُه للفداء وإذنُه للمنافقين، فعاتبه الله عليهما.

(٤٤) ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا فإن الخلص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى وعِدَة لهم بثوابه[٤].

---

(١) النور: «٦١».
(٢) أي قرىء «بَعِدَت عليهم الشِّقَّة».
(٣) البقرة: «١٦».
(٤) تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول ـ الذي صلته فعل دال على الحدوث ـ وعن الفريق الثاني باسم الفاعل ـ المفيد للدوام ـ للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادثٌ في أمر خاص غير مصحح لنظمهم =

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلف. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما. ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون[1].

۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

(٤٦) ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أُهبة. وقرىء عُدُّهُ بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدُّوا البَيْنَ فَانْجَرَدُوا ... وأَخْلَفُوكَ عَدَا الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

وعِدَّةً بكسر العين بالإضافة وعِدَةً بغيرها. ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ كأنه قال ما خرجوا ولكن تثبطوا لأنه تعالى كره انبعاثهم أي نهوضهم للخروج. ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل. ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول عليه السلام لهم. والقاعدين يحتمل المعذورين وغيرهم، وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشراً، ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء، ولأجل هذا التوهم جُعل الاستثناء منقطعاً، وليس كذلك لأنه لا يكون مفرغاً. ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب، أو الهزيمة والتخذيل، مِنْ وَضَعَ البعير وضعاً إذا أسرع. ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في أوضعوا. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ ضَعَفَة يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم[2].

= في سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين وإن كان كذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم في الكذب.

والتعبير عما يتعلق بالكذب بالعلم لأن المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذبُ احتمال عقلي فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه. (س٤/ ٦٩).

(١) قوله «وارتابت قلوبهم» عبر عن ريبها بالماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره (س٤/ ٧٠).

(٢) ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والتشديد في الوعيد، والإشعار بترتبه على الظلم (س٤/ ٧١).

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟
قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٨) ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ تشتيت أمرك وتفريق أصحابك. ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني يوم أحد فإن ابن أبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع الرسول ﷺ إلىٰ ذي جدة أسفل من ثنيّة الوداع انصرفوا يوم أحد. ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكايد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بالنصر والتأييد الإلهي. ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وعلا دينه. ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي على رغم منهم. والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكرِه انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الإذن، ولذلك عوتب عليه.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود. ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة أي في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أُذِن له أم لم يأذن، أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة بِنساء الروم لما روي: أن جد بن قيس قال: قد عَلِمت الأنصارُ أني مولع بالنساء فلا تُفتنّي ببنات الأصفر ولكني أعينك بمالي فاتركني[1]. ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احترزوا عنه[2]. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جامعة لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها..

(٥٠) ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض غزواتك. ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ لفرط حسدهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٤٨) من طريق ابن جريج عن ابن عباس لسند ضعيف ومنقطع.
● وأخرج الطبراني معناه في «المعجم الكبير» (١٢/١٢٢ رقم ١٢٦٥٤) من طريق الضحاك عن ابن عباس.
قلت: الضحاك لم يسمع من ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٣٠) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف». قلت: وفيه بشر بن عمارة ضعيف أيضاً.
● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/٦٣ رقم ١١٠٥٢) نحوه دون ذكر الاسم من طريق مجاهد عن ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٣٠) وقال «رواه الطبراني وفيه أبو شيبة إبراهيم بن عثمان وهو ضعيف».
قلت: بل هو متروك [التقريب (١/٣٩ رقم ٢٤١)].

(٢) وتصدير الجملة بحرف التنبيه «ألا» مع تقديم الظرف إيذانٌ بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجىً من الفتنة زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن.
وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردىٰ أسفل سافلين (س٤/ ٧٢).

﴿وَإِن تُصِبۡكَ﴾ في بعضها. ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد. ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ تبجحوا بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف. ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له، أو عن الرسول ﷺ. ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ مسرورون[١].

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ
مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن
يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ
كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصنا بإثباته وإيجابه من النصرة أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم. وقرىء هل يصيبُنا، وهل يُصَيِّبنا وهو من فَيْعل لا من فعل لأنه من بنات الواو لقولهم صاب السهم يَصُوب، واشتقاقه من الصواب لأنه وقوع الشيء فيما قصد به، وقيل من الصوْب. ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكلوا على غيره[٢].

(٥٢) ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا[٣]. ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ إلا إحدىٰ العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النصرة والشهادة. ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ﴾ أيضاً إحدى السوأيين ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ بقارعة من السماء. ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر. ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

(٥٣) ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ أمرٌ في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. وفائدته المبالغةُ في تساوي الإنفاقين في عدم القبول كأنهم أُمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم، وهو جواب قول جد بن قيس وأعينُك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أمرين أن لا يؤخذ منهم وأن لا يثابوا عليه وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له.

(٥٤) ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرُهم. وقرأ حمزة والكسائي أن يُقْبَل بالياء لأن تأنيث النفقات غير حقيقي، وقرىء يَقْبَلَ على أن

---

(١) وإسناد المساءة إلى الحسنة والمسرة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وإن تصبك مصيبة تسررهم للإيذان باختلاف حاليهم حالتي عروض المساءة والمسرة بأنهم في الأولىٰ مضطرون وفي الثانية مختارون (س٤/ ٧٣).
(٢) قوله «وعلى الله» أظهر الاسم الجليل في مقام الإضمار لإظهار التبرك والتلذذ به (س٤/ ٧٣).
(٣) والتربص هو التمكث مع انتظار مجيء شيء خيراً كان أو شراً.

الفعل لله. ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين. ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ
يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ
فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل الزهوق الخروج بصعوبة.

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ إنهم لمن جملة المسلمين. ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم. ﴿وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيُظهِرون الإسلام تَقِيَّة.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجؤون[1] إليه ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ غيراناً. ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ نفقاً ينجحرون فيه مفتعل من الدخول. وقرأ يعقوب مَدْخَلاً من دخل، وقرىء مُدْخَلاً أي مكاناً يُدخِلون فيه أنفسهم، ومُتَدَخَّلاً ومُنْدَخَلاً من تدخل واندخل ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه. ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح. وقرىء يَجْمَزُون ومنه الجُمَازة[2].

(٥٨) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يُعيبك. وقرأ يعقوب يُلْمِزُك بالضم، وابنُ كثير يُلامِزُك. ﴿فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ في قَسْمها. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ قيل إنها نزلت في أبي الجواظ المنافق فقال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يَقْسِم صدقاتِكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل[3]. وقيل في ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يَقْسم غنائمَ حنين فاستعْطَفَ قلوبَ أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم، فقال: أعدِل يا رسول الله فقال: «ويلك إن لم أعدلْ فمن يَعْدل»[4]. وإذا للمفاجأة، نائبٌ مناب الفاء الجزائية.

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما أعطاهم الرسول من الغنيمة أو الصدقة، وذكْرُ الله

---

(١) وإيثار صيغة الاستقبال في الشرط «يجدون» لإفادة استمرار عدم الوجدان (س٤/ ٧٥).
(٢) الجُمَازة هي الناقة الشديدة العَدْوِ.
(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٧٦ رقم ١٢٦): «لم أجده».
(٤) أخرجه البخاري (٦/٦١٧ ـ ٦١٨ رقم ٣٦١٠) ومسلم (٢/ ٧٤٤ رقم ١٤٨/ ١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره. ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كفانا فضلُه ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى. ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا. ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يغنينا من فضله. والآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف تقديره لكان خيراً لهم. ثم بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ فقال:

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٦٠) ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم، وهو دليل على أن المراد باللمز لمزُهم في قَسْم الزكوات دون الغنائم. والفقيرُ مَنْ لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، من الفَقَار كأنه أصيب فَقَارُه. والمسكينُ من له مال أو كَسْب لا يكفيه، من السكون كأن العجز أسكنه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾[1] وأنه ﷺ كان يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر، وقيل بالعكس لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها. ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبَهم، أو أشرافٌ قد يترتب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نُظَرائهم؛ وقد أعطى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك، وقيل أشراف يُستألفون على أن يسلموا فإنه ﷺ كان يعطيهم، والأصح أنه كان يعطيهم من خُمْس الخُمُس الذي كان خاصَّ مالِهِ وقد عُدَّ منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة. وقيل كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله وأكثر أهله سقط. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون المُكَاتِبَ بشيء منها على أداء النُّجوم. وقيل بأن تبتاع الرقاب فتعتَق وبه قال مالك وأحمد، أو بأن يُفدىٰ الأسارى. والعدول عن اللام إلى «في» للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب، وقيل للإيذان بأنهم أحق بها. ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ والمَدْيونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله ﷺ «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني، أو لعامل عليها»[2] ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياع الكِرَاع والسلاح. وقيل وفي بناء القناطر والمصانع. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لما دل عليه الآية الكريمة أيْ فَرَضَ لهم الله الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكن في للفقراء. وقرىء بالرفع على تلك فريضةٌ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في

---

(١) الكهف: «٧٩».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٣٦) وابن ماجه (١٨٤١) والبيهقي (٧/ ١٥) ومالك في الموطأ (١/ ٢٦٨) والحاكم (١/ ٤٠٧) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر تصحيحه الفتح السماوي ص٦٨٥.

مواضعها. وظاهرُ الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالأصناف الثمانية ووجوب الصرف إلى كل صنف وُجد منهم ومراعاة التسوية بينهم قضية للاشتراك وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين جوازُ صرفها إلى صنف واحد وبه قال الأئمة الثلاثة واختاره بعض أصحابنا، وبه كان يفتي شيخي ووالدي رحمهما الله تعالى على أن الآية بيان أن الصدقة لا تخرج منهم لا إيجابُ قَسْمها عليهم.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كل ما يُقال له ويصدقه. سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فَرْط استماعه صار جملتُه آلةَ السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، أو اشتق له فعل من أَذِن أَذَناً إذا استمع كأنِف وشلل. روي أنهم قالوا محمد أُذُن سامِعة نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول[1]. ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أَذِن ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدِّق به لما قام عنده من الأدلة. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خُلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم وإيمان الأمان. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو رحمة[2]. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحماً عليكم. وقرأ حمزة ورحمةٍ بالجرّ عطفاً على خير، وقرىء بالنصب على أنها علة فعل دل عليه أُذُن خير أي يأذن لكم رحمة. وقرأ نافع أُذْنُ بالتخفيف فيهما. وقرىء أُذُنٌ خَيْرٌ على أن خير صفة له أو خبر ثان ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإيذائه[3].

(٦٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا. ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ لترضوا عنهم، والخطابُ للمؤمنين. ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق. وتوحيدُ الضمير لتلازم الرضاءين، أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً.

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص٢٥٤ وأورد نحوه عن السدي وابن إسحاق.

(٢) وهو من إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة (س٤/ ٧٧).

(٣) قوله «يؤذون» في صيغة الاستقبال ـ المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه ـ إشعار بقبول توبتهم (س٤/ ٧٧).

وقوله: «لهم عذاب أليم» في تكرير الإسناد بإثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبراً للموصول ما لا يخفىٰ من المبالغة.

وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة «رسول الله» مضافاً إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيهِ على أن أذيته راجعة إلى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب (س٤/ ٧٨).

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ
نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

(٦٣) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ﴾ أن الشأن. وقرىء بالتاء. ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يشاقق مفاعَلَة من الحدّ. ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ على حذف الخبر أي فحقٌّ أنَّ له، أو على تكرير أنّ للتأكيد، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجوابُ محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يَهْلِك. وقرىء فإنّ بالكسر. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني الهلاك الدائم.

(٦٤) ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وتهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيء. وقيل إنه خبر في معنى الأمر، وقيل كانوا يقولونه فيما بينهم استهزاء لقوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مُبْرِز أو مظهِر. ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

(٦٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونَه هيهات هيهات، فأخبر اللهُ تعالىٰ به نبيه، فدعاهم فقال: «قلتمْ كذا وكذا؟» فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر[(١)]. ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به وإلزاماً للحجة عليهم، ولا تعبأ باعتذارهم الكاذب.

(٦٦) ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم فإنها معلومةُ الكذب. ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان. ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء. ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق أو مُقْدمين على الإيذاء والاستهزاء[(٢)]. وقرأ عاصم بالنون فيهما، وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله، وإن تُعْفَ بالتاء والبناء على المفعول ذهاباً إلى المعنى كأنه قال: إن تُرْحَمْ طائفةٌ.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٧٣) بإسناد صحيح. انظر الفتح السماوي ص٦٨٦.

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ: «إنْ يُعْفَ عن طائفة منكم تُعَذَّبْ طائفةٌ» وقد قرأ بها غير عاصم. انظر المبسوط لابن مهران ص١٩٥.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ
فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٧) ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد. وقيل إنه تكذيب لهم في حَلِفِهم بالله إنهم لمنكم وتقريرٌ لقولهم وما هم منكم وما بعدَه كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ عن المبارّ، وقبض اليد كناية عن الشحّ. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ غفلوا عن ذكر الله وتركوا طاعته. ﴿فَنَسِيَهُمْۚ﴾ فتركهم من لطفه وفضله. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

(٦٨) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ مقدرين الخلود. ﴿هِىَ حَسْبُهُمْۚ﴾ عقاباً وجزاء، وفيه دليل على عظم عذابها. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع، والمراد به ما وُعِدُوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

(٦٩) ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم مثلُ الذين، أو فعلتم مثلَ فعلِ الذين من قبلكم[1]. ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم. ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإنه ما قُدِّر لصاحبه[2]. ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المُخْدَجَة[3] من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطَبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم. ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ودخلتم في الباطل. ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ﴾ كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة[4].

---

(١) «قبلكم» والالتفات فيه من الغيبة إلى الخطاب للتشديد عليهم بالخطاب (س٤/ ٨١).

(٢) «فاستمتعوا» أورده بصيغة الاستفعال لبيان الاستزادة والاستدامة في التمتع (س٤/ ٨١).

(٣) المُخْدَجَة أي الناقصة الفانية، وهو من أخدجت الناقة إذا ألقت ولدها ناقص الخلق (المصباح المنير، مادة خدج).

(٤) وإيراد اسم الإشارة في الموضعين للإشعار بعلية الأوصاف المشار إليها للحبوط والخسران (س٤/ ٨٢).

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أغرقوا بالطوفان. ﴿وَعَادٍ﴾ أهلكوا بالريح. ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة. ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلك نمروذ ببعوض وأَهلَك أصحابه. ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظُّلة. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط ائتُفكت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأُمطروا حجارة من سجيل. وقيل قريات المكذبين المتمردين وائتفاكُهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر. ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ يعني الكل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم. ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب[١].

(٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾[٢] ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأمور. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

(٧٢) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾[٣] تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفي الحديث: «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر»[٤]. ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ إقامة وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام: «عَدْن دار الله التي لم ترها

(١) قوله «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» حيث جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم... وتقديم المفعول «أنفسهم» لمجرد الاهتمام به... (س٤/ ٨٢).
(٢) التوبة: «٦٧».
وقد عبر عن هؤلاء بالولاية فقال: «بعضهم أولياء بعض» بينما عبر عن أولئك بمن الاتصالية حيث قال «بعضهم من بعض» للإيذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك، ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (س٤/ ٨٢).
(٣) وإظهار صفة الإيمان في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان لحصول ما تعلق به الوعد. وعدم التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للإيذان بأنه من لوازمه (س٤/ ٨٣).
(٤) أخرج البزار (٣/ ٥١ ـ ٥٢ رقم ٢٢١٧ ـ كشف الأستار).
من طريق جسر بن فرقد، عن يحيى بن سعيد ابن أخي الحسن، عن الحسن، قال: لقيتُ عمران بن حُصَين =

عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبىٰ لمن دخلكِ»[1]. ومرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد، أو للجميع على سبيل التوزيع، أو إلى تغاير وصفه فكأنه وَصَفه أولاً بأنه من جنس ما هو أبهىٰ الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم أولَ ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرّىٰ عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكنُ الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين لا يعتريهم فيها فَناء ولا تغير، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء، وعنه ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»[2]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرضوان أو جميع ما تقدم. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها.

= وأبا هريرة فسألتهما عن تفسير هذه الآية «ومساكن طيبة في جناتِ عَدْن» قالا: على الخبير سَقطت، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: ـ قصر من دُرّة، في ذلك القصر سبعون ألف دار من زمرّدة خضراء في كل بيت، منها سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فِراشاً من كلّ لون، على كلّ فراشٍ امرأةٌ من الحور العين، في كل بيت مائدة على كل مائدة سبعون لوناً في كل بيت سبعون وصيفاً أو وصيفة يُعطى من القوة ما يأتي على ذلك كله في غداةٍ واحدةٍ.

قال البزار: لا نعلم أحداً رواه مرفوعاً إلا عمران، وأبا هريرة، ولا نعلم لهما طريقاً إلاّ هذا، وجَسر: لين الحديث، وقد حدَّث عنه أهل العلم. والحسن فلا يصحُّ سماعه، عن أبي هريرة من رواية الثقات.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٠) وقال «رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه جسر بن فرقد: ـ وهو ضعيف، وقد وثقه سعيد بن عامر، وبقية رجال الطبراني ثقات».

والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) أخرجه البزار (٤/ ١٩٢ رقم ٣٥١٦ ـ كشف الأستار) وابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٨٠) والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣/ ١١٥١ ـ ١١٥٢) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٨ رقم ٢١) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٩٣) كلهم من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء مرفوعاً.

قال ابن الجوزي «هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث، وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جداً، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك» هـ.

وقال البزار: «لا نعلم رواه بهذا اللفظ إلا أبو الدرداء، وزيادة لا نعلم روى عنه غير الليث، ولا نعلم أسند فضالة عن أبي الدرداء غير حدثين» وأورد الذهبي الحديث في «الميزان» (٢/ ٩٨) وقال «هذه ألفاظ منكرة لم يأتِ بها غير زيادة» هـ.

والخلاصة أن الحديث ضعيف جداً والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (١١/ ٤١٥ رقم ٦٥٤٩) و(١٣/ ٤٨٧ رقم ٧٥١٨) ومسلم (٤/ ٢١٧٦ رقم ٩/ ٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟
إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن
فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بإلزام الحجة وإقامة الحدود. ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ في ذلك ولا تحابهم. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيرهم.

(٧٤) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويُعيب المتخلفين، فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله فنزلت[١] فتاب الجلاس وحسنت توبته[٢]. ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام. ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ﴾ من فتك الرسول، وهو أن خمسةَ عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخُطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفةُ بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا[٣]، أو إخراجه وإخراج المؤمنين من المدينة، أو بأن يتوّجوا عبدالله بن أبيّ وإن لم يرضَ رسولُ الله ﷺ. ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ وما أنكروا أو ما وجدوا ما يورث نقمتهم. ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج في ضنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولًى، فأمر رسولُ الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى. والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل. ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة، والضمير في يكُ للتوب. ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ بالإصرار على النفاق. ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ بالقتل والنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب.

(٧٥) ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب أتىٰ النبي ﷺ فقال: ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة قليل تؤدي

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف، في غير العبادلة. وليس الأثر عن العبادلة عنه.

(٢) وإيثار صيغة الاستقبال في «يحلفون» لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرار الحلف وصيغة الجمع في «قالوا» مع أن القائل هو الجلاس ـ للإيذان برضا الباقين فكأنهم قالوا (س٤/ ٨٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٥٣) من حديث أبي الطفيل بلفظ مقارب للفظ الكتاب وفي إسناده. الوليد بن عبدالله بن جميع، صدوق يهم. قاله الحافظ في التقريب (٢/ ٣٣٣). وهو حديث حسن. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٥٦) و(٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) عن عروة، وابن إسحاق. وفي إسناد عروة (ابن لهيعة) ضعيف. وفي إسناد ابن إسحاق: (أحمد بن عبدالجبار العطاري) ضعيف أيضاً.

شكره خير من كثير لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسولُ الله ﷺ، فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال: «يا ويح ثعلبة» فبعث رسول الله ﷺ مصدِّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه الكتاب الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجِعا حتى أرى رأيي، فنزلت، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال النبي ﷺ: «إن الله منعني أن أقبل منك» فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فقُبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فلم يقبلها، ثم جاء إلى عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله تعالى عنه(١).

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ منعوا حق الله منه. ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة الله. ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراضُ عنها.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي فجعل الله عاقبة فِعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للبخل والمعنى فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/١٨٩ ـ ١٩٠) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢) والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦٠ رقم ٧٨٧٣).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣١ ـ ٣٢) وقال: رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) وعزاه للحسن بن سفيان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال والطبراني، وأبو منده، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر. عن أبي أمامة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٧٧ رقم ١٣٣) «أخرجه الطبراني، والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم، والطبري، وابن مردويه. كلهم من طريق علي بن زيد، عن القاسم بن عبدالرحمٰن، عن أبي أمامة. وهذا إسناد ضعيف جداً. فقال السهيلي عن ابن إسحاق: ثعلبة بن حاطب قمر البدريين، وعن ابن إسحاق أيضاً في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه فلعلهما اثنان» هـ.
والخلاصة أن الحديث موضوع والله أعلم.
فائدة: لقد تكلم حفاظ الحديث ونقّادُه في هذه القصة بكلام واضح بيِّن. جمعه وعلق عليه أخونا الشيخ «عداب محمود الحمش» في رسالة سمّاها «ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه». فانظرها لزاماً لتقف على بطلان هذه القصة، وفيها توضيحات مفيدة في الدفاع عن كتاب الله وسنة رسوله والذب عن صحابة رسول الله ﷺ.

يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي جزاءه وهو يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح. ﴿ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ وبكونهم كاذبين فيه فإن خُلف الوعد متضمن للكذب مستقبح من الوجهين أو المقال مطلقاً. وقرىء يُكَذِّبون بالتشديد.

(٧٨) ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾ أي المنافقون، أو من عاهد الله. وقرىء بالتاء على الالتفات. ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ ﴾ ما أسروه في أنفسهم من النفاق، أو العزم على الإخلاف. ﴿ وَنَجۡوَىٰهُمۡ ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، أو تسميةُ الزكاة جزيةً. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ فلا يخفى عليه ذلك[١].

(٧٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ﴾ ذمّ مرفوع أو منصوب أو بدل من الضمير في سرَّهم. وقرىء يُلْمِزون بالضم. ﴿ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ ﴾ المتطوعين. ﴿ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ روي أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف درهم فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك اللهُ له حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدق عاصم بن عدي بمائة وِسْقٍ من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر فقال بتّ ليلتي أجُرّ بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثُره على الصدقات، فلَمَزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبدالرحمن وعاصم إلا رياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت[٢]. ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ إلا طاقتهم. وقرىء بالفتح[٣] وهو مصدر جَهِد في الأمر إذا بالغ فيه. ﴿ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ ﴾ يستهزئون بهم. ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾ جازاهم على سُخريتهم، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾[٤] ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على كفرهم.

---

(١) وفي إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى (س/٤/ ٨٦).

(٢) أخرج قصة تصدق: عبدالرحمٰن. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٩٤) وابن مردويه وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر» (٤/ ٢٥٠) ـ عن ابن عباس وفي سنده (كاتب الليث) وهو ضعيف.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٩٤) من حديث أبي سلمة ورجاله ثقات إلاّ المثنى بن إبراهيم الآملي شيخ الطبري، فلم أجد من ترجم له. وتابع المثنى أبو كامل الجحدري عند البزار (٣/ ٥١ رقم ٢٢١٦) وأبو كامل ثقة حافظ ـ كما في التقريب (٢/ ١١٢) ـ وعمر بن أبي سلمة صدوق يخطىء ـ كما في التقريب (٢/ ٥٦) ـ.
وهذا الحديث وصله (طالوت بن عباد) عند البزار. فقال بهذا الإسناد عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وطالوت بن عباد هو الصيرفي الضبعي: صدوق كما في الجرح والتعديل (٤/ ٤٩٥). وانظر كلام الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٣٢) على هذا الحديث.
والخلاصة أن الحديث حسن إن شاء الله.
● وأخرج قصة عاصم بن عدي. ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/ ١٩٦) عن ابن إسحاق. بسند ضعيف.
● وقصة تصدق أبي عقيل مخرج في الصحيحين البخاري (٨/ ٣٣٠ رقم ٤٦٦٨) ومسلم (٢/ ٧٠٦ رقم ١٠١٨/٧٢) من حديث ابن مسعود وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (رقم: ١٣٤).

(٣) أي بفتح الجيم «جَهْدَهم». والجُهْد ـ بضم الجيم ـ الطاقة، وبفتحها: المشقة (س/٤/ ٨٧).

(٤) البقرة: «١٥».

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

(٨٠) ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾. روي أن عبدالله بن عبدالله بن أبيّ وكان من المُخْلَصين سأل رسولَ الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين، فنزلت[1]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2]. وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوَّز أن يكون ذلك حداً يخالفُه حكم ما وراءه، فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنّه العدد بأسره. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ المتمردين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[3].

(٨١) ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بقعودهم عن الغزو خلفَه يقال أقام خلافَ الحيّ أي بعدهم، ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال. ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيثاراً للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تثبيطاً. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ أنّ مآبهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٧٨ رقم ١٣٥): «لم أجده بهذا السياق.
وأصله في المتفق عليه ـ البخاري (٨/ ٣٣٣ رقم ٤٦٧٠) ومسلم (٤/ ١٨٦٥ رقم ٢٥/ ٢٤٠٠) ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما تُوفيَ عبدُالله بن أُبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيَهُ قميصَهُ يكفِّنُ فيه أباه، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقامَ عمرُ فأخذ بثوب رسول الله، فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيّرني الله فقال «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرَّة» وسأزيدُهُ على السبعين. قال: إنهُ منافق قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله «ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره».

(٢) المنافقون: «٦».

(٣) التوبة: «١١٣».

فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ
ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجَه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتْم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم.

(٨٣) ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فإنْ ردك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً. ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ إخبار في معنىٰ النهي للمبالغة. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تعليل له، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم، وأول مرة هي الخَرْجَةُ إلى غزوة تبوك. ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان. وقرىء مع الخَلِفِين على قصر الخالفين.

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ روي أن عبدالله بن أبيّ دعا رسولَ الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأله أن يستغفر له ويكفنه في شِعَاره الذي يلي جسده ويصلي عليه، فلما مات أرسل قميصَه ليكفَّن فيه وذهب ليصلي عليه، فنزلت[1]. وقيل صلى عليه ثم نزلت، وإنما لم يُنْهَ عن التكفين في قميصه ونُهِيَ عن الصلاة عليه لأن الضنّ بالقميص كان مخلاً بالكرم ولأنه كان مكافأة لإلْباسه العباس

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٣٦):
لم أجده هكذا. فأما أوله وهو «كان يقوم.. إلى آخره». وأما قصة عبدالله ففي الجنائز من المستدرك ـ (١/ ٣٤١) ـ من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال: «دخل رسول الله ﷺ على عبدالله بن أبي ليعودهُ في مرضه الذي مات فيه، فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حبّ يهود. فقال: قد أبغضهم، أسعد بن زرارة فما نفعه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطني قميصك أكفنه فيه. فنزع عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتوبخني فزاده الطبري (٦/ج١٠/٢٠٦) من طريق معمر عن قتادة قال: أرسل عبدالله بن أبي وهو مريض إلى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخني. وسأله قميصه أن يكفن فيه. فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأنزل الله تعالى «ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً».
وفي الدلائل للبيهقي (٥/ ٢٨٥) من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال: فقال «ليس هذا بحين عتاب، هو الموت، فإن مت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفن فيه فأعطاه، ثم قال: وصلّ عليّ واستغفر لي» وفي رواية له فقال له ابنه وكان يقال له الحباب. فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، يا رسول الله أعطه قميصك الذي يلي جلدك».

قميصَه حين أُسر ببدر[١]. والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكافر، ولذلك رتب النهي على قوله: ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ يعني الموت على الكفر، فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يَحْيَ ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأبيد الموت[٢].

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ
ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٥) ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تكرير للتأكيد، والأمرُ حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوسُ مغتبِطة عليها ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول[٣].

(٨٦) ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها. ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بأن آمنوا بالله، ويجوز أن تكون أن المفسرة. ﴿وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الفضل والسعة. ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ الذين قعدوا لِعذر.

(٨٧) ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع النساء، جمع خالِفة، وقد يقال الخالفة للذي لا خير فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة.

(٨٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل الحُور لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[٤] وهي جمع خَيْرة تخفيف خَيِّرة. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢١٤ رقم ١٣٥٠) و(٦/ ١٤٤ رقم ٣٠٠٨) من حديث جابر.

(٢) وقوله «ولا تصل على أحد منهم مات» جاء بصيغة الماضي «مات» تنبيهاً على تحقق الوقوع (س٤/ ٨٩).

(٣) وتقديم الأموال على الأولاد مع كونهم أعزّ منها إما لعموم مساس الحاجة إليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والأوقات، وإما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولادَ لبقاء النوع، وإما لأنها أقدم في الوجود من الأولاد (س٤/ ٩٠).

(٤) الرحمٰن: «٧٠».

(٥) تكرير اسم الإشارة للتنويه بشأنهم (س٤/ ٩١).

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ
ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا
عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ
لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٩) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية.

(٩٠) ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يعني أسداً وغطَفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجَهد وكثرة العيال. وقيل[1] هم رهْط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت طيّىءُ على أهالينا ومواشينا. والمُعَذِّر إما من عَذَر في الأمر إذا قصر فيه موهماً أن له عُذراً ولا عذر له، أو مِنْ اعتذر إذا مهد العذر بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع لكن لم يُقرأ بهما. وقرأ يعقوب المُعْذِرُون من أعذر إذا اجتهد في العذر. وقرىء المعَّذِّرُون بتشديد العين والذال على أنه من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين، وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة فيكون قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان وإن كانوا هم الأولين فكَذِبهُم بالاعتذار. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعذرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار.

(٩١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ كالهَرْمىٰ والزَّمنىٰ. ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لفقرهم كجُهيْنة ومُزَينة وبني عذرة. ﴿حَرَجٌ﴾ إثمٌ في التأخر. ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتَبين لذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن؟.

(٩٢) ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على الضعفاء أو على المحسنين، وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: مَعقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبدالله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبدالله بن مغفل وعلية بن زيد، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحمِلنا على الخِفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نَغزُ معك، فقال عليه السلام: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوْا وهم

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٨٣) عن الضحاك.

يكون[١]. وقيل هم بنو مُقَرِّن مَعقل وسويد والنعمان[٢]. وقيل أبو موسى وأصحابه. ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد[٣]. ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب إذا. ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل. ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي دمعاً، فإن مِنْ للبيان، وهي مع المجرور في محل النصب على التمييز، وهو أبلغ مِنْ يفيضُ دمعُها لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً. ﴿حَزَنًا﴾ نصب على العلة، أو الحال، أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله. ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ لئلا يجدوا، متعلق بحَزَناً أو بتفيض. ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في مغزاهم.

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

(٩٣) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ واجدون الأُهبة. ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظامُ في جملة الخوالف إيثاراً للدعة. ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مغبته.

(٩٤) ﴿۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السَّفرة. ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾ بالمعاذير الكاذبة، لأنه ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، لأنه ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد[٤]. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكأنه استتابة وإمهال للتوبة[٥]. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي إليه، فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه[٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج١٠/٢١٣) عن محمد بن كعب وغيره.

(٢) أورده الواحدي عن مجاهد ص٢٦٢.

(٣) وفي إيثار «لا أجد» على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفىٰ، فكأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده (س٤/ ٩٢).

(٤) وقوله «نؤمن ونبّأنا» حيث جمع ضمير المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم أطماعهم من التصديق رأساً ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلاً وللإيذان بافتضاحهم بين المؤمنين كافة (س٤/ ٩٣).

(٥) وتقديم مفعول الرؤية على ما عُطف على فاعله من قوله تعالى «ورسولُه» للإيذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما، وللإشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم (س٤/ ٩٣).

(٦) والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به، وإيثار التنبئة عليها لبيان أن المنبأ به هو الأخبار المتعلقة بأعمالهم، وللإيذان =

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ
جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

(٩٥) ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ ولا توبخوهم. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علةُ الإعراض وترك المعاتبة. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم. ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة.

(٩٦) ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ بحَلِفِهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدَكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يُلْبِسوا عليكم لا يمكنهم أن يُلبِسوا على الله فلا يهتك سترَهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم[١].

(٩٧) ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو. ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة. ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ﴾ وأحق بأن لا يعلموا. ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الشرائع فرائضها وسننها. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمَدَر[٢]. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

(٩٨) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ يَعُدُّ. ﴿مَا يُنفِقُ﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً إذ لا يحتسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رياء أو تَقِيَّة. ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ دوائر الزمان ونُوَبَه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق. ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم. والدائرة في الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور وسمي به عقبة الزمان، والسَّوْء بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجلُ

= بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم وأنهم يعلمونها يومئذ (س٤/ ٩٤).

(١) ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة الموجب لما حل بهم من السخط، وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك (س٤/ ٩٤).

(٢) أهل الوبر يراد بهم الأعراب حيث يستخدمونه في سكناهم والوبر للبعير كالصوف للغنم، وأهل المدر يراد بهم أهل القرى لأن معنىٰ المدر الطين حيث يستخدمونه في سكناهم (المصباح المنير مادة مَدَرَ وَوَبَرَ).

صِدْق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السُّوء هنا. وفي الفتح[١] بضم السين. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ
ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ
مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

(٩٩) ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ سببَ قربات، وهي ثاني مفعولي يتخذ، وعند الله صفتُها أو ظرف ليتخذ[٢]. ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وسبب صلواته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولذلك سنّ للمتصدَّق عليه أن يدعو للمتصدِّق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال ﷺ «اللهم صلِّ على آل أبي أوفىٰ»[٣]، لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره. ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله بصحة معتقدهم وتصديقٌ لرجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه وإنّ المحقِّقة للنسبة، والضميرُ لنفقتهم. وقرأ ورش قُرُبَةٌ بضم الراء. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وَعْدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين لتحقيقه، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لتقريره. وقيل الأُولىٰ في أسد وغطفان وبني تميم والثانيةُ في عبدالله ذي البجادين وقومِه.

(١٠٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدراً، أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أهلِ بيعة العقبة الأولى ـ وكانوا سبعة ـ وأهلِ بيعة العقبة الثانية ـ وكانوا سبعين ـ والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير. وقرىء بالرفع عطفاً على والسابقون. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلتين، أو من اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقرأ ابن كثير مِنْ تحتِها الأنهارُ كما في سائر المواضع. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

---

(١) الفتح: «٦١».

(٢) والتعرض لوصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر لبيان الاعتناء بإيمانهم واتصافهم به وبيان الفرق بين الفريقين (س٤/٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣/٣٦١ رقم ١٤٩٧) ومسلم (٢/٧٥٦ ـ ٧٥٧ رقم ١٠٧٨/١٧٦) وأبو داود (٢/٢٤٦ رقم ١٥٩٠) والنسائي (٥/٣١ رقم ٢٤٥٩) وابن ماجة (١/٥٨٢ رقم ١٧٩٦) وأحمد في المسند (٤/٣٥٣). من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ أي وممن حول بلدتكم يعني المدينة. ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ هم جُهَيْنة ومُزَيْنة وأَسْلَم وأَشْجَع وغِفَار كانوا نازلين حولها[١]. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عطف على ممن حولكم، أو خبر لمحذوف صفتُهُ: ﴿ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ونظيرُه في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامَه قوله:

أنَا ابنُ جَلا وَطلاَّعُ الثنَايَا

وعلى الأول صفة للمنافقين فُصِل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر، أو كلامٌ مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهُّرهم في النفاق. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم، وهو تقرير لمهارتهم فيه وتَنَوُّقِهم في تحامي مواقع التهم إلى حدٍّ أُخفِيَ عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فِراستك. ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونطلع على أسرارهم، إنْ قدروا أن يُلْبسوا عليك لم يقدروا أن يُلبسوا علينا. ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ إلى عذاب النار[٢].

(١٠٢) ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سَوَاري المسجد لمّا بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم، فذُكر له أنهم أقسموا أن لا يَحُلّوا أنفسهم حتى تُحِلَّهم، فقال: «وأنا أقسم أن لا أُحِلهم حتى أومر فيهم، فنزلت، فأطلقهم»[٣]. ﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا الفعل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب بآخر سيىء هو التخلف وموافقة أهل النفاق. والواوُ إما بمعنى الباء كما في قولهم: بعت الشاءَ شاة ودرهماً، أو للدلالة على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله: «اعترفوا بذنوبهم» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة ـ كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٣).

(٢) وإسناد عذابهم السابق «سنعذبهم» إلى نون العظمة حسب إسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق «ثم يُرَدّون» إلى أنفسهم للإيذان باختلافهما حالاً، وأن الأول خاص بهم وقوعاً وزماناً يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعاً وزماناً (س٤/ ٩٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ١٢ ـ ١٣).
ومراد السيوطي في «الدر» (٤/ ٢٧٥) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» ـ (٥/ ٢٧٢) ـ عن ابن عباس بسند ضعيف.

(١٠٣) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ روي أنهم لما أُطلِقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهِّرْنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فنزلت[(١)]. ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرىء تُطْهِرُهم من أطهره بمعنى طهره، وتُطَهِّرْهُم بالجزم جواباً للأمر. ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعْطِف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، وجمعها لتعدد المدعوّ لهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد[(٢)]. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكّن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحت، وتعديتُه بعن لتضمنه معنى التجاوز[(٣)]. ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

(١٠٥) ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ ما شئتم. ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفىٰ عليه خيراً كان أو شراً. ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى لا يخفى عنهم كما رأيتم وتبين لكم[(٤)]. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالموت[(٥)]. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه.

(١٠٦) ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المتخلفين. ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون أي موقوف أمرهم من أرجأته إذا أخرته[(٦)]. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص مُرْجَوْن بالواو وهما لغتان. ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق. ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا، والترديد للعباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم. وقرىء والله غفور

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/ ١٦) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٧٢) وفي إسناده كاتب الليث وهو ضعيف.
(٢) الأصل عند البيضاوي على قراءة من قرأ «صَلَوَاتِك» بالجمع، وقد قرأ بها الباقون.
(٣) وإظهار صفة العبودية لله «عباده» في موضع الإضمار للإشعار بعلية العبادة لقبولها (س٤/ ١٠٠).
(٤) قوله «ورسوله» عطف على لفظ الجلالة، وتأخيره عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت (س٤/ ١٠٠).
(٥) وتقديم الغيب على الشهادة في الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره، أو للإيذان بأن رتبة السرّ متقدمة على رتبة العلن (س٤/ ١٠١).
(٦) أثبت البيضاوي الأصل على قراءة من قرأ بالهمزة «مُرْجَئون».

رحيم. والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلّموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾

(١٠٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا﴾ عطف على وآخرون مرجئون، أو مبتدأ خبره محذوف أي وفيمن وصفنا الذين اتخذوا، أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير الواو. ﴿ضِرَارٗا﴾ مضارة للمؤمنين. وروي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدتهم إخوانُهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة والشاتية فصلّ فيه حتى نتخذه مصلّىٰ، فأخذ ثوبه ليقوم معهم، فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، ففعل واتخذ مكانه كناسة[٢]. ﴿وَكُفۡرٗا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه. ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يريُد الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء. ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ ترقباً. ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعني الراهب فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين وحيداً، وقيل كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام. ومن قبلِ متعلق بحارب أو باتخذوا أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، لما روي أنه بُني قُبيل غزوة تبوك فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتيه فقال: «إنا على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه» فلما قفل كرر عليه. فنزلت[٣] ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٤/ ٢١٢٠ ـ ٢١٢٨).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٨٠ ـ ٨١ رقم ١٥٢).
«لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد. وليس صدره بصحيح فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبناء مسجد الضرار كان في غزوة تبوك. فبينهما تسع سنين.
لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفي عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال منهم (يخرج) جد عبدالله بن حنيف، ووديعة بن حزام، ومجمع بن جارية فبنوا مسجد النفاق ـ الحديث».
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٥) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ٢٤) بسند ضعيف.

(٣) قال المناوي في الفتح السماوي ص٧٠٣: لم أقف عليه، إلا أن ابن حجر ذكر أنه روى ابن مردويه من طريق =

ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى أو الإرادة الحسنى وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ يعني مسجد قباء أَسسه رسولُ الله ﷺ وصلىٰ فيه أيام مُقامِه بقباء من الاثنين إلى الجمعة لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»[(١)] ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، و«مَنْ» يعم الزمان والمكان كقوله:

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرِ

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أولىٰ بأن تصلي فيه. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى إدناء المحب حبيبَه. قيل لما نزلت مشىٰ رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس! فقال عليه الصلاة والسلام: «أمؤمنون أنتم»؟ فسكتوا، فأعادها، فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أترضوْن بالقضاء»؟ قالوا: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: «أتصبرون على البلاء»؟ قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرخاء»؟ قالوا: نعم. فقال ﷺ: «أنتم مؤمنون وربِّ الكعبة»، فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط»؟ فقالوا: يا رسول الله نُتبعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثة ثم نُتبع الأحجار الماء، فتلا النبي: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾[(٢)].

= ابن إسحاق عن الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري.. فذكر نحوه.. انظر الكافي الشافِ ص٨١ رقم (١٥٢).

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥ رقم ٥١٤/ ١٣٩٨) عنه.
قال ابن كثير: (وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء..) ثم قال: (وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٨١ رقم ١٥٤) «لم أجده هكذا وكأنه ملفق من حديثين، فإن صدره أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله: «ورب الكعبة». وروى بقيته ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه» هـ.
● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٨٠ رقم ٣١٠٠) وأبو داود (١/ ٣٨ رقم ٤٤) وابن ماجة (١/ ١٢٨ رقم ٣٥٧). =

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ
فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ
إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

(١٠٩) ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ بنيان دينه. ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ على قاعدة محكمة هو التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة. ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها[١]. ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فأدىٰ به ـ لخوْره وقلة استمساكه ـ إلى السقوط في النار، وإنما وضع شفا الجرف ـ وهو ما جرفه الوادي ـ الهائر في مقابلة التقوى تمثيلاً لما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثم رشحه بانهياره به في النار ووضعه في مقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى رضوان اللّه ومقتضياته التي الجنةُ أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على صدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة. وقرأ نافع وابن عامر أُسِّسَ على البناء للمفعول، وقرىء أساسُ بنيانه، وأُسُّ بنيانه على الإضافة، وأُسُسُ، وآسَاسُ بالفتح والمدّ، وإِسَاسُ بالكسر وثلاثتها جمع أس، وتقوَى بالتنوين على أن الألف للإلحاق لا للتأنيث كتَتْرىٰ، وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر جُرْف بالتخفيف. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاحهم.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ بناؤهم الذي بنوه، مصدر أريد به المفعول[٢] وليس بجمع ولذلك قد تدخله التاء، وَوَصَفَ بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكّاً ونفاقاً، والمعنى

= عن أبي هريرة، قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء «فيه رجال يحبون أن يتطهّروا» قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية.
وقد ضعفه الحافظ في «التلخيص» (١/ ١١٢) وقال: وروى أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم عن عويم بن مساعده نحوه، وأخرجه الحاكم (١/ ١٥٥) من طريق مجاهد عن ابن عباس لما نزلت الآية بعث النبي ﷺ إلى عويم بن مساعدة، فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟ قال ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل دبره، فقال عليه السلام: هذا هو، وأخرج بنحوه ابن ماجة (١/ ١٢٧ رقم ٣٥٥) من حديث عتبة بن أبي حكيم، عن طلحة بن نافع، قال: حدثني أبو أيوب الأنصاري، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك. وقال الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٢١٩): «وسنده حسن وعتبة بن أبي حكيم فيه مقال.
قال ابن عدي (٥/ ١٩٩٥): «أرجو أنه لا بأس به».
وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٤) وصححه. ورواه أحمد (١/ ٢٤٨) وابن أبي شيبة من حديث محمد بن عبدالله بن سلام. وحكى أبو نعيم في معرفة الصحابة الخلاف فيه. على شهر بن حوشب ورواه الطبراني من حديث أبي أمامة.
والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين.

(١) وترك الإضمار في قوله «أم من أسس» للإيذان باختلاف البنيانين ذاتاً مع اختلافهما وصفاً وإضافة (س٤/ ١٠٣).
(٢) ووصفه بالموصول ـ الذي صلته فعله ـ للإيذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهن أساس، وللإشعار بعلة الحكم (س٤/ ١٠٤).

أن بناءهم هذا لا يزال سببَ شكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وَسْمه عن قلوبهم. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك والإضمار وهو في غاية المبالغة. والاستثناءُ من أعمّ الأزمنة. وقيل المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار، وقيل التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً. وقرأ يعقوب «إلى» بحرف الانتهاء. وتُقطّع ـ بمعنى تتقطع ـ وهو قراءة ابن عامر وحمزة وحفص، وقرىء يُقَطِّع بالياء، وتُقْطَع بالتخفيف، وتُقَطِّعَ قلوبَهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب، ولو قطعت على البناء للفاعل والمفعول[1]. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١) ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١١٣)﴾

(١١١) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ استئناف ببيان ما لأجله الشراء. وقيل يقاتلون في معنى الأمر[2]. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول، وقد عرفت أن الواو لا توجب الترتيب وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء فإنه في معنى الوعد. ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ مذكوراً فيهما كما أُثبت في القرآن. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً. ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم عظائم المطالب[3] كما قال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١١٢) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ رفعٌ على المدح أي هم التائبون، والمراد بهم المؤمنون المذكورون، ويجوز أن يكون مبتدأ خبرُه محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[4] أو خبرُه ما بعده أي التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال.

---

(١) أي قرىء «ولو قُطِّعَتْ قلوبُهم» على البناء للمفعول، وقرىء «ولقد قَطَّعْتَ قلوبهم» على البناء للفاعل على أن الخطاب للنبي عليه السلام.

(٢) وتقديم حالة القاتلية «يَقْتُلون» على حالة المقتولية «يُقْتَلون» للإيذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس (س٤/ ١٠٥).

(٣) قوله «فاستبشروا» التفات إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم.
والاستبشار: إظهار السرور (س٤/ ١٠٦).

(٤) النساء: «٩٥».

وقرىء بالياء نصباً على المدح، أو جراً صفةٌ للمؤمنين. ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له الدين. ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ لنعمائه أو لمَا نابهم من السراء والضراء. ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون لقوله ﷺ «سياحة أمتي الصوم»(١) شبه بها لأنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد(٢) أو لطلب العلم. ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ في الصلاة. ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة. ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي، والعاطفُ فيه للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي فيما بيّنه وعيّنه من الحقائق والشرائع للتنبيه على أن ما قبله مفصِّل الفضائل وهذا مُجْمِلها. وقيل إنه للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك سمي واو الثمانية. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضع المؤمنين موضعَ ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذفُ المبشَّر به للتعظيم كأنه قيل: وبشرهم بما يَجُلُّ عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

(١١٣) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ روي أنه ﷺ قال لأبي طالب لمّا حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاجّ لك بها عند الله» فأبىٰ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال استغفر لك ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت(٣). وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأَبْواء(٤) فزار قبرَ أمه ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأَنزل علي الآيتين»(٥). ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بأنْ ماتوا على الكفر. وفيه

---

(١) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ٣٩) عن عائشة موقوفاً عليها بلفظ «سياحة هذه الأمة الصوم» وفي إسناده إبراهيم بن يزيد متروك الحديث [التقريب (١/ ٤٦ رقم ٣٠٣)].

● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/ ٣٧) عن عبيد بن عمير، قال: «سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: هم الصائمونَ» بإسناد حسن ولكنه مرسل.

● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/ ٣٧) عن أبي هريرة، قال: قال لي رسول الله ﷺ «السائحون هم الصائمون» وفي إسناده حكيم بن حزام وهو متروك [الميزان (١/ ٥٨٥ رقم ٢٢١٨)].

● وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢٥٦ رقم ٩٠٩٥) عن عبدالله بن مسعود قال: «السائحون: الصائمون» وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٤) وقال فيه عاصم بن بدلة وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) ● أخرج البغوي في شرح السنة (٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١ رقم ٤٨٤) من حديث عثمان بن مظعون أن النبي ﷺ قال «إنّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» بإسناد ضعيف لضعف رشدين بن سعد، وابن أنعم الأفريقي.

● وأخرج أبو داود (٣/ ١٢ رقم ٢٤٨٦) عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، قال النبي ﷺ: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى» وهو حديث حسن قاله الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٣ رقم ٣٨٨٤) ومسلم (١/ ٥٤ رقم ٣٩/ ٢٤).

من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه. وغفل الحاكم فاستدركه ـ كما في «الكافي الشافِ» ص٨٢ ـ.

(٤) مكان قريب من مكة.

(٥) ● أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ٤٢) عن بريده مثله لكن ليس فيه ذكر نزول الآيتين. وإسناده =

دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلَبُ توفيقهم للإيمان، وبه دفع النقيض باستغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر فقال:

وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ
مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

(١١٤) ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وعدها إبراهيمُ أباه بقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[1] أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يَجُبُّ ما قبله، ويدل عليه قراءة من قرأ أباه، أو وعدها إبراهيمَ أبوه وهي الوعد بالإيمان ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحي إليه بأنه لن يؤمن[2] ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قطع استغفاره. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه. ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع شكاسته عليه.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا﴾ أي ليُسمِّيهم ضُلالاً ويؤاخذهم مؤاخذتَهم ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام. ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذر الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قَبْل المنع. وقيل إنه في قوم مضوْا على الأمر الأول في القِبْلة والخمر ونحو ذلك. وفي الجملة دليل على أن الغافل غير مكلف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لمّا منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً بيّن لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشرِّ أشرّهم إليه ويتبرؤوا مما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

(١١٧) ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ مِنْ إذن المنافقين في التخلف أو برأهم

= حسن.

● وأخرج ابن جرير (٧/ج١١/٤٢) عن ابن عباس بلفظ أن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه، فنهاه الله عن ذلك، فقال: وإن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه فأنزل الله «وما كان استغفار إبراهيم» إلى «لأوّاه حليم» بسند ضعيف.

(١) الممتحنة: «٤».

(٢) أو تبيّن له أنه مُصرّ على الكفر، وهو الأنسب.

عن علقة الذنوب كقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] وقيل: هو بَعْثٌ على التوبة والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[2] إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقِص دونَه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة وإظهارٌ لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده. ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عُسْرة الظَّهْرِ ـ يَعْتَقِب العشرةُ على بعير واحد ـ والزادِ حتى قيل إن الرجلين كانا يقتسمان تمرةً والماءِ حتى شربوا القَيْظ[3]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم، والعائد إليه الضمير في منهم. وقرأ حمزة وحفص يزيغ بالياء لأن تأنيث القلوب غير حقيقي، وقرىء من بعد ما زاغت قلوبُ فريق منهم يعني المتخلفين. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، أو المراد أنه تاب عليهم لِكَيْدُودتهم. ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع. ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خلف أمرهم فإنهم المرجَؤُون. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، وهو مَثَلٌ لشدة الحيرة. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أُنس ولا سرور. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وعلموا. ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من سخطه. ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ إلا إلى استغفاره. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة. ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليُعدّوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعم.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً. وقرىء مِنَ الصادقين أي في توبتهم وإنابتهم فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم.

---

(١) الفتح: «٢».
(٢) النور: «٣١».
(٣) والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه.
ووصف المهاجرين والأنصار باتباعهم له عليه السلام في تلك الساعة للمبالغة في بيان الحاجة إلى التوبة، وذلك أنهم لم يغنهم ذلك عنها فلا يستغني عنها غيرهم بالأولى والأحرى (س٤/١٠٩).

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ نهي عبر به بصيغة النفي للمبالغة. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصن نفسه عنه ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال. روي أن أبا خيثمة بلغ بستانه، وكانت له زوجة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل ورُطَبٌ يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضحّ والريح ما هذا بخير، فقام فرحّل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح، فمد رسول الله ﷺ طَرْفَه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة» فَكَانَهُ، ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له[1]. وفي لا يرغبوا يجوز النصب والجزم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف أو وجوب المشايعة. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيء من العطش. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ﴾ ولا يدوسون. ﴿مَوْطِئًا﴾ مكاناً. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغضبهم وطؤه. ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالقتل والأسر والنهب. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل لكُتِب وتنبيهٌ على أن الجهاد إحسان أما في حق الكفار فلأنه سَعْي في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المُدَاوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم.

(١٢١) ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو علاقة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة. ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم، وهو كل مُنْعرج ينفُذ فيه السيل، اسم فاعل من وَدِي إذا سال فشاع بمعنى الأرض. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أثبت لهم ذلك. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك.

---

(١) ● أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) من طريق ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم نحوه. وفي إسناده: أحمد بن عبدالجبار العطاردي: وهو ضعيف.
● وأخرجه البيهقي أيضاً (٥/ ٢٢٥) عن موسى بن عقبة.
● وأخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٣١ رقم ٥٤١٩) من طريق يعقوب بن محمد الزهري، ثنا إبراهيم بن عبدالله بن سعد بن خيثمة ثنا أبي عن أبيه به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٩٢ ـ ١٩٣) وقال: فيه يعقوب بن محمد الزهري وهو ضعيف. قال: الحافظ في الإصابة (٣/ ٥٦): «والحق أنه غيره لإطباق أهل السير على أن صاحب هذه الترجمة استشهد ببدر» نقله مخرج المعجم الكبير قلت: ـ ويشهد لبعض الحديث ما أخرجه مسلم في أثناء قصة كعب (٤/ ٢١٢٢) وانظر «الكافي الشافِ» (ص٨٢ رقم ١٦١).

﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أعمالهم.

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾

(١٢٢) ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعاً فإنه يخل بأمر المعاش. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعةٌ قليلة. ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفَقَاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها. ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عما ينذرون منه، واستُدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفةٌ إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذرُوا، فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يَفِد ذلك، وقد أشبعتُ القول فيه تقريراً واعتراضاً في كتابي (المرصاد). وقد قيل للآية معنى آخر وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقه، فأُمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابُهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفِرَق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي رجعوا للطوائف أي ولينذروا لبواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم.

(١٢٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أُمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل هم يهود حوالي المدينة كقريظة والنضير وخيبر. وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشأم وهو قريب من المدينة. ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ شدة وصبراً على القتال. وقرىء بفتح الغين وضمها وهما لغتان فيها. ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والإعانة.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم﴾ فمن المنافقين. ﴿مَّن يَقُولُ﴾ إنكاراً واستهزاء. ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ السورة. ﴿ إِيمَٰنًا﴾ وقرىء أيَّكم بالنصب على إضمار فعل يفسره زادته. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم. ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها. ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين. وقرىء بالتاء. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات. ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يعتبرون.

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظا لما فيها من عيوبهم. ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا وإن يرهم أحد أقاموا. ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة. ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم. وقرىء مِنْ أَنْفَسِكُمْ أي من أشرفكم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قَدّم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة محافظةً على الفواصل.

(١٢٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان بك. ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فإنه يكفيك مَعرَّتُهم ويعينك عليهم. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه. ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ المُلْك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. وقرىء العظيمُ بالرفع. وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان، وعن النبي ﷺ: «ما نزل القرآن علي إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة»[1] والله أعلم.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٨٣ رقم ١٦٧): ـ أخرجه ـ الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه.

سُورَةُ يُونُسَ

ترتيبها ١٠ — آياتها ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ
ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا
مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(١) ﴿الٓر﴾ فخمها[1] ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص، وقرأ ورش بين اللفظين، وأمالها الباقون إجراء لألف الراء مجرى المنقلبة من الياء. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي والمراد من الكتاب أحدُهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحِكَم أو لأنه كلام حكيم، أو محكمٌ آياته لم ينسخ شيء منها.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب، وعَجَباً خبرُ كان واسمه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾. وقرىء بالرفع على أن الأمر بالعكس أو على أنّ كانَ تامة، وأن أوحينا بدل من عجباً، واللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم. ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم. قيل كانوا يقولون العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة هذا وإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال وخفة الحال أعْوَن شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك. وقيل تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً كما سبق ذكره في سورة الأنعام[2]. ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أنْ هي المفسِّرة أو المخففة من الثقيلة، فتكون في موقع مفعول أوحينا. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عمم الإنذار إذ قلما من أحد

(١) أي الراء.
(٢) الأنعام: «٩١».

ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يُبَشَّروا به حقيقة. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قدماً لأن السبْق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافتُها إلى الصدق لتحققها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. ﴿قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون لساحِرٌ على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة. وقرىء «ما هذا إلا سحر مبين».

(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات[1]. ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يُقدِّر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيىء بتحريكه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة[2]. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ تقرير لعظمته وعزِّ جلاله وردٌّ على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وفيه إثباتُ الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية. ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير إذْ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك. ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحِّدوه بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره، فاستعدوا للقائه. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قولَه «إليه مَرجعُكم» وعدٌ من الله. ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد بدئه وإهلاكه. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بعَدْله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غيَّرَ النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيهِ على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابةُ؛ والعقابُ واقعٌ بالعَرَض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه؛ ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم. والآية كالتعليل لقوله تعالى: «إليه مرجعكم

---

(١) وجمع السموات دون الأرض لما هو مشهور من أنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام (س٤/١١٨).
(٢) وإيثار صيغة المضارع في قوله «يدبر» للدلالة على تجدد التدبير واستمراره (س٤/١١٨).

جميعاً﴾ فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاةُ الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ أَنَّه يَبْدَأُ ـ بالفتح ـ أي لأنه، ويجوز أن يكون منصوباً أو مرفوعاً بما نَصَبَ وعد الله أو بما نَصَب حقاً.

(٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ أي ذاتَ ضياء، وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط، والياءُ فيه منقلبة عن الواو. وقرأ ابن كثير برواية قنبل هنا وفي الأنبياء وفي القصص[١] ضِئَاءً بهمزتين على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذا نور، أو سمي نوراً للمبالغة وهو أعم من الضوء كما عرفت. وقيل ما بالذات ضوءٌ وما بالعَرَض نور، وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعَرَض مقابلةِ الشمس والاكتساب منها. ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ الضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل، أو للقمر، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علله بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم[٢]. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا ملتبساً بالحق مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها. وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص يُفَصِّل بالياء.

إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾

(٦) ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من أنواع الكائنات. ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ العواقب، فإنه يحملهم على التفكر والتدبر.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها. ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها. ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ وسكنوا إليها مُقْصرين هممهم على لذائذها وزخارفها، أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها[٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها، والعطف إما لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أن الوعيد على

---

(١) الأنبياء: «٤٨» والقصص «٧١».

(٢) وتقديم العدد على الحساب ـ مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجوداً وعلماً على العكس ـ لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلاً وإن لم تتحد الجهة، أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر نازل من الحساب منزلة البسيط من المركب (س٤/ ١٢١).

(٣) وإيثار الباء على كلمة «إلى» المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للإيذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة.
واختيار صيغة الماضي في «رضوا» و«اطمأنوا» للدلالة على التحقق والتقرر.
وصيغة المستقبل في «يرجون» للإيذان باستمرار عدم الرجاء (س٤/ ١٢٢).

الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماكِ في الشهوات بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً وإما لتغاير الفريقين، والمراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرَ إلاّ الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له[١].

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي.

(٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أو لإدراك الحقائق كما قال عليه الصلاة والسلام «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[٢]، أو لما يريدونه في الجنة. ومفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئناف أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير، وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر أو حال أخرى منه أو من الأنهار، أو متعلق بتجري أو بيهدي.

(١٠) ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي دعاؤهم. ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ اللهم إنا نسبحك تسبيحاً. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يحيي به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم. ﴿فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وآخر دعائهم. ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أن يقولوا ذلك، ولعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال، ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف

---

(١) وتكرير الموصول للتوسل به إلى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها (س٤/١٢٣).

(٢) وهو حديث باطل.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٤ ـ ١٥) من حديث أنس.
وقال أبو نعيم: «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه. وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.
وأورده الفتني في «تذكرة الموضوعات» ص٢٠. وقال: «لأبي نعيم ضعيف» هـ.
وأورده العجلي في «كشف الخفا» (٢/ ٣٤٧ رقم ٢٥٤٢) وقال: «رواه أبو نعيم عن أنس» هـ.
وأورده الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٣٠٦ رقم ٤٤) وقال: «رواه أبو نعيم، وهو ضعيف» هـ.
وقال ابن السبكي: (٦/ ٢٩٠) لم أجد له إسناداً.
وانظر «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» استخرج أبي عبدالله الحداد (١/ ٢٠٧ رقم ١٩٠).

الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام «وأنْ هي المخففة من الثقيلة، وقد قرىء بها وبنصب الحمد.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(١١) ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾ ولو يسرعه إليهم. ﴿ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ ﴾ وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم أو بأن المرادَ شر استعجلوه كقولهم «فأمطر علينا حجارة من السماء» وتقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير فحُذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه. ﴿ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ لأميتوا وأهلكوا. وقرأ ابن عامر ويعقوب لقضىٰ على البناء للفاعل وهو الله تعالى، وقرىء لقضينا[١]. ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً[٢].

(١٢) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا ﴾ لإزالته مخلصاً فيه. ﴿ لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ ملقى لجنبه، أي مضطجعاً. ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ ﴾ يعني مضىٰ على طريقته واستمر على كفره، أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع إليه. ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾ كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما قال:

ونَحْــرٌ مُشْــرِقُ اللَّــوْنِ كَــأَن ثَــدْيَــاهُ حُقَّــان

﴿ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ إلى كشف ضر. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثلُ ذلك التزيين. ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

(١٣) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يا أهل مكة[٣]. ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ حين ظلموا بالتكذيب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم، وهو حال من الواو بإضمار قد أو عطف على ظلموا. ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا

---

(١) وإيثار صيغة المبني للمفعول «لقضي» للجري على سنن الكبرياء (س٤/ ١٢٥).

(٢) وفي وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما في حيز الصلة وإشعار بعليته للترك والاستدراج (س٤/ ١٢٦).

(٣) قوله «قبلكم» التفات من الغيبة إلى الحضور للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القَسَمي (س٤/ ١٢٧).

لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكُهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارُهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ نجزي كل مجرم أو نجزيكم، فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جُرمهم وأنهم أعلام فيه.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ
نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أتعملون خيراً أو شراً فنعاملكم على مقتضى أعمالكم، و«كيف» معمول تعملون فإن معنى الاستفهام يَحْجُب أن يعملَ فيه ما قبلَه، وفائدتُه الدلالةُ على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسُن الفعل تارة ويَقْبُحُ أخرى.

(١٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني المشركين[١]. ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا﴾ بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا. ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى، ولعلهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فيَلزَمُوه. ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ ما يصح لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ من قِبَل نفسي، وهو مصدر استعمل ظرفاً، وإنما اكتفي بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناعَ الإتيان بقرآن آخر. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ تعليل لما يكون، فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض وردٌّ لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامُه واختراعُه ولذلك قيَّد التبديل في الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي بالتبديل[٢]. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح[٣].

(١٦) ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ غير ذلك[٤]. ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ ولا أَعْلَمَكم به على

---

(١) قوله «آياتنا» أضافها إليه تعالى لتشريفها والترغيب في الإيمان بها والترهيب من تكذيبها وإيراد فعل التلاوة مبنياً للمفعول مسنداً إلى الآيات للإشعار بعدم الحاجة لتعين التالي، وللإيذان بأن كلامهم في نفس المتلوّ دون التالي. (س٤/١٢٨).

(٢) قوله «ربي» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه السلام ـ لتهويل أمر العصيان وإظهار كمال نزاهته ـ عليه السلام ـ عنه. (س٤/١٢٩).

(٣) وإيراد اليوم بالتنوين التفخيمي ووَصْفِه بالعِظَم لتهويل ما فيه من العذاب (س٤/١٢٩).

(٤) وصُدِّر بالأمر المستقل «قل» مع كونه دخلاً تحت الأمر السابق إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه وإيذاناً باستقلاله =

لساني، وعن ابن كثير ولأَدْرَاكم ـ بلام التأكيد ـ أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأَعْلَمَكم به على لسان غيري، والمعنى أنه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أُرْسَلْ به لأرسل به غيري. وقرىء ولا أَدْرَأْكُم، ولا أَدْرَأْتُكم بالهمز فيهما على لغة من يَقلِب الألف المبدلة من الياء همزة، أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتكم بتلاوته خُصَماء تدرؤونني بالجدال، والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتي حتى أَجْعَلَهُ على نحو ما تشتهونه، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مقدار عمر أربعين سنة. ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشىء قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بزّت فصاحتُه فصاحة كل مِنْطيق وعَلاَ عن كل منثور ومنظوم واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه عُلِمَ أنه معلم به من الله تعالى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس إلا من الله.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تَفَادٍ مما أضافوه إليه كناية، أو تظليمٌ للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم إنه لذو شريك وذو ولد[١]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفَرَ بها. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فإنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضر، والمعبود ينبغي أن يكون مُثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر[٢]. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثان. ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكّين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجِد الضارّ النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده. ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتخبرونه. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً، أو هؤلاء شفعاءٌ عنده، وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق ما، وفيه تقريع وتهكم بهم ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكِّدة للنفي منبهة على أن ما يعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات

= مفهوماً وأسلوباً (س٤/ ١٢٩).

(١) وفي زيادة «كذباً» ـ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك ـ للإيذان بأن ما أضافوه إليه ضمناً وحمّلوه ـ عليه السلام ـ عليه صريحاً مع كونه افتراء على الله كذب في نفسه فَرُبّ افتراء يكون كذبه في الإسناد فقط (س٤/ ١٣١).

(٢) وتقديم نفي الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذي هو أول المنافع (س٤/ ١٣١).

فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول النحل والروم[١] بالتاء.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ موحدين على الفطرة أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قَتَل قابيلُ هابيل[٢] أو بعد الطوفان، أو على الضلال في فترة من الرسل. ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام فتبعتهم طائفة وأصرت أخرى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق[٣].

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي من الآيات التي اقترحوها. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة من مفاسدَ تصرفُ عن إنزالها. ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ لنزول ما اقترحتموه. ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل علي من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

(٢١) ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ صحة وسعة. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كقحط ومرض. ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها. قيل قَحِطَ أهلُ مكة سبعَ سنين حتى كادوا يَهْلِكون ثم رحمهم الله بالحيا فطفقوا يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم قد دَبَّر عقابكم قبل أن تدبروا كيدهم، وإنما دل على سرعتهم المفضل عليها كلمة المفاجأة الواقعة جواباً لإذا الشرطية. والمكرُ إخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحَفَظَة فضلاً أن يخفى على الله تعالى، وعن يعقوب يمكرون بالياء ليوافق ما قبله.

---

(١) النحل: ١، ٣ والروم: (٤٠).
(٢) وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/٩٨) عن مجاهد.
وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور (٤/٣٤٩) إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.
(٣) وصيغة الاستقبال في «يختلفون» لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار. وكذا قوله «ويقولون» بعده (س٤/١٣٢ ـ ١٣٣).

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ
هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ
ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا
كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يحملكم على السير ويمكنكم منه. وقرأ ابن عامر يَنْشُرُكم بالنون والشين، من النشر. ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ بمن فيها، عَدَلَ عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب. ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ بتلك الريح. ﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب إذا، والضمير للفلك أو للريح الطيبة، بمعنى تلقتها. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف شديدة الهبوب. ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيء الموج منه. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أُهلِكوا وسُدّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، وهو بدل مِنْ ظنّوا بدلَ اشتمال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم. ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على إرادة القول، أو مفعول دَعَوُا لأنه من جملة القول[1].

(٢٣) ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ إجابة لدعائهم[2]. ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاجَؤُوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مبطلين فيه، وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة واحتراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها إفساد بحق. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فإن وباله عليكم، أو أنه على أمثالكم أبناء جنسكم. ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى ويبقىٰ عقابها، ورفعُه على أنه خبر بَغْيكم وعلى أنفسكم صلتُه، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبرُ بغيكم، ونَصَبَهُ حفصٌ على أنه مصدر مؤكد أي تتمتعون متاعَ الحياة الدنيا أو مفعول البغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجارّ من صلته والخبر محذوف تقديره بغيكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال، أو مفعولُ فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبرُه. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامة. ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حالُها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار

(١) وفي قوله «من الشاكرين» من المبالغة ـ أي ثابتين في الشكر مثابرين عليه ـ ما ليس في أن يقال لنشكرنّ (س٤/١٣٥).
(٢) والفاء للدلالة على سرعة الإجابة (س٤/١٣٥).

الناس بها. ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضُه بعضاً. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حُسْنها وبهجتها. ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها. وازينت أصله تَزَيَّنت فأدغم، وقد قرىء على الأصل، وأَزْيَنَت على أَفْعِلت من غير إعلال كأغيلت والمعنى صارت ذاتَ زينة، وازيانّت كابياضت. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها. ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ ضَرَب زرعَها ما يجتاحُه. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ فجعلنا زرعها. ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حصد من أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث، والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة. وقرىء بالياء على الأصل. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ فيما قبيله. وهو مَثَلٌ في الوقت القريب، والممثَّل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأةً وذهابُه حطاماً بعدما كان غضاً والتفّ وزيّن الأرض، حتى طَمِع فيه أهلُه وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء، وإنْ وَلِيَه حرفُ التشبيه لأنه من التشبيه المركب. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٥) ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ دار السلام من التقضّي والآفة، أو دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك، أو دارٍ يُسلِّم اللهُ والملائكة فيها على مَنْ يدخلها والمراد الجنة. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقها وذلك الإسلام والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غيرُ الإرادة وأن المُصِرَّ على الضلالة لم يُرِد الله رشدَه.

(٢٦) ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيد على المثوبة تفضلاً، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وقيل[1] الحسنى مِثْلُ حسناتهم والزيادة عَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، وقيل[2] الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل الحسنى الجنة والزيادة هي اللقاء[3]. ﴿وَلَا يَرْهَقُ

---

(١) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٧ ـ ١٠٨) عن قتادة قال:
كان الحسن يقول في هذه الآية «للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة» قال، الزيادة، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٨) عن مجاهد.

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١١/١٠٨) عن ابن زيد. في قوله «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» قال الحسنى: الجنة، وزيادة: ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة، وقرأ «وآتيناه أجره في الدنيا» قال: ما آتاه مما يجب في الدنيا عجّل له أجره فيها.

● وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة =

﴿وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها. ﴿قَتَرٌ﴾ غَبَرة فيها سواد[١]. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان، والمعنى لا يرهقهم ما يُرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله «للذين أحسنوا الحسنى» على مذهب من يجوِّز: في الدار زيد والحجرةِ عمرو، أو الذين مبتدأ والخبر جزاء سيئة بمثلها على تقدير: وجزاءُ الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أي أن تجازىٰ سيئة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وفيه تنبيه على أن الزيادة هي الفضل أو التضعيف، أو كأنما أغشيت وجوههم، أو أولئك أصحاب النار وما بينَهما اعتراض فجزاء سيئة مبتدأ وخبرُه محذوف أي فجزاء سيئة بمثلها واقع، أو بمثلها على زيادة الباء أو تقدير مقدر بمثلها[٢]. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقرىء بالياء[٣]. ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله، أو من جهة الله ومَنْ عنده كما يكون للمؤمنين. ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ غطيت. ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لفرط سوادها وظلمتها، ومُظْلِماً حال من الليل والعاملُ فيه أغشيت لأنه العامل في قِطَعاً وهو موصوف بالجار والمجرور، والعاملُ في الموصوف عامل في الصفة أو معنى الفعل في من الليل. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب قِطْعاً بالسكون فعلى هذا يصح أن يكون مُظْلِماً صفة له أو حالاً منه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مما يحتج به الوعيدية. والجواب أن الآية في الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسيمة.

= عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غرفاً من لآلىء، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته وعمّ ربنا جل ثناؤه بقوله: (وزيادةٌ): الزيادات على الحسنى، فلم يخصص منها شيئاً دون شيء، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعمّ كما عمه عزّ ذكره» اهـ.

وأخرج مسلم (١/١٦٣ رقم ٢٩٧/١٨١) عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، قال يقول اللهُ تبارك وتعالى: تريدونَ شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجابَ فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وانظر تفسير ابن كثير (٢/٤٢٩ ـ ٤٣٠) وكتابنا «الأدلة المعتبرة في إثبات النظر إلى الله في الآخرة».

(١) قدم المفعول «وجوهَهم» على الفاعل «قترٌ» للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم، وللتشويق إلى المؤخر (س٤/١٣٨).

(٢) وإيراد الكسب للإيذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جناياتهم على أنفسهم (س٤/١٣٨).

(٣) وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذانٌ بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعاً (س٤/١٣٩).

(٢٨) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني الفريقين جميعاً. ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ﴾ الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يُفعل بكم[١]. ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله. ﴿ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ عطف عليه. وقرىء بالنصب على المفعول معه. ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوُصَل التي كانت بينهم. ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ مجاز عن براءة ما عبدوه من عبادتهم فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم لأنها الآمرةُ بالإشراك لا ما أشركوا به. وقيل يُنْطِق الله الأصنام فتشافههُم بذلك مكان الشفاعة التي يتوقعون منها. وقيل المراد بالشركاء الملائكة والمسيح وقيل الشياطين.

فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه العالم بكُنْه الحال. ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة[٢].

(٣٠) ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المقام. ﴿ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ تختبر ما قدمت من عمل فتعاين نفعَه وضره. وقرأ حمزة والكسائي تتلو من التلاوة أي تقرأ ذكر ما قدمت، أو من التَّلْوِ أي تَتْبَعُ عملَه فيقودها إلى الجنة أو إلى النار. وقرىء نبلو بالنون ونصب كل وإبدال ما منه، والمعنى نختبرها أي نفعل بها فعل المختبر لحالها المتعرف لسعادتها وشقاوتها بتعرف ما أسلفت من أعمالها، ويجوز أن يراد به نصيب بالبلاء أي بالعذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض. ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى جزائه إياهم بما أَسْلَفوا. ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولًى، وقرىء الحقَّ بالنصب على المدح أو المصدر المؤكد. ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وضاع عنهم. ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

(٣١) ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما توسعة عليكم. وقيل مِنْ لبيان مَنْ على حذف المضاف، أي مِنْ أهل السماء والأرض. ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء. ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ومن يحيي ويميت، أو من ينشىء الحيوان من النطفة والنطفة منه. ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم، وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك

---

(١) قوله «للذين أشركوا» حيث خصص وصف إشراكهم بالذكر في حيز الصلة من بين ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظم جناياتهم (س٤/ ١٣٩).

(٢) وقوله «عن عبادتكم» أي عبادتكم لنا، ولم يصرح به لظهوره وللإيذان بكمال الغفلة عنها (س٤/ ١٤٠).

لفرط وضوحه. ﴿ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ
أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ أي المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم. ﴿ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ ﴾ استفهامُ إنكارٍ، أي ليس بعد الحق إلا الضلال فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال[١]. ﴿ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ عن الحق إلى الضلال[٢]. .

(٣٣) ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي كما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه. وقرأ نافع وابن عامر كلمات هنا وفي آخر السورة وفي غافر[٣] ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ ﴾ تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح. ﴿ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيقتها، والمراد بها العِدَة بالعذاب.

(٣٤) ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن لم يساعدوا عليها، ولذلك أُمِر الرسول ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ ﴾ لأن لجاجهم لا يدعهم أن يعترفوا بها. ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

(٣٥) ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ ﴾ بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيقِ للنظر والتدبر، وهَدَىٰ كما يُعدّىٰ بإلى لتضمنه معنى الانتهاء يُعدّى باللام للدلالة على أن المنتهى غايةُ الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أُسند إلى الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ ﴾ أم الذي لا يهتدي إلا أن يُهْدَىٰ من قولهم: أهدى بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وهذا حال أشراف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير[٤]. وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر يَهَدِّي بفتح الهاء وتشديد

(١) إظهار لفظة «الحق» إما لأن المراد به غير الأول أو لزيادة التقرير ومراعاة المقابلة بينه وبين الضلال (س٤/ ١٤٢).

(٢) وقوله «تُصرفون» حيث آثر صيغة المبني للمفعول للإيذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بإرادته، وإنما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجي (س٤/ ١٤٢).

(٣) آخر السورة الآية «٩٦» وغافر الآية «٦».

(٤) وإنما نفىٰ عنه الاهتداء ـ مع أن المفهوم نفي الهداية ـ لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالباً، فإن من اهتدىٰ إلى الحق لا يخلو عن هداية (س٤/ ١٤٤).

الدال، ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد، والأصل يهتدي فأُدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين، وروى أبو بكر يهدي بإتباع الياء الهاء، وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرد ولم يبالِ بالْتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك، وعن نافع برواية قالون مثله، وقرىء إلا أن يُهَدّى للمبالغة ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريحُ العقل بطلانَه.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه. ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأَقْيِسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر الجميع أو مَنْ ينتمي منهم إلى تمييزٍ ونظر ولا يرضى بالتقليد الصِّرْف[1]. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، ويجوز أن يكون مفعولاً به ومن الحق حالاً منه، وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

(٣٧) ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ افتراء من الخلق. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها، ولا يكون كذباً، كيف وهو لكونه معجزاً دونها عيار عليها شاهد على صحتها؟! ونصبه بأنه خبر لِكَان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره: ولكن أنزله الله تصديق الذي. وقرىء بالرفع على تقدير ولكنْ هو تصديقُ. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ منتفياً عنه الريب. وهو خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب فإنه مفعول في المعنى، وأن يكون استئنافاً. ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبرٌ آخر تقديره كائناً من رب العالمين، أو متعلق بتصديق أو تفصيل ولا ريب فيه اعتراض، أو بالفعل المعلل بهما، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو من الضمير في فيه. ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.

(٣٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون. ﴿افْتَرَاهُ﴾ محمد ﷺ، ومعنى الهمزة فيه للإنكار. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسْن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً في النظم والعبارة. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمَنْ أمكنكم أن تستعينوا به. ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى فإنه وحده قادر على ذلك[2]. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

---

(١) أو أن تخصيص الأكثر بذلك للإشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك (س٤/١٤٥).

(٢) وإخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم في عُدْوة المضادة والمشاقة، لا لبيان=

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ
فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ
أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ بل سارعوا إلى التكذيب. ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم[١]. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه، ومعنى التوقع في «لمّا» أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقاً لأخباره مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المكذبين. ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ من يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من سيؤمن به ويتوب عن الكفر. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرين.

(٤١) ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة. ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فتبرأ منهم فقد أعذرت، والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً. ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم. ولما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل إنه منسوخ بآية السيف.

(٤٢) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً[٢]. ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ تقدر على إسماعهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم. وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك

= استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم إليه (س٤/١٤٦).

(١) والتعبير عنه «بما لم يحيطوا بعلمه» دون أن يقال: بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للإيذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به، لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما في حيّز الصلة له (س٤/١٤٦).

(٢) وجمع الضمير في «يستمعون» رعاية لجانب المعنى، كما أفرد فيما يأتي «مَنْ ينظر..» محافظة على ظاهر اللفظ. ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظُّلمة (س٤/١٤٨).

لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولُهم لما كانت مؤوفة[١] بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليدِ تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك. ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ تقدر على هدايتهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحدس الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم.

(٤٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم. ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم، وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. وقرأ أبو عمرو والكسائي بالتخفيف ورفع الناس[٢].

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون. والجملة التشبيهية في موضع الحال أي يحشرهم مشبَّهين بمن لم يلبث إلا ساعة، أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره: كأن لم يلبثوا قبله أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله[٣]. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا أول ما نشروا ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم. وهي حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾، أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم يحشرهم. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ استئناف للشهادة على خسرانهم والتعجب منه، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في يتعارفون على إرادة القول[٤]. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من المَعَاوِن في تحصيل المعارف فاستكسبوا بها جهالات أدت بهم إلى الردىٰ والعذاب الدائم.

---

(١) (مؤوفة) أي مصابة بالآفة.

(٢) أي «ولكنْ الناسُ».

(٣) وتخصيص الساعة بالنهار لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل (س٤/ ١٥٠).

(٤) والتعبير عنهم بالموصول ـ مع كون المقام مقام إضمار ـ لذمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لما أصابهم (س٤/ ١٥٠).

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ
فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٦) ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نبصرنك. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك كما أراه يوم بدر. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة، وهو جواب نتوفينك، وجوابُ نرينّك محذوف مثل فذاك. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مجاز عليه ذكرُ الشهادة، وأراد نتيجتَها ومقتضاها، ولذلك رتبها على الرجوع بثم. أو مؤدٍّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

(٤٧) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية. ﴿رَّسُولٌ﴾ يُبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق. ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه. ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الرسول ومكذبيه. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجي الرسول وأُهلك المكذبون. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقيل معناه لكل أمة يوم القيامة رسول تُنسب إليه فإذا جاء رسولهم الموقفَ ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضي بينهم بإنجاء المؤمنين وعقاب الكفار لقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاء به. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

(٤٩) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم[2]. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه، أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب لهلاكهم. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلون فسَيَحين وقتكم وينجز وعدكم[3].

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به. ﴿بَيَٰتًا﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم. ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أيّ شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرأيتم لأنه بمعنى أخبروني، والمجرمون

---

(١) الزمر: «٦٩».

(٢) وتقديم الضر لما أن مساق النظم لإظهار العجز عنه، وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز. وما وقع في سورة الأعراف «١٨٨» من تقديم النفع للإشعار بأهميته والمقام مقامه (س٤/ ١٥١).

(٣) وإظهار «أجلهم» في موقع الإضمار لزيادة التقرير، وإضافة الأجل إليهم لإفادة التعيين.
وقوله «يستأخرون» بصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم.
وتقديم يستأخرون على يستقدمون لأن المقصود الأهم هو بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة. أما قوله تعالى: «ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» ـ الحجر «٥» ـ فلأن المراد هناك بيان سرّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم له (س٤/ ١٥٢).

وُضِع موضع الضمير للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب لا أن يستعجلوه، وجوابُ الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه، ويجوز أن يكون الجواب ماذا كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني وتكون الجملة متعلقة بأرأيتم أو بقوله:

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ بمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وماذا يستعجل اعتراضٌ، ودخول حرف الاستفهام على ثم لإنكار التأخير. ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به؟! وعن نافع آلان بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطف على قيل المقدر. ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤلم على الدوام. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٥٣) ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك. ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة تقوله بجد أم باطل تهزل به قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة، والأظهرُ أن الاستفهام فيه على أصله لقوله: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾. وقيل إنه للإنكار، ويؤيده أنه قرىء آلحق هو فإن فيه تعريضاً بأنه باطل، وأحقّ مبتدأ والضمير مرتفِع به ساد مسد الخبر أو خبر مقدم والجملة في موضع النصب بيستنبئونك. ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب لكائن أو ما ادعيتُه لثابت، وقيل كلا الضميرين للقرآن. وإي بمعنى نعم، وهو من لوازم القسم، ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال إي والله ولا يقال إي وحده. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب.

(٥٤) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدي على الغير ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها. ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنهم بُهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله فلم يقدروا أن ينطقوا. وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها، أو لأنه يقال سرُّ الشيء لخالصته من حيث إنها تخفى ويضن بها. وقيل أظهروها من قولهم أسر الشيء وأسره إذا أظهره[١]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليس تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم والثاني مجازاة المشركين على الشرك أو

---

(١) قوله «وأسرّوا» حيث عدل إلى صيغة الجمع ـ مع تحقق العموم في صورة الإفراد ـ لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعية والاجتماع. . (س٤/ ١٥٤).

الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ
لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٥) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خُلف فيه[١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون، لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

(٥٦) ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبىٰ لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بالموت أو النشور.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوْا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتنكير فيها للتعظيم.

(٥٨) ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ بإنزال القرآن، والباء متعلقة بفعل يفسره قولُه: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ فإن اسم الإشارة بمنزلة الضمير تقديرُه بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، وفائدةُ ذلك التكريرِ التأكيدُ والبيان بعد الإجمال وإيجابُ اختصاص الفضل والرحمة بالفرح أو بفعل دل عليه قد جاءتكم، وذلك إشارة إلى مصدره أي فبمجيئها فليفرحوا[٢]. والفاء بمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فيهما فليفرحوا، أو للربط بما قبلها والدلالةِ على أن مجيء الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح، وتكريرُها للتأكيد كقوله:

وإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِي

وعن يعقوب فلتفرحوا بالتاء على الأصل المرفوض، وقد روي مرفوعاً ويؤيده أنه قرىء فافرحوا. ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال قريب، وهو ضمير ذلك. وقرأ ابن عامر تجمعون بالتاء، على معنى فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعونه أيها المخاطبون.

---

(١) إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعلة الحكم.
وتصدير الجملتين بحرفي التنبيه والتحقيق «ألا إنّ» لبيان تحقق مضمونهما ووجوب المحافظة عليهما (س٤/ ١٥٥).

(٢) وتكرير الباء في «رحمته» للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح (س٤/ ١٥٦).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا
عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن
ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(٥٩) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ جَعَل الرزق مُنَزَّلاً لأنه مقدر في السماء محصّل بأسباب منها، و«ما» في موضع النصب بأنزل أو بأرأيتم فإنه بمعنى أخبروني، و«لكم» دل على أن المراد منه ما حل ولذلك وبخ على التبعيض فقال: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[1] مثل: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾[2] ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[3] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمه. ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في نسبة ذلك إليه، ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة بأرأيتم وقُلْ مكرر للتأكيد وأن يكون الاستفهام للإنكار، وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير لافترائهم على الله[4].

(٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي شيء ظنهم؟[5] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أن لا يجازوا عليه؟ وهو منصوب بالظن، ويدل عليه أنه قرىء بلفظ الماضي لأنه كائن، وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة.

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ ولا تكون في أمر، وأصله الهمز من شَأَنْتُ شأنَه إذا قصدت قصده، والضمير في ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله، ومفعول تتلو ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ على أنّ مِنْ تبعيضية أو مزيدة لتأكيد النفي أو للقرآن، وإضمارُه قبل الذكر ثم بيانُه تفخيم له أو لله. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رُقَباء مطلعين عليه. ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه وتندفعون. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه. وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي

---

(١) وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (س٤/ ١٥٦).

(٢) الأنعام: «١٣٨».

(٣) الأنعام: «١٣٩».

(٤) وأظهر الاسم الجليل وقدمه على الفعل «تفترون» دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيداً للتبكيت عليهم (س٤/ ١٥٦).

(٥) وزيادة لفظ «الكذب» مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً ـ لإظهار كمال قبح ما افتعلوا، وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً (س٤/ ١٥٧).

سبأ[١]. ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ موازن نملة صغيرة، أو هباء. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ليس فيهما ولا متعلقاً بهما. وتقديمُ الأرض لأن الكلام في حال أهلها، والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها. ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرِّر لما قبله، و«لا» نافية وأصغر اسمها وفي كتاب خبرها. وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر، ومَنْ عَطَفَ على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بَدَلَ الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا
يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن
فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ
إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لفوات مأمول. والآية كمُجْمَل فسره قولُه:

(٦٣) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وقيل الذين آمنوا وكانوا يتقون بيانٌ لتولّيهم إياه.

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو ما بَشَّرَ به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يسنح لهم من المكاشفات وبشرى الملائكة عند النزع. ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلّمين مبشرين بالفوز والكرامة، بيانٌ لتوليه لهم، ومحل الذين آمنوا النصب أو الرفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء وخبرُه لهم البشرى. ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلافَ لمواعيده. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشَّرين في الدارين. ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشَّر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. وقرأ نافع يُحْزِنْكَ من أَحْزَنَه، وكلاهما بمعنى[٢]. ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئناف بمعنى التعليل، ويدل عليه القراءة بالفتح، كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم. ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بعزماتهم فيكافئهم عليها.

---

(١) سبأ: «٣».
(٢) وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد ـ مع شمول النفي السابق للحزن أيضاً ـ لما أنه لم يكن فيه ﷺ شائبة خوف حتى ينهى عنه، وربما كان يعتريه في بعض الأوقات نوع حزن فسلّي عن ذلك (س٤/ ١٦١).

(٦٦) ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والثقلين[١]، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له نداً أو شريكاً فهو كالدليل على قوله: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء، ويجوز أن يكون شركاء مفعول يَدْعون ومفعولُ يتبع محذوفٌ دل عليه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أي ما يتبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنَّهم أنها شركاء، ويجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بيتبع أو موصولة معطوفة على مَنْ. وقرىء تَدْعُون بالتاء الخطابية. والمعنى: أي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين؟ أي أنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾[٢] فيكون إلزاماً بعد برهان، وما بعده مصروف عن خطابهم لبيان سندهم ومنشأ رأيهم. ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله، أو يحزرون ويقدِّرون أنها شركاء تقديراً باطلاً.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٧) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة، وإنما قال مبصراً ولم يقل لتبصروا فيه تفرقةً بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واعتبار.

(٦٨) ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ أي تبنّاه. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يُتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء. ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ علة لتنزيهه، فإن اتخاذ الولد مسبَّب عن الحاجة. ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تقرير لغناه. ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ نفي لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطلان قولهم، و«بهذا» متعلقٌ بسلطان أو نعت له أو بعندكم كأنه قيل: إنْ عندكم في هذا من سلطان[٣]. ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم. وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ.

---

(١) وتخصيصهم بالذكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنهم مع شرفهم وعلوّ طبقتهم إذا كانوا عبيداً له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك (س٤/ ١٦١).

(٢) الإسراء: «٥٧».

(٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام (س٤/ ١٦٣).

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ
كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه. ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

(٧٠) ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي افتراؤهم متاعٌ في الدنيا يقيمون به رئاستهم في الكفر أو حياتُهم أو تقلبهم مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا. ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد. ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ خبرُه مع قومه. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ عَظُمَ عليكم وشقّ. ﴿ مَّقَامِي ﴾ نفسي كقولك فعلت كذا لمكان فلان، أو كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة، أو قيامي على الدعوة. ﴿ وَتَذْكِيرِي ﴾ إياكم. ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وثِقت به. ﴿ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ ﴾ فاعزموا عليه. ﴿ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي مع شركائكم، ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير أن يؤكّد للفصل. وقيل إنه معطوف على أمركم بحذف المضاف أي وأمْرِ شركائِكم. وقيل إنه منصوب بفعل محذوف تقديره وادعوا شركاءكم وقد قرىء به، وعن نافع فَاجْمَعُوا من الجمع، والمعنى أمَرَهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم. ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ ﴾ في قصدي. ﴿ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ مستوراً واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، مِنْ غَمَّه إذا ستره. أو ثم لا يكن حالكم عليكم غماً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ ﴾ أدوا. ﴿ إِلَيَّ ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي. وقرىء ثم أَفْضُوا إلى بالفاء أي انتهوا إليَّ بِشَرِّكم أو ابرزوا إليّ، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء. ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ولا تمهلوني.

(٧٢) ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أعرضتم عن تذكيري. ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ يوجب تولّيكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني لتوليكم. ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ ما ثوابي على الدعوة والتذكير. ﴿ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لا تعلق له بكم يثيبني به آمنتم أو توليتم. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

(٧٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فأصروا على تكذيبه بعد ما ألزمهم الحجة وبيّن أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم، لا جرَمَ حقت عليهم كلمة العذاب. ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ من الغرق. ﴿ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ وكانوا ثمانين. ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ من الهالكين به. ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾

بالطوفان[١]. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ، وتسلية له.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا. ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح. ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه. ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر وخذلان الله إياهم. ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف. وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد، وقد مر تحقيق ذلك.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل. ﴿مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع[٢]. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعهما. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترؤوا على ردها.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك. ﴿قَالُوا﴾ من فرط تمردهم. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أنه سحر، أو فائق في فنه واضح فيما بين إخوانه.

(٧٧) ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ إنه لسحر فحُذِف المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ لأنهم بتّوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه، اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكي مفهوم قولهم، ويجوز أن يكون معنى أتقولون للحق أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾[٣] فيستغني عن المفعول[٤].

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يُبْطل سحْرَ السحرة. ولأن العالِمَ بأنه لا يفلحُ الساحرُ لا يُسْحَر، أو من تمام قولهم إن جعل أَسِحْرٌ هذا محكياً كأنهم قالوا أجئتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.

---

(١) قدم ذكر الإنجاء والاستخلاف على الإغراق لإظهار كمال العناية بشأن المقدم، ولتعجيل المسرة للسامعين، وللإيذان بسبق الرحمة على الغضب (س٤/١٦٥).

(٢) وتخصيص الملأ بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات (س٤/١٦٧).

(٣) الأنبياء: «٦٠».

(٤) وتقديم الخبر «سحر» للإيذان بأنه مدار الإنكار (س٤/١٦٨).

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ
قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ
أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان. ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الملك فيها سمي بها لاتصاف الملوك بالكبر، أو التكبر على الناس باستتباعهم. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتما به[١].

(٧٩) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بكل سَحّار. ﴿عَلِيمٍ﴾ حاذق فيه.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[٢].

(٨١) ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحراً. وقرأ أبو عمرو آلسحر على أنّ ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرُها والسحر بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف تقديره أهو السحر، أو مبتدأ خبره محذوف أي آلسحر هو، ويجوز أن ينتصب ما بفعل يفسره ما بعده وتقديره أي شيء أتيتم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبته ولا يقويه[٣]. وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له[٤].

(٨٢) ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويثبته. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه. وقرىء بكلمتِه. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٨٣) ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ أي في مبدأ أمره[٥]. ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لفرعون والذرية

---

(١) وتثنية الضمير في هذين الموضعين «لكما» بعد إفراده فيما تقدم باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر، وأما اللفت والمجيء له فحيث كان من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة (س٤/ ١٦٩).

(٢) قوله «فلما...» عطف على مقدر وحذف للإيذان بسرعة امتثالهم لأمر فرعون (س٤/ ١٦٩).

(٣) وإظهار لفظ المفسدين للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم (س٤/ ١٧٠).

(٤) ما ذكره البيضاوي من أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له ليس على إطلاقه، فمن السحر ما هو راجع إلى خفة اليد وهذا يسمىٰ سحراً مجازاً. ومن السحر ما هو تمويه وتخييل للعيون، وهو لا تأثير له على الواقع إنما يوهم العين فقط، لذلك قال عن سَحَرة فرعون «سحروا أعين الناس..» ـ الأعراف: «١١٦». ومن السحر ماله أثر على الإنسان وقد سحر لبيدُ بن الأعصم اليهودي رسولَ الله ﷺ.

(٥) وهو معطوف على مقدر، ولم يذكر تعويلاً على ما ذكر في موطن آخر، وإيثاراً للإيجاز، وإيذاناً بأن في قوله تعالى «إن الله سيبطله» مما لا يحتمل الخلف أصلاً (س٤/ ١٧٠).

طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطته ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ أي مع خوف منهم، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو للذرية، أو للقوم. ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ أن يعذبهم فرعون، وهو بدل منه أو مفعول خوف، وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه. ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لغالب فيها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا
فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا
لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ
أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به. ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه. ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضي له، والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ونظيرُه إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت.

(٨٥) ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ولذلك أجيبت دعوتهم. ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾ موضع فتنة. ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته.

(٨٧) ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أي اتخذا مباءة. ﴿لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾ تسكنون فيها، أو ترجعون إليها للعبادة. ﴿وَٱجۡعَلُواْ﴾ أنتما وقومكما. ﴿بُيُوتَكُمۡ﴾ تلك البيوت. ﴿قِبۡلَةٗ﴾ مصلى، وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة، وكان موسى عليه السلام يصلي إليها. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ فيها، أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى. وإنما ثنّى الضمير أولاً لأن التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جَمَع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم وحّد لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشريعة[١].

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ﴾ ما يتزين به من الملابس والمراكب

---

(١) ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنه المدار في التبشير (س٤/ ١٧١).

ونحوهما. ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وأنواعاً من المال. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما عُلم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك: لعن الله إبليس. وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيتَ ويحتمل أن تكون للعلة لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريراً للأول تأكيداً وتنبيهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها، والطمس المَحْق. وقرىء اطْمُس بالضم. ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي وأقسِها واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جواب للدعاء، أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ليضلوا، وما بينهما دعاء معترض.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ
الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ يعني موسى وهارون لأنه كان يؤمن. ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته. روي: أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طريق الجهَلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى. وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان ولا تَتْبِعانِ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، ولا تتبعانِ من تَبِع ولا تتبعانٍّ أيضاً.

(٩٠) ﴿۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جوّزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم، وقرىء جَوّزْنا وهو من فعل المرادف لفاعل كضعّف وضاعَف. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فأدركهم يقال: تَبِعْته حتى أَتْبعتُه. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ باغين وعادين، أو للبغي والعدو. وقرىء وعُدُوّاً. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ لحقه. ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ﴾ أي بأنه. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي إنه بالكسر على إضمار القول، أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لآمنت فنكب عن الإيمان، أو أن القبول وبالغ فيه حين لا يُقبل[1].

(٩١) ﴿آلْآنَ﴾ أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبقَ لك اختيار[2]. ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ قبل ذلك مدة عمرك. ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

---

(١) وعبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً في القبول والانتظام معهم في سلك النجاة (س٤/ ١٧٣).

(٢) وفي حذف الفعل المذكور وإبراز الخبر المحكي في صورة الإنشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى (س٤/ ١٧٣).

فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ
لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً[١]، أو نلقيك على نَجْوَة من الأرض ليراك بنو إسرائيل. وقرأ يعقوب نُنْجِيك من أنجى، وقرأ نُنَحِّيك بالحاء أي نلقيك بناحية من الساحل. ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال أي ببدنك عارياً عن الروح، أو كاملاً سوياً، أو عرياناً من غير لباس، أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرىء بأبدانك أي بأجزاء البدن كلها كقولهم هوى بإجرامه، أو بدروعك كأنه كان مُظاهِراً بينها. ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مُطَّرِحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالاً عن الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وقرىء لمن خَلَقَك أي لخالقك آية أي كسائر الآيات، فإن إفراده إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أنه تعمدٌ منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة في أمرك، وذلك دليل على كمال قدرته وعلمه وإرادته، وهذا الوجه أيضاً محتمل على المشهور. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا. ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً، وهو الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من اللذائذ. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

(٩٤) ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير. ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنه مُحَقَّق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه، أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته لا إمكانُ وقوع الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا أَشُك ولا أَسأَل»[٢]. وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أو لكل من يسمع، أي إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك، وفيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم. ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين.

---

(١) وفي التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده من الإيمان هو النجاة، وتهكم به (س٤/ ١٧٤).
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١١/ ١٦٨) عن قتادة من طريقين صحيحين.

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ
ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أيضاً من باب التهييج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتت عليهم. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يُكذب كلامُه ولا يُنتقض قضاؤه.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون.

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إليها كما أُخر فرعون. ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأنْ يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها. ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس عليه السلام. ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله. ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه، فيكون الاستثناء متصلاً لأن المراد من القرى أهاليها كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس، ويؤيده قراءة الرفع على البدل. ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي[٢] أن يونس عليه السلام بُعث إلى أهل نَيْنوى من الموصل، فكذبوه وأصروا عليه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث وقيل إلى ثلاثين وقيل إلى أربعين، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أَسود ذا دخان شديد فهبط حتى غَشِي مدينتَهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المُسُوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها فحنّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأخلصوا التوبة وأظهروا الإيمان وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة.

(٩٩) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه. وهو دليل على القَدَرِيّة في أنه تعالى لم يشأ إيمانَهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ بما لم يشأ الله منهم. ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيبُ الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار وتقديمُ الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه

---

(١) القصص: ٨٦.
(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج١١/ ١٧١) عن قتادة بسند صحيح.

فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روي أنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به، فنزلت. ولذلك قرره بقوله:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ
كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ بالله. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بإرادته وألطافه وتوفيقه، فلا تُجهد نفسك في هُداها فإنه إلى الله. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب أو الخذلان فإنه سببه. وقرىء بالزاي، وقرأ أبو بكر ونَجعَلُ بالنون. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع، ويؤيد الأول قوله:

(١٠١) ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ أي تفكروا. ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من عجائب صنعه لتدلكم على وحدته وكمال قدرته، وماذا إن جُعِلَت استفهامية عَلَّقَتْ انظُروا عن العمل. ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمه. وما نافية أو استفهامية في موضع النصب.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره، مِنْ قولهم أيامُ العرب لِوَقائِعها. ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك أو فانتظروا هلاكي إني معكم من المنتظرين هلاكَكُم.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف على محذوف دل عليه إلا مثلَ أيام الذين خلوْا، كأنه قيل: نُهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم[1]، على حكاية الحال الماضية. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك الإنجاءُ، أو إنجاءً كذلك ننجي محمداً وصحبه حين نُهلك المشركين، وحقاً علينا اعتراض ونصبه بفعله المقدر. وقيل بدل من كذلك. وقرأ حفص والكسائي نُنْجِي مخففاً.

(١٠٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لأهلِ مكة[2]. ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وصحته. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً فاعْرِضوها على العقل الصرف وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحتها، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم . . . .

(١) وما بينه وبين المعطوف عليه اعتراض جيء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد (س٤/١٧٨).
(٢) وأوثر الخطاب باسم الجنس مصدّراً بحرف التنبيه «يا» تعميماً للتبليغ وإظهاراً للعناية بشأن ما بُلِّغ إليهم (س٤/١٧٩).

ويتوفاكم[١]. وإنما خص التوفّي بالذكر للتهديد. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحي، وحذف الجارّ مِنْ أَنْ يجوزُ أن يكون من المطرد مع أَنَّ وأَنْ يكون من غيره كقوله:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبِ

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ
فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا
رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطف على أن أكون غير أنَّ صلة أَنْ محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهم في الغرض لأن المقصود وَصْلُها بما يتضمن معنى المصدر لتدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض، والانتهاء عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه[٢]. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته[٣]. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإنْ دعوته. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة الدعاء.

(١٠٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصبك به. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ يرفعه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله. ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ﴾ فلا دافع. ﴿لِفَضْلِهِ﴾ الذي أرادك به، ولعله ذكر الإرادةَ مع الخير والمسَّ مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن ردّه. ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير. ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

(١٠٨) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ رسوله أو القرآن ولم يبق لكم عذر. ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعة. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه لها. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر بهما. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال الضلال عليها. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا

---

(١) وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية، وللإيذان بالمخالفة من أول الأمر (س٤/١٧٩).

(٢) ومعنى حنيفاً أي مائلاً عن الأديان الباطلة.

(٣) وقوله «ولا تدع» تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لما أجمل فيه وذلك إظهاراً لكمال العناية بالإلأمر وكشفاً عن وجه بطلان ما عليه المشركون (س٤/ ١٨٠).

بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

(١٠٩) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنصرة أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطلاعَه على الظواهر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدّق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون»[1].

☆ ☆ ☆

(١) حديث موضوع، أورده ابن الجوزي في الموضوعات، أبواب ما يتعلق بالقرآن (١/ ٢٤٠).

سُورَةُ هُودٍ

آياتها ١٢٣ — ترتيبها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

(١) ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ وخبر، أو كتابٌ خبرُ مبتدإٍ محذوف. ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نُظمت نظماً محكماً لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى، أو مُنعت من الفساد والنسخ فإن المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ، أو أُحكمت بالحجج والدلائل، أو جُعلت حكيمة منقول من حَكُمَ ـ بالضم ـ إذا صار حكيماً لأنها مشتملة على أمهات الحِكَم النظرية والعملية[١]. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، أو بجعلها سوراً، أو بالإنزال نَجماً نَجماً[٢]، أو فصِّل فيها ولخص ما يحتاج إليه. وقرىء ثم فَصَلت أي فرقت بين الحق والباطل، وأحكمتُ آياتِه ثم فَصّلتُ على البناء للمتكلم. وثم للتفاوت في الحكم أو للتراخي في الأخبار. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لكتاب، أو خبر بعد خبر، أو صلة لأحكمت أو فصلت، وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

(٢) ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لأنْ لا تعبدوا. وقيل أنْ مفسِّرة لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً للإغراء على التوحيد أو الأمرِ بالتبري من عبادة الغير كأنه قيل: ترك عبادة غير الله بمعنى الزموه أو اتركوها تركاً. ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ من الله. ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد.

(٣) ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عطف على ألا ....

---

(١) وفي إسناد الإحكام إلى الآيات من الدلالة على كونه في أقصى غاية منه، فإنه مسند لكل آية منه (س٤/ ١٨٢).

(٢) أي جزءاً جزءاً.

تعبدوا[(١)]. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم توسلوا إلى مطلوبكم بالتوبة فإن المُعْرِض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع. وقيل استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله بالطاعة، ويجوز أن يكون ثم لتفاوت ما بين الأمرين. ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يُعَيِّشْكم في أمن ودَعَة. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة، أو لا يهلكُكم بعذاب الاستئصال والأرزاق والآجال، وإن كانت متعلقة بالأعمار لكنها مسماة بالإضافة إلى كل أحد فلا تتغير. ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ ويعط كل ذي فضل في دينه جزاءَ فضله في الدنيا والآخرة، وهو وعد للموحِّد التائب بخير الدارين. ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن تتولوا. ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجِيَف. وقرىء وإن تُوَلُّوا من وَلّىٰ.

(٤) ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم، وهو شاذ عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبكم أشد عذاب، وكأنه تقدير لكبر اليوم.

أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ يثنونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولّون ظهورهم. وقرىء يثنوني بالياء والتاء من اثنونىٰ وهو بناء مبالغة، وتَثْنَوِنّ وأصله تَثْنَوْنَنَ من الثَّنّ وهو الكلأ الضعيف أراد به ضعف قلوبهم أو مطاوعة صدورهم للثني، وتَثْنَئِنّ من اثنأن كابيأض بالهمزة، وتَثْنَوِي. ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ من الله بسرِّهم فلا يُطْلِع رسولَه والمؤمنين عليه. قيل إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم؟. وقيل نزلت في المنافقين، وفيه نظر إذ الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة[(٢)]. ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ الا حين يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم. ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم. ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ بأفواههم يستوي في علمه سرهم وعَلَنُهم فكيف يخفىٰ عليه ما عسى يُظهرونه؟![(٣)] ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالأسرار ذات الصدور، أو بالقلوب وأحوالها[(٤)].

(٦) ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفُّله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى

---

(١) والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتهال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وإيتاء الفضل. . . (س٤/ ١٨٤).

(٢) الثابت في البخاري (٤٦٨١) أنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يستحيون أن يتخلوا أو يجامعوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء.

(٣) وقدم السر على العلن نعياً عليهم من أول الأمر وهو بخلاف قوله ما صنعوا، وإيذاناً بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه، وتحقيقاً للمساواة بين العِلْمين على أبلغ وجه (س٤/ ١٨٦).

(٤) كأنه قيل: إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية في صدورهم، يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون (س٤/ ١٨٦).

بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام، أو مساكنها من الأرض حين وُجدت بالفعل ومَوْدَعَها من المواد والمقارّ حين كانت بعد بالقوة. ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد من الدواب وأحوالها. ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ. وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها، وبما بعدها بيانُ كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

(٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيها كما مرّ بيانه في الأعراف، أو ما في جهتي العلو والسفل. وجَمْعُ السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما لأنه كان موضوعاً على متن الماء، واستُدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أَجْرام هذا العالم. وقيل كان الماء على متن الريح، والله أعلم بذلك. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ متعلق بخَلَق أي خلق ذلك كخَلْق مَنْ خلق ليعاملكم معاملةَ المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسبابٌ ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم ودلائلُ وأماراتٌ تستدلون بها وتستنبطون منها، وإنما جاز تعليق فعل البلوى لما فيه من معنى العلم من حيث إنه طريق إليه كالنظر والاستماع، وإنما ذَكَرَ صيغة التفضيل ـ والاختبارُ شامل لفِرَق المكلفين ـ باعتبار الحسن والقبح للتحريض على أحاسن المحاسن والتحضيضِ على الترقي دائماً في مراتب العلم والعمل فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ولذلك قال النبي ﷺ: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله»[(١)]. والمعنى أيكم أكمل علماً وعملاً. ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة والكسائي إلاّ سَاحِر على أن الإشارة إلى القائل، وقرىء أَنكم ـ بالفتح ـ على تضمن قلْتَ معنى ذَكَرتَ؛ أو أن يكون أَنَّ بمعنى علّ أي ولئن قلت علكم مبعوثون، بمعنى توقعوا بعثكم ولا تبتوا بإنكاره لعدوه من قبيل ما لا حقيقة له مبالغةً في إنكاره.

(٨) ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الموعود. ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات قليلة.

---

(١) رواه الطبري (١٢/٥) وابن مردويه كما في الدر المنثور (٤/٤٠٤) رواه الطبري بإسناد ساقط لأن فيه داود بن المحبر، ورواه ابن مردويه بإسناد أسقط لأن فيه سليمان بن عيسى ومحمد بن أشرس وانظر الفتح السماوي ص٧١٩.

﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ استهزاءً. ﴿ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ ما يمنعه من الوقوع. ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ كيوم بدر. ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ليس العذاب مدفوعاً عنهم، ويوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها. ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ وأحاط بهم، وَضَعَ الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فوضع تستهزئون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء[1].

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ
ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن
يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها. ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه. ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ ﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به. ﴿ كَفُورٌ ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

(١٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصحة بعد سقم وغنًى بعد عدم، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى. ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ أي المصائب التي ساءتني. ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ ﴾ بَطِر بالنعم مغترّ بها. ﴿ فَخُورٌ ﴾ على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها. وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء لأن الذوق إدراك الطعم والمسّ مبتدأ الوصول.

(١١) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه. ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ شكراً لآلائه سابقها ولاحقها. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم. ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أقله الجنة. والاستثناء من الإنسان، لأن المراد به الجنس فإذا كان محلى باللام أفاد الاستغراق، ومَنْ حمله على الكافر لسبق ذكرهم جَعَل الاستثناءَ منقطعاً.

(١٢) ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به، ولا يلزم من توقع الشيء ـ لوجود ما يدعو إليه ـ وقوعُه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل عن الخيانة في الوحي والثقة في التبليغ ههنا. ﴿ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ وعارض لك أحياناً ضيق صدرك بأن تتلوه عليهم مخافة ﴿ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ ينفقه في

(١) وفي التعبير عن العذاب بالموصول «ما» تهويل لمكانه وإشعار بعلية ما ورد في حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته.
والتعبير بالماضي «حاق» للدلالة على تحقق الوقوع لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفيه من الدلالة على علو شأن المخبِر وتقرير وقوع المخبَر به.

الاستبعاع كالملوك. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه، وقيل الضمير في به مبهَم يفسره أن يقولوا. ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك، ولا عليك ردّوا أو اقترحوا، فما بالك يضيق به صدرك. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

(١٣) (١٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أم منقطعة، والهاء لما يوحىٰ. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ في البيان وحسن النظم، تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عَجَزوا عنها سهّل الأمر عليهم وتحداهم بسورة، وتوحيد المَثَلِ باعتبار كل واحدة. ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ مختلَقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر لتعلمكم القصص والأشعار وتعوّدكم القريض والنظم. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفترى ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه[1]، وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأن المؤمنين كانوا أيضاً يتحدوْنهم وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، وللتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه. ﴿وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا إله إلا الله لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقه بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذا تحقق عندكم إعجازُه مطلقاً، ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم أي فإن لم يستجيبوا لكم إلى المظاهرة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعاوضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيهِ على قيام الموجب وزوال العذر.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بإحسانه وبره. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد. وقرىء يُوَفِّ بالياء أي يوف الله، وتُوَفَّ على البناء للمفعول، ونُوفِ بالتخفيف والرفع لأن الشرط ماض كقوله:

---

(١) وعبر عنه بالاستجابة إيماء إلى أنه عليه السلام على كمال أمنٍ من أمره، كأن أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه (س٤/ ١٩٢).

وإنْ أتَـاهُ كَـريـمٌ يَـومَ مَسْغَبَـةٍ　　يقُـولُ لاَ غَـائِـبٌ مَـالـي وَلاَ حَـرَمُ

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء، وقيل في المنافقين، وقيل في الكفرة وغرضهم وبرّهم[1].

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ لأنه لم يبقَ لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدةُ في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص، ويجوز تعليق الظرف بصنعوا على أن الضمير للدنيا. ﴿وَبَٰطِلٞ﴾ في نفسه. ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها. وقرىء باطلاً على أنه مفعول يعملون وما إبهامية أو في معنى المصدر كقوله:

ولاَ خَـارِجـاً مـنْ فـيَّ زُور كَـلاَمِ　　... ... ...

وبَطَلَ على الفعل[2]

(١٧) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ برهان من الله يدله على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، والهمزة لإنكار أن يعقب مَنْ هذا شأنُه هؤلاء المقصِرين هممَهم وأفكارهم على الدنيا وأن يقارب بينهم في المنزلة، وهو الذي أغنى عن ذكر الخبر وتقديرُه أفمن كان على بينة كمن كان يريد الحياة الدنيا، وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص. وقيل المراد به النبي ﷺ، وقيل مؤمنو أهل الكتاب. ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل. ﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن. ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ ومن قبل القرآن. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يعني التوراة فإنها أيضاً تتلوه في التصديق، أو البينة هو القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل، أو لسان الرسول ﷺ على أن الضمير له أو من التلو والشاهد مَلَك يحفظه. والضمير في يتلوه إما لمَنْ أو للبينة باعتبار المعنى ومِنْ قبله كتاب موسى جملة مبتدأة. وقرىء كتابَ بالنصب عطفاً على الضمير في يتلوه أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على أنـه حـق كقـولـه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[3] ويقـرأ مـن قبـل القـرآن

(١) وعبر عن ذلك بالبخس الذي هو نقص الحق ـ مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه ـ كما عبر عن إعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق ـ مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك ـ بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم (س٤/١٩٣).

(٢) عطف على (وقرىء باطلاً...) أي وقرىء بطل على الفعل.

(٣) الأحقاف: «١٠».

التوراة[١]. ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين. ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزّل عليهم لأنه الوصلة إلى الفوز بخير الدارين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومَنْ تحزب معهم على رسول الله ﷺ. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ يَردها لا محالة. ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من الموعد، أو القرآن. وقرىء مُرْيَة بالضم. وهما الشك. ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

(١٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كأن أسنَدَ إليه ما لم ينزله، أو نفى عنه ما أنزله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الكاذبون. ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقف بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم[٢]. ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم، وهو جمع شاهد كأصحاب أو شهيد كأشراف جمع شريف. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ لظلمهم بالكذب على الله.

(١٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والحال أنهم كافرون بالآخرة، وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونهم من العقاب ولكنه أخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم[٣]. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ استئناف. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضَعَّف بالتشديد. ﴿مَا لتصامهم عن الحق وبغضهم له. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله، وكأنه العلة لمضاعفة العذاب. وقيل هو بيان ما نفاه مِنْ ولاية الآلهة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فإن ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراض.

(٢١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى. . ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

---

(١) وقدم في الذكر المؤخر في النزول ـ أي قدم القرآن ـ لكونه وصفاً لازماً له غير مفارق عنه، ولعراقته في وصف التلو (س٤/ ١٩٥).

(٢) عبر عن عرض أعمالهم بوجه أبلغ، فإن عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته (س٤/ ١٩٦).

(٣) وجمع الأولياء باعتبار أفراد الكفرة أو باعتبار ما كانوا يدعون من دون الله تعالى (س٤/ ١٩٧).

﴿يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة.

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ
ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، مِنَ الخبْت وهو الأرض المطمئنة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون.

(٢٤) ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن. ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبِّيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة كقوله:

فَالآيِبِ الصَّابِحِ فَالغَانِمِ

وهذا من باب اللفّ والطباق. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هل يستوي الفريقان. ﴿مَثَلًا﴾ أي تمثيلاً أو صفة أو حالاً. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها.

(٢٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ﴾ بأني لكم. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالكسر على إرادة القول. ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

(٢٦) ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدل من أني لكم، أو مفعول مبين، ويجوز أن تكون أنْ مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم، وهو في الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جَدّ جِدُّه ونهارُه صائم للمبالغة.

(٢٧) ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة. ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أخساؤنا جمع أرذل فإنه بالغلبة صار مثل الاسم كالأكبر، أو أرذل جمع رذل. ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ظاهر الرأي من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها. وقرأ أبو عمرو بالهمزة. وانتصابُه بالظرف على حذف المضاف أي: وقتَ حدوث بادي الرأي، والعامل فيه اتبعك. وإنما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم

فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظ بها أشرف عندهم والمحروم منها أرذل. ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ لك ولمتبعيك. ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ إياك في دعوى النبوة وإياهم في دعوى العلم بصدقك فغلّب المخاطب على الغائبين.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ
أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ حجة شاهدة بصحة دعواي. ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء البينة أو النبوة. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم فلم تَهْدِكم. وتوحيد الضمير لأن البينة في نفسها هي الرحمة، أو لأن خفاءها يوجب خفاء النبوة، أو على تقدير فعميت بعد البينة وحذفها للاختصار، أو لأنه لكل واحدة منهما. وقرأ حمزة والكسائي وحفص فعُمِّيت أي أخفيت[1]، وقرىء فَعَمَّاها على أن الفعل لله. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنكرهكم على الاهتداء بها. ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ لا تختارونها ولا تتأملون فيها، وحيث اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعاً وقدم الأعرف منهما جاز في الثاني الفصل والوصل.

(٢٩) ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، وهو وإن لم يذكر فمعلوم مما ذُكر. ﴿مَالًا﴾ جُعْلاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه المأمول منه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم. ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمون طاردهم عنده، أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه فكيف أطردُهم؟[2] ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بلقاء ربكم، أو بأقدارهم، أو في التماس طردهم، أو تتسفهون عليهم بأن تَدْعُوهم أراذل.

(٣٠) ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ بدفع انتقامه. ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لتعرفوا أن التماس طردهم وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.

(٣١) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ رزقُه وأمواله حتى جحدتم فضلي. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ عطف على عندي خزائن الله، أي: ولا أقول لكم أنا أعلم الغيب حتى تكذبوني استبعاداً أو حتى أعلم أن هؤلاء اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب، وعلى الثاني يجوز عطفه على أقول. ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا. ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أقول في شأن من

---

(١) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «فَعَمِيَتْ».

(٢) والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم (س٤/٢٠٢).

استرذلتموهم لفقرهم. ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فإن ما أعده الله لهم في الآخرة خير مما آتاكم في الدنيا. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء به افتعال من زرى عليه إذا عابه، قلبت تاؤه دالاً لتجانس الراء في الجهر، وإسناده إلى الأعين للمبالغة والتنبيهِ على أنهم استرذلوهم بادي الرؤية من غير رويّة بما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة منالهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم.

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم
بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا
تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ خاصمتنا. ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ فأطلته أو أتيت بأنواعه. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد، فإن مناظرتك لا تؤثر فينا.

(٣٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ شرط ودليل جواب، والجملة دليل جواب قوله: ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وتقديرُ الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردتُ أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي[(١)]، ولذلك تقول لو قال الرجل أنتِ طالق إن دخلتِ الدار إن كلمت زيداً فدخلت ثم كلمت لم تطلق، وهو جواب لما أوهموا من جداله كلام بلا طائل. وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده محال. وقيل أن يغويكم أن يهلككم، مِنْ غَوِيَ الفصيلُ غوًى إذا بَشِمَ[(٢)] فهلك. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ هو خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ وبالُه. وقرىء أَجْرَامي على الجمع. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ.

---

(١) وتقييد عدم نفع النصح بإرادته ـ مع أنه محقق لا محالة ـ للإيذان بأن ذلك النصح منه مقارن للإرادة، وللاهتمام به، ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ما وقع بإزائه من إرادته تعالى لإغوائهم. وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه ـ حيث لم يقل إن كان الله يغويكم ـ مبالغة في بيان غلبة جنابه عز وعلا، حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك؟.
وزيادة «كان» للإشعار بتقدم إرادته تعالى زماناً كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها (س٤/ ٢٠٥).

(٢) بَشِمَ إذا أُتخِم من كثرة الأكل (المصباح المنير مادة بشم).

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ
ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ
مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ
زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ فلا تحزن ولا تتأسف. ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أقنطه الله تعالى من إيمانهم ونهاه أن يغتمّ بما فعلوه من التكذيب والإيذاء.

(٣٧) ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ملتبساً بأعيننا، عبّر بكثرة آلة الحس الذي يُحفَظ به الشيء ويراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل. ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك كيف تصنعها. ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعُني باستدفاع العذاب عنهم. ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه.

(٣٨) ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ حكاية حال ماضية[1]. ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برّيّة بعيدة من الماء أوان عِزَّته، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً. ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرَق في الآخرة. وقيل المراد بالسخرية الاستجهال[2].

(٣٩) ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ يعني به إياهم وبالعذابِ الغرقَ. ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ وينزل عليه، أو يحل عليه حلول الدين الذي لا انفكاك عنه. ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائم وهو عذاب النار[3].

(٤٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ غاية لقوله «ويصنع الفلك» وما بينهما حال من الضمير فيه، أو حتى هي التي يُبتدأ بعدها الكلام. ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقِدْر تفور. والتنورُ تَنُورُ الخبز ابتدأ منه النبوع على خرق العادة، وكان في الكوفة في موضع مسجدها أو في الهند أو بعين وردة من أرض الجزيرة، وقيل التنور وجه الأرض أو أشرف موضع فيها. ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا ﴾ في السفينة. ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها. ﴿ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ذكراً وأنثى. هذا على قراءة حفص، والباقون أضافوا[4] على معنى احمل اثنين من كل صنفِ ذكرٍ وصنف أنثى[5]. ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطف على زوجين

---

(١) لاستحضار صورتها العجيبة.

(٢) أو أطلق السخرية عليه للمشاكلة (س٤/٢٠٧).

(٣) ووصف العذاب بالإخزاء لما في الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزي والعار عادة. والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة في التهديد. وتخصيصُه بالمؤجل وإيراد الأول بالإتيان في غاية الجزالة (س٤/٢٠٧).

(٤) أي قراءة حفص «كلٍّ» بالتنوين، وقراءة الباقين بالإضافة «من كلِّ زوجين».

(٥) قدم حمل كل زوجين على حمل الأهل وسائر المؤمنين لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج.. أما البشر فإنما يدخلون الفلك باختيارهم فيخف فيه معنى الحمل، أو لأنها =

أو اثنين، والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنَه كنعان وأمه وَاعِلة فإنهما كانا كافرين. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ والمؤمنين من غيرهم[1]. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام اتخذ السفينة في سنتين من الساج وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسُمْكها ثلاثين، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في أسفلها الدواب والوحش وفي أوسطها الإنس وفي أعلاها الطير[2].

۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾

(٤١) ﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أي صيروا فيها، وجَعَلَ ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ متصل باركبوا حالٌ من الواو أي اركبوا فيها مسمّين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أن المَجْرى والمَرْسى للوقت أو المكان أو المصدر، والمضاف محذوف كقولهم: آتيك خفوق النجم، وانتصابُهما بما قدرناه حالاً، ويجوز رفعهما ببسم الله على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ وخبر، أي إجراؤها بسم الله على أن بسم الله خبر أو صلة والخبر محذوف وهي إما جملة مقتضية لا تعلق لها بما قبلها أو حال مقدرة من الواو أو الهاء. وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست. ويجوز أن يكون الاسمُ مُقْحماً كقوله: ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية حفص مجراها بالفتح من جرى[3]، وقرىء مَرْسَاها أيضاً من رسا وكلاهما يحتمل الثلاثة، ومُجْرِيها ومُرْسِيها بلفظ الفاعل صفتين لله. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لفَرَطاتكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

(٤٢) ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا أي فركِبوا مسمّين وهي تجري وهم فيها. ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ في موج من الطوفان، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه كلُّ موْجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسةَ عشرَ ذراعاً وإن صح فلعل ذلك قبل التطبيق. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان. وقرىء ابنها وابْنَهَ بحذف الألف على أن الضمير لامرأته، وكان

= تحمل بواسطة البشر (س٤/٢٠٨).

(١) وإيثار صيغة الإفراد في «مَنْ آمن» محافظة على لفظ مَنْ للإيذان بقلتهم (س٤/٢٠٨).

(٢) وتعيين نوع السفينة وشكلها من الإسرائيليات التي أعرض القرآن الكريم عن ذكرها لعدم الفائدة في ذلك.

(٣) وقراءتهم المذكورة بفتح الميم وكسر الراء على الإمالة. أما الباقون فقراءتهم مثلها إلا أنها بضم الميم (انظر المبسوط لابن مهران ص٢٠٤).
وقد أثبت البيضاوي الأصل بالألف «مجراها» وينبغي كتابتها بما يدل على الإمالة «مَجرِيٰها».

ربيبَهُ. وقيل كان لغير رشده[١] لقوله تعالى: ﴿فخانتاهما﴾ وهو خطأ إذ الأنبياء عصمت من ذلك، والمراد بالخيانة الخيانةُ في الدين، وقرىء ابناه على النَّدْبة ولكونها حكايةً سُوِّغَ حذفُ الحرف.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه، مَفْعِل للمكان مِنْ عزله عنه إذا أبعده.

﴿يَبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ في السفينة، والجمهور كسروا الياء ليدل على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن، غير ابن كثير فإنه وقف عليها في لقمان[٢] في الموضع الأول باتفاق الرواة وفي الثالث في رواية قنبل، وعاصم فإنه فتح ههنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع، وقد أدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص[٣] لتقاربهما.

﴿وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ في الدين والانعزال.

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

(٤٣) ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أن يغرقني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ إلاالراحمُ وهو الله تعالى، أو الإمكان مِنْ رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم مُعْتَصَم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصَم المؤمنين وهو السفينة. وقيل لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٤] وقيل الاستثناء منقطع أي لكن من رحمه الله يعصمه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ فصار من المهلكين بالماء[٥].

(٤٤) ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ نوديا بما ينادىٰ به أولو العلم وأُمرا بما يؤمرون به تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمرُ المنقادَ لحكمه المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه، والبلعُ النشف، والإقلاع الإمساك. ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ نقص. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأُنجز ما وُعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. ﴿وَاسْتَوَتْ﴾

---

(١) أي ولداً من سفاح. وقوله «لغير رِشدة» تكنية موفقة واختيار لأدب اللفظ مع مقام النبوة، فلم يصرح بما قيل من الزنى وإن كان باطلاً، بل وإن كان في حق كافرة لمكان زوجها منها ﷺ.

(٢) لقمان الموضع الأول الآية «١٣» والموضع الثالث الآية «١٧».

(٣) هو حفص بن سليمان بن المغيرة بن أبي داود الأسدي الكوفي، ولد سنة تسعين من الهجرة، وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءة عاصم، تردد بين بغداد ومكة وهو يقرىء الناس القرآن الكريم.
قال عنه الذهبي: هو في القراءة ثقة ثبت ضابط.
توفي سنة ثمانين ومائة هجرية على الصحيح.
[غاية النهاية (١/ ٢٥٤) والأعلام للزركلي (٢/ ٢٦٤)].

(٤) الحاقة: «٢١».

(٥) وفي إيراد «كان» دون صار مبالغة في كونه منهم (س٤/ ٢١١).

واستقرت السفينة. ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل بالشام، وقيل بآمل. روي[1] أنه ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار ذلك سنّة. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هلاكاً لهم، يقال بَعُد بُعْداً وبَعَداً إذا أَبْعَدَ بُعْداً بعيداً بحيث لا يُرجى عوْده، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء. والآيةُ في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كُنْه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ وأراد نداءه بدليل عطف قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فإنه النداء. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه الخُلْف، وقد وعدتَ أن تنجيَ أهلي فما حالُه أو فما له لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه. ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحِكْمة كالدارع من الدِّرْع.

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر، وأشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء[2] تصف ناقة:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكَرَتْ ... فإنّما هي إقبالٌ وإدْبارٌ

ثم بدّل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب إنه عَمِلَ غيرَ صالح، أي عَمِلَ عملاً غير صالح. ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما لا تعلم أصواب هو أم ليس كذلك. وإنما سمّىٰ نداءه سؤالاً لتضمن ذكْر الوعد بنجاة أهله استنجازَه في شأن ولده، أو استفسارَ المانع للإنجاز في حقه، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله:

---

(١) إن صيام يوم عاشوراء سنة للحديث الذي أخرجه البخاري (٤/٢٤٤ رقم ٢٠٠٤) ومسلم (٢/٧٩٥ ـ ٧٩٦ رقم ١١٣٠) وأبو داود (٢/٨١٨ رقم ٢٤٤٤) وابن ماجة (١/٥٥٢ رقم ١٧٣٤) عن عبدالله بن عباس. قال: قَدِمَ النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراءَ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالح، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامَهُ وأمَرَ بصيامه».

(٢) هي الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عصية بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم السلمية الشاعرة المشهورة. اسمها تماضر. قال أبو عمر قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم.
وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.
[الإصابة (٤/٢٨٧ ـ ٢٨٩ رقم ٣٥٥)].

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لأن استثناءَ من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتبَه عليه الأمر. وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون الشديدة[١]، وكذلك نافع وابن عامر غير أنهما كسرا النون على أن أصله تسألنَني فحُذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكُسرت الشديدة للياء ثم حذفت اكتفاء بالكسرة[٢]، وعن نافع برواية رويس إثباتها في الوصل[٣].

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ فيما يستقبل[٤]. ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ ما لا علم لي بصحته. ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال. ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بالتوبة والتفضل عليّ. ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أعمالاً.

(٤٨) ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ انزل من السفينة مسلَّماً من المكاره من جهتنا، أو مسلَّماً عليك. ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ ومباركاً عليك أو زيادات في نسلك حتى تصير آدماً ثانياً. وقرىء اهْبُط - بالضم - وبرَكَة على التوحيد، وهو الخير النامي. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ وعلى أمم هم الذين معك، سُمُّوا أمماً لتحزبهم أو لتشعب الأمم منهم، أو وعلى أمم ناشئة ممن معك، والمراد بهم المؤمنون لقوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا. ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة، والمراد بهم الكفار من ذرية مَنْ معه. وقيل هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذابُ ما نزل بهم.

(٤٩) ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي بعضها. ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ خبر ثان. والضمير لها أي موحاة إليك، أو حال من الأنباء، أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به، أو حال من الهاء في نوحيها[٥]. ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ خبر آخر أي

---

(١) أي قرأ «فلا تسئَلَنَّ».
(٢) أي «فلا تَسْئَلَنِّ».
(٣) أي «فلا تَسْئَلَنِّي».
(٤) وإنما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كونه ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك (س٤/ ٢١٣).
(٥) والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة (س٤/ ٢١٥).

مجهولة عندك وعند قومك من قَبْل إيحائنا إليك، أو حال من الهاء في نوحيها أو الكاف في إليك أي: جاهلاً أنت وقومك بها. وفي ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لمّا لم يسمعوها فكيف بواحد منهم؟. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح. ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)
يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)
قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)

(٥٠) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطف على قوله: «نوحاً إلى قومه» وهوداً عطفُ بيان. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وقرىء بالجرّ حملاً على المجرور وحده. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

(٥١) ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خاطب كلُّ رسول به قومَه إزاحةً للتهمة وتمحيضاً للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع[1]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ.

(٥٢) ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ اطلُبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليها بالتوبة، وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرّ. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ويضاعف قوتكم، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم.

(٥٣) ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم. ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك، حال من الضمير في تاركي. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق.

---

(١) وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل صلته فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضاً عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر (س٤/٢١٦).

إن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

(٥٤) ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ ﴾ ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، مِنْ عراه يعروه إذا أصابه. ﴿ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ بجنون لسبِّك إياها وصدك عنها ومن ذلك تَهْذي وتتكلم بالخرافات، والجملة مقول القول، وإلاّ لغوٌ لأن الاستثناء مفرغ. ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(٥٥) ﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهد اللهَ تعالىٰ على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمرهم بأن يَشْهدوا عليه استهانةً بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنْظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عَجَزوا عن آخرهم ـ وهم الأقوياء الأشداء ـ أن يضروه لم يبقَ لهم شبهةٌ أنّ آلهتهم ـ التي هي جماد لا يضر ولا ينفع ـ لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجمَّ الغفيرَ من الجبابرة الفُتَّاكِ العِطَاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقته بالله، وتثبُّطِهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه، ولذلك عقبه بقوله:

(٥٦) ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ تقريراً له، والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلاءته وهو مالكي ومالكُكُم لا يحيق بي ما لم يُرِده ولا يقدرون على ما لم يُقدِّره[1]، ثم برهن عليه بقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أي إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها، والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي إنه على الحق والعدل لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم.

(٥٧) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ فإن تتولوا. ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ فقد أديت ما عليّ من الإبلاغ وإلزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم. ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تتولوا يعذرني ربي ويستخلِفْ. ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ ﴾ لتولّيكم. ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الضرر. ومَنْ جَزَمَ يستخلفْ أسقط النون منه. ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستوْلٍ عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

(٥٨) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾[2] عذابُنا أو أمرنا العذاب. ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ وكانوا

---

(١) وجيء بلفظ الماضي «توكلت» لكونه أدل على الإنشاء المناسب للمقام (س٤/٢١٨).

(٢) والتعبير عن العذاب بلفظ الأمر مع إضافة إلى ضميره تعالى وعن نزوله بالمجيء من التفخيم والتهويل ما لا يخفى (س٤/٢١٩).

أربعة آلاف. ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السَّمُوم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرُج من أدبارهم فتقطع أعضاءهم. أو المراد به تنجيتَهم من عذاب الآخرة أيضاً، والتعريض بأن المُهْلَكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ
مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

(٥٩) ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أنَّثَ اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم. ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها. ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومَنْ عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم أمروا بطاعة كل رسول. ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يعني كبراءهم الطاغين. وعنيد من عَنَدَ عَنَداً وعنْداً وعُنُوداً إذا طغَىٰ، والمعنى عصوا مَنْ دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يُرْديهم.

(٦٠) ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكُبُّهم في العذاب[1]. ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ جحدوه، أو كفروا نعمه، أو كفروا به فحذف الجار. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم، وإنما كرر «ألا» وأعاد ذكرهم تفظيعاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم. ﴿ قَوْمِ هُودٍ ﴾ عطفُ بيان لعاد. وفائدتُه تمييزُهم عن عاد الثانية عادِ إرم، والإيماءُ إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

(٦١) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ هو كونكم منها لا غيره فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسلَه منها من التراب. ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ عمَّركم فيها واستبقاكم من العُمُر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل هو من العُمْرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمِّرين ديارَكم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم. ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ قريب الرحمة. ﴿ مُّجِيبٌ ﴾ لداعيه.

(٦٢) ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشَد والسداد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور، أو أن توافقنا في الدين فلمّا سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك.

---

(١) قوله «ويوم القيامة» أي وأتبعوا يوم القيامة لعنة، وهي عذاب النار، وحذفت لدلالة الأولى عليها وللإيذان باستقلالها عنها واختلافهما (س٤/ ٢٢٠).

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ على حكاية الحال الماضية. ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِع في الريبة مِنْ أرابه، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي من أَرَابَ في الأمر.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

(٦٣) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ بيانٍ وبصيرة، وحرف الشك باعتبار المخاطبين. ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوّة. ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذابه[١] ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ إذنْ باستتباعكم إياي. ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تُخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أَنسبكم إلى الخُسران.

(٦٤) ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ انتصب آية على الحال وعاملُها معنى الإشارة، ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها[٢]. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾[٣] تَرْعَ نباتها وتشرب ماءها. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يتراخىٰ عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام[٤].

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾ عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا. ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة ثم تهلكون. ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه فاتسع فيه بإجرائه مجرى المفعول به كقوله:

ويَوْمَ شَهِدْنَاهُ سُلِيماً وَعَامِراً

أو غير مكذوب على المجاز وكأن الواعد قال له أَفِي بكَ فإنْ وَفَىٰ به صدقه وإلا كذبه، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول.

(٦٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكُهم بالصيحة أو ذُلّهم وفضيحتهم يوم القيامة. وعن نافع يومَئِذٍ ـ بالفتح ـ على

---

(١) والعدول إلى إظهار لفظ الجلالة للتهويل (س٤/ ٢٢١).
(٢) وإضافة الناقة إليه تعالى للتشريف وللتنبيه على مفارقتها لما يجانسها من حيث الخلقة (س٤/ ٢٢٢).
(٣) وإضافة الأرض إليه تعالى لتربية استحقاقها ذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها (س٤/ ٢٢٢).
(٤) وتنكير السوء لتعميمه أي لا تمسوها بأي أمر يسوؤها.

اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفي المعارج في قوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء والغالب عليه.

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا
كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ
أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا
أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

(٦٧) ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قد سبق تفسير ذلك في سورة الأعراف[2].

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نوّنه أبو بكر ههنا وفي النجم[3]، والكسائي في جميع القرآن، وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ذهاباً إلى الحي أو الأب الأكبر.

(٦٩) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الملائكة، قيل: كانوا تسعة وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ ببشارة الولد، وقيل بهلاك قوم لوط. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ سلمنا عليك سلاماً، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي أمْرُكم أو جوابي سلامٌ أو وعليكم سلام، رَفَعَه إجابةً بأحسن من تحيتهم[4]. وقرأ حمزة والكسائي سِلْم وكذلك في الذاريات[5] وهما لغتان كحِرْم وحَرَام. وقيل المراد به الصلح. ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما أبطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخر عنه، والجارّ في أَنْ مقدَّر أو محذوف. والحنيذ المشوي بالرَّضَف. وقيل الذي يقطر وَدَكُه من حنذت الفرس إذا عرّقْتُه بالجُلاَل لقوله: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[6].

(٧٠) ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا يمدون إليه أيديهم. ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أنكر ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً، ونكِرَ وأَنْكَر واستَنْكَر بمعنى. والإيجاسُ الإدراك، وقيل الإضمار ﴿قَالُوا﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف. ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ إنا ملائكة مرسَلَة إليهم بالعذاب، وإنما لم نَمُدَّ إليه أيدينا لأنا لا نأكل.

---

(١) المعارج: «١١».
(٢) الأعراف: «٧٨» عند قوله «فأخذتهم الرجفة» ولعل الرجفة بعد الصيحة. وإظهار لفظ «ظلموا» للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة نزول العذاب بهم (س٤/ ٢٢٣).
(٣) النجم: «٥١».
(٤) أي كان رده بأحسن من تحيتهم لرده بسلام مقدر بجملة اسمية أما سلامهم مقدر بجملة فعلية والاسمية أبلغ لأنها تفيد الدوام والاستمرار بينما الفعلية تفيد الحدوث.
(٥) الذاريات: «٢٥».
(٦) الذاريات: «٢٦».

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾

(٧١) ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة. ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمُم إليك لوطاً فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم. وقيل فضحكت فحاضت قال الشاعر:

وَعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاحِكاً فِي لُبَابَةٍ وَلَمْ يَعْدُ حُقّاً ثَدْيُهَا أَنْ تَحَلَّمَا

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صَمْغُها. وقرىء بفتح الحاء. ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ نصبَه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره: ووهبناها من وراء إسحاق يعقوبَ. وقيل إنه معطوف على موضع بإسحاق أو على لفظ إسحاق وفَتْحَتُه للجرّ فإنه غير مصروف، ورُدّ للفصل بينه وبين ما عُطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ.

وخبرُه الظرفُ، أي ويعقوب مولود من بعده. وقيل الوراء ولد الولد رلعله سُمي به لأنه بعد الولد، وعلى هذا تكون إضافته إلى إسحاق ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه بل من حيث إنه وراء إبراهيم من جهته، وفيه نظر. والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيىٰ، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن وُلِدا فسُمِّيا به وتوجيهُ البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد.

(٧٢) ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ يا عجباً، وأصله في الشر فأُطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل. ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين. ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾ زوجي، وأصلُه القائم بالأمر. ﴿شَيۡخًاۖ﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ محذوفٍ أي هو شيخ، أو خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبر وبَعْلي بدل. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ يعني الولد من هَرِمَيْن، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك:

(٧٣) ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ مُنْكِرين عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصُهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يَستغربَه عاقل فضلاً عمن نشأت وشابَت في ملاحظة الآيات، وأهلُ البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة[1]. ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ فاعلٌ ما يستوجب به الحمد. ﴿مَّجِيدٞ﴾ كثير الخير والإحسان.

---

(١) وإظهار لفظ الجلالة في «رحمة الله» لزيادة تشريفها.
وقوله «عليكم...» حيث عدل إلى خطاب جمع المذكر لتعميم حكمه لإبراهيم عليه السلام (س٤/٢٢٦).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ
أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

(٧٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم. ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بدلَ الروع. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم ومجادلتُه إياهم قولُه: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾[1]. وهو إما جواب لما جيء به مضارعاً على حكاية الحال، أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترأ على خطابنا أو شَرَعَ في جدالنا، أو متعلق به أقيم مقامَه مثل أخَذَ أو أقبل يجادلنا.

(٧٥) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه. ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس. ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله. والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرط ترحمه.

(٧٦) ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ على إرادة القول، أي قالت الملائكة يا إبراهيم. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قَدَرُه بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم، وهو أعلم بحالهم. ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

(٧٧) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئُهم لأنهم جاؤوه في صورة غلمان، فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومُه فيعجز عن مدافعتهم. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بمكانهم صدرُه، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، مِنْ عَصَبَه إذا شدّه.

(٧٨) ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه كأنهم يُدْفَعُون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي ومن قبل ذلك الوقت. ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يُهرعون لها مجاهرين. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فدى بهن أضيافَه كرماً وحَمِيّة، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يُجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارىء، أو مبالغةً في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرُقّوا له. وقيل المراد بالبنات نساؤهم فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقةُ والتربية، وفي حرف ابن مسعود ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ وهو أب لهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً وأقل فحشاً كقوله: الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه. وقرىء أَطْهَرَ بالنصب على الحال، على أن هنّ خبر بناتي كقولك: هذا أخي هو الأفضل فإنه لا يقع بين الحال وصاحبها. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو

---

(١) العنكبوت: «٣٢».

بإيثارهن عليهم. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزاية بمعنى الحياء. ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ في شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه. ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح.

قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذُّكْران.

(٨٠) ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو قويتُ بنفسي على دفعكم. ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قوي أتمنع به عنكم، شَبَّهه بركن الجبل في شدته. وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد»[١]. وقرىء أو آوِيَ بالنصب بإضمار أنْ كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو أَوْياً، وجواب لو محذوف تقديره لدفعتكم. روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب[٢].

(٨١) ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا فهوّن عليك ودعنا وإياهم، فخلاّهم أن يدخلوا، فضرب جبريلُ عليه السلام بجناحه وجوهَهم فطمس أعينهم وأعماهم، فخرجوا يقولون النجاءَ النجاء فإن في بيت لوط سحرة. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقِطْع من الإسراء. وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من السُّرَىٰ[٣]. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفة منه. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه، والنهي في اللفظ لأحد وفي المعنى للوط. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه أنه قرىء فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فإنه إنْ فُسر بالنظر إلى الوراء في الذهاب ناقضَ ذلك قراءةَ ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البدل من أحد، ولا يجوز حمل القراءتين على الروايتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب الْتفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأَوْلى جعلُ الاستثناء في

---

(١) ● أخرجه البخاري (٦/ ٤١٥ رقم ٣٣٧٥) ومسلم (٤/ ١٨٤٠ رقم ١٥٣/ ٢٣٧٠) من طريق الأعرج عن أبي هريرة.
● وأخرجه البخاري (٦/ ٤١٨ رقم ٣٣٨٧) من طريق سعيد بن المسيب وأبي عبيدة عن أبي هريرة.
● وأخرجه البخاري (٦/ ٤١١ رقم ٣٣٧٢) ومسلم (١/ ١٣٣ رقم ٢٣٨).
من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٢/ ١٠٨) بدون راوٍ ولا سند.
وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٠) عن ابن عباس.

(٣) أي بهمزة الوصل «فأَسْرِ» والسُّرى: السير ليلاً.

القراءتين من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مثلَه في قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[(١)] ولا يبعُد أن يكون أكثرُ القرّاء على غير الأفصح، ولا يلزم من ذلك أمْرُها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ كأنه علة الأمر بالإسراء. ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

(٨٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به، ويؤيده الأصل، وجعلُ التعذيب مسبَّباً عنه بقوله: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنه جوابُ لِمَا، وكان حقُّه جعلوا عاليها سافلها أي الملائكة المأمورون به فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر، فإنه روي[(٢)] أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن أو على شذاذها[(٣)]. ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجّر لقوله: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[(٤)] وأصله سَنْك كلّ فعُرِّب. وقيل إنه من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته، والمعنى من مثل الشيء المرسل أو من مثل العطية في الإدرار أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به، وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأُبدلت نونه لاماً. ﴿مَّنضُودٍ﴾ نَضَد مُعَدّاً لعذابهم، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار، أو نضد بعضه على بعض وألصق به.

(٨٣) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعَلّمة للعذاب. وقيل معلمة ببياض وحمرةً. أو بسِيما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسم من يُرمىٰ بها. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه. ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطَر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنه سأل جبريل عليه السلام فقال: يعني ظالمي أمتك، ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة»[(٥)]. وقيل الضمير للقُرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

---

(١) النساء: «٦٦».
(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ج١٢/ ٨٠ ـ ٨١) عن سعيد.
(٣) وإسناد الجعل والإمطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبّب لتفخيم الأمر وتهويل الخطب (س٤/ ٢٣٠).
(٤) الذاريات: «٣٣».
(٥) ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص٨٧ رقم ١٩٣).

(٨٤) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو أهل مدين وهو بلد بناه فسُمِّي باسمه. ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً ـ فإنه ملاك الأمر ـ ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخلّ بحكمة التعاوض. ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقُّها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تُنقصوا حقوقَهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه. وهو في الجملة علّة للنهي. ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يشذ منه أحد منكم، وقيل عذاب مهلك من قوله: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾[1]، والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال. ووصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه.

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

(٨٥) ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها. ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإن الازدياد إيفاء، وهو مندوب غير مأمور به، وقد يكون محظوراً. ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره[2]، وكذا قوله: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فإن العثوّ يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل المراد بالبَخْس المَكْسُ كأخذ العشور في المعاملات، والعثو السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدةُ الحال إخراجُ ما يُقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام[3]. وقيل معناه ولا تعثوا في الأرض مفسدين في أمر دينكم ومصالح آخرتكم.

(٨٦) ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم. ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تجمعون بالتطفيف. ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباعِ الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم. وقيل البقية الطاعة كقوله: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾[4]. وقرىء تَقِيَّة الله بالتاء وهي تقواه التي تكف عن المعاصي.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظُكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيَكم عليها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أُعْذِرت حين أَنْذَرت، أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

---

(١) الكهف: «٤٢».

(٢) أو صرح بالنهي عن البخس بعد علمها مما تقدم اهتماماً بشأنه وترغيباً في إيفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها (س٤/ ٢٣١).

(٣) من خرق السفينة وقتل الغلام..

(٤) الكهف: «٤٦».

قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

(٨٧) ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام، أجابوا به آمِرَهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهكم بصلواته والإشعارِ بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تُواظب عليه. وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جَمَعُوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الإفراد، والمعنى: أصلاتُك تأمرك بتكليف أن نتركَ، فحُذِف المضاف لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ عطفٌ على ما، أي وأن نترك فعلنا ما نشاءُ في أموالنا. وقرىء بالتاء فيهما على أن العطف على أن نترك وهو جواب النهي عن التطفيفِ والأمرِ بالإيفاء. وقيل كان ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير فأرادوا به ذلك. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك، أو عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعادَه بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعيْن عن المبادرة إلى أمثال ذلك.

(٨٨) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة. ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهلْ يسع لي مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟. وهو اعتذار عما أَنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء، والضميرُ في منه لله أي من عنده وبإعانته بلا كدّ مني في تحصيله. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ أي وما أريد أن آتيَ ما أنهاكم عنه لأستبدّ به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته ولم أُعرض عنه فضلاً عن أن أَنْهىٰ عنه، يقال خالفتُ زيداً إلى كذا إذا قصدتُه وهو مولٍّ عنه وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ ما أريد إلا أن أُصلحَكم بأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما دمتُ أستطيع الإصلاح، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه. ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعيَ في كل ما يأتيه ويذره أحدَ حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها: حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس، وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه. وما مصدرية واقعة موقع الظرف، وقيل خبرية بدل من الإصلاح أي المقدار الذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته فحُذِف المضاف. ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصىٰ مراتب العلم بالمبدأ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل. وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله

تعالى، والاستعانةِ به في مجامع أمره، والإقبالِ عليه بشراشِره[١]، وحسمِ أطماع الكفار وإظهارِ الفراغ عنهم وعدمِ المبالاة بمعاداتهم وتهديدِهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾

(٨٩) ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ لا يكسبنكم. ﴿شِقَاقِيٓ﴾ معاداتي. ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرق. ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ من الريح. ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ من الرجفة. وأنْ بِصِلتها ثاني مفعولي جرم، فإنه يُعدى إلى واحد وإلى اثنين ككَسَبَ. وعن ابن كثير يُجْرِمنكم ـ بالضم ـ وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد، والأول أفصح فإن أَجْرَم أقل دَوَراناً على ألسنة الفصحاء. وقرىء مِثْلَ بالفتح لإضافته إلى المبنيّ كقوله:

لَمْ يُمْنَعِ الشُّرْبَ مِنهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ ... حمَـامَـةٌ فـي غُصُـون ذات أَوْقَـالِ

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ زماناً أو مكاناً فإنْ لم تعتبروا بمَنْ قبلهم فاعتبروا بهم[٢]، أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمَسَاوِي فلا يَبْعد عنكم ما أصابهم، وإفرادُ البعيد لأن المراد وما إهلاكُهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يُسَوّىٰ في أمثاله بين المذكر والمؤنث لأنها على زِنة المصادر كالصهيل والشهيق.

(٩٠) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ عما أنتم عليه. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ عظيم الرحمة للتائبين. ﴿وَدُودٞ﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغُ المودةَ بمَنْ يَوَدّه، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

(٩١) ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ ما نفهم. ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحُرْمة البخس وما ذكرتَ دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم. وقيل قالوا ذلك استهانةً بكلامه، أو لأنهم لم يُلقوا إليه أذهانهم لشدة نُفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ لا قوة لك فتمتنع منّا إن أردنا بك سوءاً، أو مَهِيناً لاعزّ لك. وقيل أعمى بلغة حِمْيَر، وهو مع عدم مناسبته يرده التقييد بالظرف، ومنع بعض المعتزلة استنباء الأعمى قياساً على القضاء والشهادة والفرقُ بَيِّن. ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ قومُك، وعزّتُهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة. ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ فتمنعنا عزتُك عن الرجم، وهذا ديْدن السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد، وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه، ولذلك:

---

(١) بشراشره أي بكُلّيّته.
(٢) ولم يصرح بذكر ما أصابهم للإيذان بأن ذلك مغْنٍ عن ذكْره لشهرته (س٤/ ٢٣٥).

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا
لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

(٩٢) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ ﴾ وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله فلا تُبقون علي لله وتُبقون عليّ لرهطي، وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب. وظِهرياً منسوب إلى الظَّهر، والكسرُ من تغييرات النَّسب. ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فلا يخفىٰ عليه شيء منها فيجازي عليها.

(٩٣) ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ سبق مثلُه في سورة الأنعام[١]. والفاء في فسوف تعلمون ثَمَّةَ للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سببٌ لذلك، وحذفُها ههنا لأنه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل. ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أوعدوه وكذبوه قال: سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم. وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم. ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ ﴾ وانتظروا ما أقول لكم. ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم، أو المراقب كالعشير، أو المرتقب كالرفيع.

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ إنما ذَكَرَه بالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذِكْرُ وعدٍ يجري مجرىٰ السبب له، بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذُكِرَ بعد الوعد وذلك قوله: ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[٢] وقوله ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ﴾[٣] فلذلك جاء بفاء السببية. ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا. ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ميتين، وأصل الجثوم اللزوم في المكان[٤].

(٩٥) ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ ﴾ كأن لم يقيموا فيها. ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ شبَّههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم . وقرىء

---

(١) الأنعام: «١٣٥».
(٢) هود: «٦٥».
(٣) هود: «٨١».
(٤) وقدم تنجيته عليه السلام على إهلاكهم اهتماماً بشأنها وإيذاناً بسبق رحمته تعالى على غضبه (س٤/ ٢٣٧).
(٥) والعدول عن الإضمار إلى الإظهار ـ أي أظهر لفظ مدين ـ ليكون أدل على طغيانهم الذي أداهم إلى هذه المرتبة، وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم (س٤/ ٢٣٨).

بَعُدَتْ بالضم على الأصل، فإن الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك، والبُعْد مصدر لهما والبَعَدُ مصدر المكسور.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾

(٩٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهو المعجزات القاهرة، أو العصا؛ وإفرادُها بالذكر لأنها أَبْهَرُها، ويجوز أن يراد بهما واحد أي: ولقد أرسلنا بالجامع بين كونِهِ آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياها، فإنّ أَبَانَ جاء لازماً ومتعدياً، والفرقُ بينهما أن الآية تعم الأَمَارة، والدليل القاطع والسلطان يُخَصُّ بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء.

(٩٧) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتّبعوا أمره بالكفر بموسى، أو فما تبعوا موسى الهادي إلى الحق المؤيَّد بالمعجزات القاهرة الباهرة واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي إلى ما لا يَخفى فساده على من له أدنى مُسْكَة من العقل لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم[1]. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ مرشد أو ذي رَشَد، وإنما هو غي محض وضلال صريح.

(٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال، يقال قَدِم بمعنى تقدم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه، ونَزَّل النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها مورداً، ثم قال: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بئس المورد الذي وردوه فإنه يُراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنارُ بالضدّ. والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن من كان هذه عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسيرٌ له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

(٩٩) ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا. ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يُلعَنون في الدنيا والآخرة[2]. ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بئس العون المعان أو العطاء المُعْطىٰ، وأصل الرِّفْد ما يضاف إلى غيره ليعمده. والمخصوص بالذم محذوف أي رِفْدُهم وهو اللعنةُ في الدارين.

(١٠٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النبأ. ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ المهلَكة. ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ مقصوص عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ من تلك القرىٰ باقٍ كالزرع القائم. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الأَثَر كالزرع المحصود.

---

(١) وتخصيص الملأ بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لكافة قومه وذلك لأصالتهم في الرأي وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور (س٤/٢٣٨).

(٢) واكتُفي ببيان حالهم الفظيع عن بيان حال فرعون، كأنه قيل: إذا كان هذا حالهم فكيف بمن كان سبباً في إغوائهم وإضلالهم؟ (س٤/٢٣٩).

والجملة مستأنفة، وقيل حال من الهاء في نقصه، وليس بصحيح إذ لا واوَ ولا ضمير.

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن عرّضوها له بارتكاب ما يوجبه. ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا قدِرت أن تدفع عنهم بل ضرّتهم. ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ هلاك أو تخسير.

(١٠٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾. وقرىء أَخَذَ رَبُّك بالفعل، وعلى هذا يكون محل الكاف النصبُ على المصدر. ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلها[1]. وقرىء إذْ، لأن المعنىٰ على المضي. ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ حال من القرى، وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها، وفائدتُها الإشعارُ بأنهم أُخِذُوا بظلمهم وإنذارُ كل ظالم ظلم نفسه أو غيره من وَخَامة العاقبة. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجوّ الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما نزل بالأمم الهالكة، أو فيما قصه الله تعالى من قصصهم. ﴿لَءَايَةً﴾ لعبرة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَعتبر به عظمتَه لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة، أو يَنزجر به عن موجباته لعلمه بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، فإن مَنْ أنكر الآخرة وأَحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار وجَعَل تلك الوقائع لأسباب فَلَكية اتفقت في تلك الأيام لا لذنوب المهْلَكين بها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة، دل عليه: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يُجمع له الناس. والتغييرُ للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالةَ، وأن الناس لا ينفكون عنه، فهو أبلغ من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾[2]. ومعنى الجمع له الجمعُ لما فيه من المحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله: في مَحفَلٍ مِنْ نَواصِي النَّاس مَشْهُود، أي كثير شاهدوه، ولو جُعِل اليومُ مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزِه فإن سائر الأيام كذلك.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية، على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل لا منتهاها فإنه غير معدود.

---

(١) وأسند الإهلاك إلى القرى للإشعار بسريان أثره إليها (س٤/ ٢٤٠).
(٢) التغابن: «٩».

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي الجزاء أو اليوم كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾[١] على أنَّ يومَ بمعنى حين، أو اللهُ عز وجل كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾[٢] ونحوه. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة يأت بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسر. ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة، وهو الناصب للظرف، ويحتمل نصبه بإضمار اذكر أو بالانتهاء المحذوف. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٣] وهذا في موقف، وقولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[٤] في موقف آخر، أو المأذون فيه هي الجوابات الحقة والممنوع عنه هي الأعذار الباطلة. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد. ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد. والضميرُ لأهل الموقف وإن لم يُذْكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، أو للناس[٥].

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفيرُ إخراج النفس والشهيقُ ردّه، واستعمالهما في أول النهيق وآخره، والمراد بهما الدلالةُ على شدة كربهم وغمهم وتشبيهُ حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير. وقرىء شُقُوا بالضم.

(١٠٧) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما ـ فإن النصوص دالة على تأبيد دوامهم وانقطاع دوامهما ـ بل التعبير عن التأبيد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم ولا من دوامه دوامهما إلا من قبيل المفهوم؛ لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفت أن المفهوم لا يقاومُ المنطوقَ. وقيل المراد سموات الآخرة وأرضُها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[٦] وإن أهل الآخرة لا بد لهم من مَظَلٍّ ومَقَلّ، وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يَعرف أكثرُ الخلق وجوده ودوامه ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فُسّاقُ الموحدين يخرجون منها، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأبيد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم

---

(١) يوسف: «١٠٧».
(٢) البقرة: «٢١٠».
(٣) النبأ: «٣٨».
(٤) المرسلات: «٣٥، ٣٦».
(٥) قدم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س٤/ ٢٤١).
(٦) إبراهيم: «٤٨».

منتفية عن قسيمه، لأن ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع وههنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القِسْمين، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين، أو لأن أهل النار يُنْقَلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه، أو من أصل الحكم والمستثنى زمانُ توقفهم في الموقف للحساب لأن ظاهره يقتضي أن يكونوا في النار حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقاً غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت. وقيل هو من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وقيل: «إلا» ههنا بمعنى سوّى كقولك على ألف إلا الألفان القديمان والمعنى سوّى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من غير اعتراض.

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

(١٠٨) ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبيهٌ على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع، ولأجله فُرِّق بين الثواب والعقاب بالتأبيد. وقرأ حمزة والكسائي وحفص سُعِدُوا على البناء للمفعول من سَعِدَه اللهُ بمعنى أسعده. وعطاءً نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء، أو الحال من الجنة[1].

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شك بعد ما أُنزل عليك من مآل أمر الناس. ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤدٍّ إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه يضر ولا ينفع. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ استئناف معناه تعليل النهي عن المِرْية أي هم وآباؤهم سواءٌ في الشرك، أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مِثْل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثلُه، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسبَّبات. ومعنى كما يعبد كما كان يعبد، فحُذف للدلالة مِنْ قَبْلُ عليه[2]. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه. ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية، فإنك تقول: وفيته حقه وتريد به وفاءَ بعضه ولو مجازاً.

---

(١) لم يذكر هنا أن لهم فيها بهجة وسروراً كما ذكر في أهل النار من أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً وذلك لأن المقام مقام تحذير وإنذار (س٤/ ٢٤٢).

(٢) والتعبير بصيغة المضارع في «يعبدون» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س٤/ ٢٤٣).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن
تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني كلمةَ الإنظار إلى يوم القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به عن المحق. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن كفار قومك. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوقِع في الريبة.

(١١١) ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ وإنَّ كلَّ المختلفين المؤمنين منهم والكافرين، والتنوين بدل من المضاف إليه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل[١]. ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ اللام الأولىٰ موطئة للقسم والثانية للتأكيد، أو بالعكس، وما مزيدة بينهما للفصل. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لمّا بالتشديد[٢]، على أن أصله لِمَنْ ما فقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاثُ ميمات فحُذفت أولاهن، والمعنى لِمَنَ الذين يوفينهم ربك جزاء أعمالهم. وقرىء لمّاً بالتنوين أي جميعاً كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾[٣]، ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾[٤] على أنّ إنْ نافية ولمّا بمعنى إلا، وقد قرىء به. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

(١١٢) ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لمّا بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامةِ مثلَ ما أمر بها وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالتوسّط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، والأعْمالِ من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أُنْزِل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «شيبتني هود»[٥]. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي تاب من الشرك والكفر وآمن

---

(١) أي بتخفيف «إنّ» فقرئت «إنْ» مع إعمالها بالنصب لاسمها «كلاً».

(٢) وكأن الأصل عنده قراءة من قرأ بتخفيف «لمّا».

(٣) الفجر: «١٩».

(٤) يٓس: «٣٢».

(٥) وهو حديث صحيح.
أخرجه (٣٥٠/٤) وابن سعد في الطبقات (٤٣٥/١) من طريق شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبتَ، قال: شيبتني هود، والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».
قلت: قد تابعه أبو الأحوص عن أبي إسحاق الهمداني به.
أخرجه الحاكم (٤٧٦/٢) وابن سعد في الطبقات (٤٣٦/١).
قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في «الصحيحة» (٦٧٦/٢) =

معك، وهو عطف على المستكنّ في استقم وإنْ لم يؤكَّد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ ولا تخرجوا عما حدّ لكم. ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان(١).

وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١١٣) ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ولا تميلوا إليهم أدنىٰ مَيْل، فإن الركون هو الميل اليسير كالتزيّي بزيّهم وتعظيم ذِكْرهم واستدامته. ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه ما يُسمى ظلماً كذلك فما ظنكَ بالركون إلى الظالمين؟ أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كلّ الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يُتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطابُ الرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه. وقرىء تِرْكَنوا فتِمَسّكم ـ بكسر التاء ـ على لغة تميم، وتُرْكَنُوا على البناء للمفعول من أركنه. ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم، والواو للحال. ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يُبْقِي عليكم. وثم لاستبعاد نصره إياهم وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجبه لهم، ويجوز أن يكون مُنَزَّلاً منزلة الفاء لمعنى الاستبعاد فإنه لما بين أن الله معذبهم وأن غيره لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا يُنصرون أصلاً.

(١١٤) ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ غدوة وعشية، وانتصابُه على الظرف لأنه مضاف إليه. ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنه من أزلفه إذا قرّبه وهو جمع زُلْفَة. وصلاة الغداة صلاة

= والحديث له شواهد:
(منها) ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٣٦) عن قتادة مرفوعاً مختصراً بلفظ «شيبتني هود وأخواتها».
وإسناده صحيح لولا أنه مرسل. لكن أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦ رقم ٧٩٠) عن عقبة بن عامر مرفوعاً به.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٧): «ورجاله رجال الصحيح».
(ومنها): ما أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٤٥) من طريق محمد بن سرين عن عمران بن الحصين مرفوعاً بلفظ: «شيبتني هود وأخواتها».
وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٧٩): «وإسناده حسن».
والخلاصة أن الحديث صحيح. انظر «الصحيحة» رقم (٩٥٥).

(١) يريد من عبارته الانحراف عن مضمون النص ومحتواه باستعمال القياس والاستحسان ونحوه وليس المراد استعمال القياس والاستحسان بأصلهما، فإن استعمالهما هو إعمال للنصوص نفسها.

الصبح لأنها أقرب الصلاة من أول النهار وصلاةُ العشية صلاة العصر، وقيل الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزُّلَف المغرب والعشاء. وقرىء زُلُفاً بضمتين، وضمة وسكون كبُسُر وبُسْر في بُسْرَة، وزُلْفَىٰ بمعنى زلفة كقُربىٰ وقربة. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يكفرنها. وفي الحديث «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر»[١] وفي سبب النزول أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني قد أصبت من امرأة غير أني لم آتها، فنزلت[٢]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله فاستقم وما بعده وقيل إلى القرآن. ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّـٰكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين.

---

(١) ● أخرج مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٩ رقم ١٥/ ٢٣٣) وأحمد في المسند (٢/ ٣٥٩) من طريق هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفاراتٌ لما بينهنَّ».

● وأخرج (٢/ ٤٨٤) من طريق العلاء بن عبدالرحمٰن بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمسُ والجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهنّ ما لم تُغش الكبائر».

● وأخرج مسلم (١/ ٢٠٩ رقم ١٦/ ٢٣٣) والبغوي في شرح السنة (٢/ ١٧٧ رقم ٣٤٥) وأحمد (٢/ ٤٠٠).

من طريق ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمرَ بن إسحاق مولىٰ زائدة حدَّثهُ عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «الصلوات الخمسَ، والجمعة إلى الجمعة. ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر».

(٢) ● أخرج الترمذي (٥/ ٢٩٢ رقم ٣١١٥) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٨/ ٣٠٧ رقم ١١١٢٥) ـ.

من طريق موسى بن طلحة عن أبي اليَسَر بن عمرو، قال: أتَتْهُ امرأة، وزوجها قد بعثَهُ النبي ﷺ في بعثٍ، فقالت له: بعني بدرهم تمراً. فقال: فقلت لها ـ وأعجبتني ـ إن في البيت تمراً أطيب من هذا، فانطلق بها فغمزها وقبَّلَها، ففزعَ ثم خرجَ فلقي أبا بكر فقال له: هلكتُ. قال: ما شأنكَ، فقصَّ عليه أمرَهُ، وقال له: هل لي من توبة؟ قال: نعم، تُب ولا تعُد ولا تخبرنَّ أحداً، ثم انطلق حتى أتى النبي ﷺ فقص عليه فقال: «خلَّفتَ رجلاً من المسلمين غازياً في سبيل الله بهذا» وظننتُ أني من أهل النار، وأنّ الله لا يغفِرُ لي أبداً، وأطرق عني نبي الله ﷺ حتى نزلت عليه (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» فأرسل إليّ نبي الله ﷺ فقرأهُنَّ عليَّ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٣٧) والطبراني في الكبير (١٩/ ١٦٥ رقم ٣٧١) كلاهما من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن عبدالله بن مرهب ـ به وقيس بن الربيع: «صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به».

قاله ابن حجر في «التقريب» [٢/ ١٢٨ رقم (١٣٩)].

والخلاصة أن الحديث حسن.

وأصل القصة في الصحيحين: أخرج البخاري (٨/ ٣٥٥ رقم ٤٦٨٧).

ومسلم (٤/ ٢١١٥ رقم ٣٩) من حديث ابن مسعود.

وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٥) ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ على الطاعات وعن المعاصي. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ عدول[1] عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماءٌ بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص.

(١١٦) ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ فهلا كان. ﴿ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأي والعقل، أو أولو فضل وإنما سمي بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما يُخرجه؛ ومنه يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية أي ذَوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب، ويؤيده أنه قرىء بَقْيَةٍ وهي المرة من مصدر بَقاهُ يَبْقِيه إذا راقبه. ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ لكنْ قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، ولا يصح اتصاله إلا إذا جُعِل استثناءً من النفي اللازم للتحضيض. ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ ما أُنعِموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأَعرضوا عما وراء ذلك. ﴿ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ كافرين. كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشوّ الظلم فيهم واتّباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر. وقولُه واتّبع معطوف على مضمر دل عليه الكلام إذ المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا، وكانوا مجرمين عَطْفٌ على اتّبع أو اعتراض. وقرىء وأُتْبِع أي وأتبعوا جزاء ما أُترفوا، فتكون الواو للحال، ويجوز أن تفسر به المشهورة، ويعضده تقدُّم الإنجاء.

(١١٧) ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ بشرك. ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فيما بينهم لا يضمّون إلى شركهم فساداً وتباغياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه، ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوقَ العباد. وقيل المُلْكُ يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

(١١٨) ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ مُسْلِمين كلهم، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غيرُ الإرادة وأنه تعالى لم يُرِدِ الإيمانَ من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعُه. ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ بعضُهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً.

(١١٩) ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق

---

(١) وعبر عن ذلك بنفي الإضاعة ـ مع أن عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقة ـ وذلك لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح، وكذا لإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه (س٤/٢٤٦).

والعمدة فيه. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إنْ كان الضمير للناس فالإشارةُ إلى الاختلاف؛ واللامُ للعاقبة أو إليه وإلى الرحمة، وإن كان لمَنْ فإلى الرحمة. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيدٌ، أو قولُه للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي من عصاتهما. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا﴾ وكل نبأ. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ نخبرك به. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان لكُلاً أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادةُ يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول وكُلاً منصوب على المصدر بمعنى كلَّ نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ السورة[1]، أو الأنباء المقتصة عليك. ﴿الْحَقُّ﴾ ما هو حق. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

(١٢١) ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على حالنا.

(١٢٢) ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر. ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نَزَل على أمثالكم.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصة لا يَخفىٰ عليه خافية مما فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فيَرْجع ـ لا محالة ـ أمرُهم وأمرك إليه. وقرأ نافع وحفص يُرْجَعُ على البناء للمفعول. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك. وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم فيجازي كلاً ما يستحقه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء هنا وفي آخر النمل[2]. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذّب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى»[3].

☆ ☆ ☆

(١) وتقديم الظرف أي «في هذه» على الفاعل «الحق» لأن المقصود بيان منافع السورة (س٤/٢٤٨).
(٢) النمل: «٩٣».
(٣) هو حديث موضوع كما ذكر ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٢).

سُورَةُ يُوسُف

ترتيبها ١٢ — آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

(١) ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تلك إشارة إلى آيات السورة وهي المرادُ بالكتاب، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهرة أمرُها في الإعجاز أو الواضحةُ معانيها، أو المبيِّنة لمن تدبرها أنها من عند الله، أو لليهود ما سألوا إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لِمَ انتقل آلُ يعقوب من الشأم إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب. ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ سُمِّي البعض قرآناً لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعضِ وصارَ عَلَماً للكل بالغلبة، ونصبُه على الحال وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي عربياً أو حال لأنه مصدر بمعنى مفعول، وعربياً صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال، وفي كل ذلك خلاف. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علةٌ لإنزاله بهذه الصفة، أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص مُعْجِز لا يُتصور إلا بالإيحاء.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[1] أحسن الاقتصاص لأنه اقْتُصَّ على أبدع الأساليب، أو

---

(١) أخرج الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٦٩) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٥٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) وأبو يعلى في المسند (٢/ ٨٧ رقم ٥٢/ ٧٤٠) وابن حبان (رقم: ١٧٤٦) موارد.
عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: «نحن نقص عليك أحسن القصص» قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت، فأنزل الله تعالى «الٓر تلك =

أحسن ما يقص لاشتماله على العجائب والحِكَم والآيات والعبر، فَعْلٌ بمعنى مفعول كالنَّقْض والسَّلْب، واشتقاقُه من قَصَّ أثره إذا اتبعه ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي بإيحائنا. ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني السورة، ويجوز أن يُجعل هذا مفعول نقصّ على أنّ أحسنَ نصب على المصدر. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قطّ، وهو تعليل لكونه موحىً، وإنْ هي المخففة من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة.

(٤) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدل من أحسن القصص إن جُعل مفعولاً بدل الاشتمال، أو منصوب بإضمار اذْكُر. ويوسف عبري ولو كان عربياً لصُرِف. وقرىء بفتح السين وكسرها، على التلعب به لا على أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل مِنْ آسَفَ، لأن المشهورة شهدت بعُجْمته. ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعنه عليه الصلاة والسلام «الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابنُ الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1] ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أصله يا أبي فعوض عن الياء تاءَ التأنيث لتناسبهما في الزيادة، ولذلك قلَبها هاء في الوقف ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وكَسرها لأنها عِوَضُ حرف يناسبها، وفَتَحها ابنُ عامر في كل القرآن لأنها حركةُ أصلِها أو لأنه كان يا أبتا فحَذَفَ الألف وبقي الفتحة، وإنما جاز يا أبتا ولم يجز يا أبتي لأنه جمْعٌ بين العِوَض والمعوّض. وقرىء بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض، وإنما لم تُسكّن كأصلها لأنها حرف صحيح مُنَزَّل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب. ﴿إِنِّى رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾[2] ولقوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾[3] ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾. روي عن جابر رضي الله تعالى عنه أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، فقال: «إذا أخبرتُك هل تسلم»؟ قال: نعم، قال: «جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف، والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له» فقال اليهودي: إي والله إ

= آيات الكتاب المبين» إلى قوله «نحن نقص عليك أحسن القصص» الآية. فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً» [الزمر: ٢٣] قال: كل ذلك تؤمرون بالقرآن بإسناد حسن كما قاله ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٠).
وذكره الحافظ في «المطالب العالية» برقم (٣٦٥٢) وقال حديث حسن، ونسبه لابن راهويه، وأبي يعلى، والبزار.

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٦١ رقم ٤٦٨٨) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ١٢٦ رقم ٣٥٤٧) من حديث ابن عمر.
● وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٦٠٥) والترمذي (٥/ ٢٩٣ رقم ٣١١٦) والحاكم (٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ و٥٧٠ ـ ٥٧١) وأحمد (٢/ ٣٣٢ و٣٨٤) من حديث أبي هريرة بسياق أطول.
قال الترمذي: حديث حسن.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وأورده الألباني في «الصحيحة» (رقم: ١٦١٧).

(٢) يوسف: «٥».

(٣) يوسف: «١٠٠».

لأسماؤها[(١)] ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرير، وإنما أُجريت مجرىٰ العقلاء لوصفها بصفاتهم.

(٥) ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ تصغير ابن، صغَّره للشفقة أو لصِغَر السن لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة. وقرأ حفص هنا وفي الصافات بفتح الياء[(٢)]. ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة، فَهِمَ يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته ويفوِّقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم وبغيهم. والرؤيا كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم، فُرِّقَ بينهما بحرفَيْ التأنيث كالقربة والقربىٰ، وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقةُ منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتَتَصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيِّلة تحاكيه بصورةٍ تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهَدَةً، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه. وإنما عَدَّىٰ كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعْل يتعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعلله بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألو جَهْداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعزٍّ وكمال نفس. ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنبوة والملك، أو لأمور عظام. والاجتباءُ من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾

---

(١) أخرجه البزار (٣/٥٣ رقم ٢٢٢) وابن جرير (٧/ج١٢/١٥١) والحاكم (٤/٣٩٦) والبيهقي في «الدلائل» (٦/٢٧٧) والعقيلي في «الضعفاء» (١/٢٥٩) وابن حبان في «المجروحين» (١/٢٥٠) وابن الجوزي في الموضوعات (١/١٤٥ ـ ١٤٦).
وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٤/٤٩٨) السعيد بن منصور، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي الشيخ، وابن مردويه، وأبي نعيم. عنه.
قال البزار «لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، والحكم فليس بالقوي، وقد روى عنه جماعة».
وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/٣٩) رواه البزار وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك.
وقال البيهقي: تفرد به الحكم بن ظهير.
وقال العقيلي: لا يصح في هذا المتن عن النبي ﷺ شيء من وجه يثبت.
وقال ابن حبان: هذا الحديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ.
وقال ابن الجوزي: وكأن واضعه قصد شين الإسلام بمثل هذا. وفيه جماعة ليسوا بشيء والخلاصة أن الحديث من الموضوعات.

(٢) الصافات: «١٠٢» وقرأ الباقون «يا بُنَيِّ» بكسر الياء، وهو الأصل عند البيضاوي.

كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا؛ لأنها أحاديث المَلَك إن كانت صادقة وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة، أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء. وهو اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة أو بأن يَصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به سائر بنيه؛ ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب، أو نَسْلِهِ. ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ بالرسالة. وقيل على إبراهيم بالخُلّة والإنجاءِ من النار، وعلى إسحاق بإنقاذه من الذبح[1] وفدائه بذبح عظيم. ﴿مِن قَبْلُ﴾

(١) هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والصحيح الثابت خلافه، لذلك أضع هنا كلمة ضافية لابن القيم، فيها أبطال القول بأن الذبيح هو إسحاق.

قال ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد» (١/ ٧١ ـ ٧٥): «وأمّا القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده، ولا يشكُّ أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازونه لأنفسهم دون العرب، ويأبى اللهُ إلاّ أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى «لا تخفْ إنا أُرسلنا إلى قوم لوطٍ. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» [هود: ٧٠/ ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة «ومن وراء إسحاق يعقوب» أي: ويعقوب من وراء إسحاق وقيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوبُ مبشراً به، لأن البشارة قول مخصوص، وهي أول خبر سار صادق. وقوله تعالى «ومن وراء إسحاق يعقوب» جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: «من وراء إسحاق يعقوب»، والقائل إذا قال: بشرت فلاناً بقدوم أخيه وثقَلِهِ في أثره، لم يعقل منه إلاّ بشارته بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريبُ ذو فهمٍ فيه البتة، ثم يُضعف الجرَّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف والمجرور. ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال «فلما أسلما وتلَّهُ للجبين وناديناه أنْ يا إبراهيم. قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إنَّ هذا لهو البلاء المبين» وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين [الصافات: (١٠٣ ـ ١١١)] ثم قال تعالى «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» [الصافات: ١١٢] فهذهِ بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه. فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي لما صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أي مقدراً نبوته فلا يمكن إخراجُ البشارة أن تقع على الأصل. ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلَة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى. =

أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك[1]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتباء. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾

(٧) ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي في قصتهم. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائلُ قدرةِ الله تعالى وحكمته، أو

= وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جُعلت القرابينُ يوم النَّحر بها، كما جُعِل السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمِّه، وإقامةً لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحرُ بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام لا بمكة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى «هل أتاكَ حديث ضيفِ إبراهيمَ المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلامٌ قوم منكرون» [الذاريات: ٢٤، ٢٥] إلى أن قال «قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم» [الذاريات: ٢٨] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته وهي المبشرة به، وأما إسماعيل، فمن السُّرِيَّة. وأيضاً فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخُلة منصِبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها. فلما أخذ الولدُ شعبة من قلب الوالد. جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَل المقصود، فنُسِخَ الأمر، وفُدي الذبيح، وصدّق الخليلُ الرؤيا وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأةَ الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبَّه أبوه، اشتدت غيرة «سارة» فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن «سارة» حرارة الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السُّرِيَّة، فحينئذٍ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوةُ الغيرة رحمة، ويظهر لها بركةُ هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُرِيَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جُعْل آثارهما ومواطِىء أقدامها مناسكَ لعبادة المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يُريد رفعه من خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضافته وذله وانكساره. قال تعالى «ونريدُ أن نمنَّ على الذينَ استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» [القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) والتعبير عنهما بالأب ـ مع كونهما أبا جده ـ للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام (س٤/ ٢٥٤).

علامات نبوتك[١]. وقرأ ابن كثير آية. ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم، والمراد بإخوته بنو عَلاته العشرة وهم: يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وزبالون ويشخر ودينة من بنت خالته ليا تزوجها يعقوب أولاً فلما توفيت تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف، وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرماً حينئذ وأربعة آخرون: دان ونفتالي وجاد وأشر من سريتين زلفة وبلهة.

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين وتخصيصُه بالإضافة لاختصاصه بالأُخوّة من الطرفين. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وَحَّدَه لأن أَفْعَلَ مِنْ لا يُفَرِّقُ فيه بين الواحد وما فوقه والمذكر وما يقابله، بخلاف أخويه فإن الفرق واجب في المحلّىٰ جائز في المضاف. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرَيْن لا كفاية فيهما، والعُصبة والعِصابة العشرة فصاعداً سموا بذلك لأن الأمور تَعْصَب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لتفضيله المفضول أو لترك التعديل في المحبة. روي أنه كان أحب إليه لما يَرىٰ فيه من المخايل وكان إخوته يَحْسُدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فتبالَغَ حَسَدُهم حتى حملهم على التعرض له.

(٩) ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي بعد قوله «إذ قالوا» كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال لا تقتلوا يوسف. وقيل إنما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون.

﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مَنكُورة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإبهامها، ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر. والمعنى يَصْفُ لكم وجه أبيكم فيُقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد[٢]. ﴿وَتَكُونُواْ﴾ جزم بالعطف على يَخل، أو نصب بإضمار أَنْ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد يوسف أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه. ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتم، أو صالحين مع أبيكم بصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه، أو صالحين في أمر دنياكم فإنه يَنْتَظم لكم بعده بخلوّ وجه أبيكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً، وقيل روبيل. ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم[٣]. ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ في قعره، سُمّي بها لغيبوبته عن أعين الناظرين. وقرأ نافع في

(١) وجمع الآيات للإشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته عليه السلام (س٤/ ٢٥٥).

(٢) وإيثار الخطاب في «لكم» وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول، فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (س٤/ ٢٥٦).

(٣) وإظهار اسم يوسف في مقام الإضمار لاستجلاب شفقتهم عليه، أو لاستعظام قتله (س٤/ ٢٥٦).

غيابات في الموضعين على الجمع كأنه لتلك الجب غيابات، وقرىء غَيْبَة، وغَيَّابات بالتشديد. ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه. ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض الذين يسيرون في الأرض. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمشورتي، أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يفرق بينه وبين أبيه.

قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾
قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى
غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لِمَ تخافُنا عليه. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم. والمشهور تأمَنّا بالإدغام بإشمام، وعن نافع بترك الإشمام، ومن الشواذ ترك الإدغام لأنهما من كلمتين وتيمّناً بكسر التاء.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿يَرْتَعْ﴾ نتسع في أكل الفواكه ونحوها، مِنَ الرَّتْعَة وهي الخصب. ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بالاستباق والانتضال. وقرأ ابن كثير نَرْتَعِ بكسر العين على أنه مِنْ ارتعىٰ يرتعي، ونافعٌ بالكسر والياء فيه وفي يلعب[1]، وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على إسناد الفعل إلى يوسف[2]، وقرىء يرتع من أرتع ماشيته، ويرتعِ بكسر العين ويلعبُ بالرفع على الابتداء. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

(١٣) ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ لشدة مفارقته عليّ وقلة صبري عنه. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مذأَبة. وقيل رأى في المنام أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره عليه. وقد هَمَزَها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية اليزيدي وأبو عمرو وقفاً، وعاصم وابن عامر وحمزة دَرْجاً. واشتقاقه من تذاءبت الريح إذا هبت من كل جهة. ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

(١٤) ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ضعفاء مغبونون، أو مستحقون لأن يدعىٰ عليهم بالخسار، والواو في «ونحن عصبة» للحال[3].

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وعزموا على إلقائه فيها، والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب، وجواب لمّا محذوف

---

(١) أي «يَرْتَعِ ويَلعبْ».
(٢) أي «يَرْتَعْ ويَلْعَبْ».
(٣) وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوي في المنع ولم يوردوا جواباً على الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (س٤/٢٥٨).

مِثْل فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي أنهم لما برزوا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث، فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه، فأتوا به إلى البئر فدلّوه فيها، فتعلق بشفيرها، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتوارىٰ به، فقالوا: ادْعُ الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يُلْبسوك ويؤنسوك، فلما بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي فجاءه جبريل بالوحي كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وكان ابن سبعَ عشْرةَ سنة. وقيل كان مراهقاً أوحي إليه في صغره كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. وفي القصص: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار جُرِّد عن ثيابه، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيمُ إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله في تميمة علقها بيوسف فأخرجه جبريل عليه السلام وألبسه إياه. ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بك. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلوّ شأنك وبُعده عن أوهامهم وطول العهد المغيِّر للحُلىٰ والهيئات، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين فعَرَفَهم وهم له منكرون. بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له وتطييباً لقلبه. وقيل وهم لا يشعرون متصل بأوحينا أي آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي آخر النهار. وقرىء عُشَيّاً وهو تصغير عشي، وعُشَىٰ بالضم والقصر جمع أعشىٰ، أي عُشُوا من البكاء. ﴿يَبْكُونَ﴾ متباكين. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال ما لكم يا بنيّ وأين يوسف؟.

(١٧) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نتسابق في العَدْو أو في الرمي، وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف.

(١٨) ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كذب بمعنى مكذوب فيه، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة. وقرىء بالنصب على الحال من الواو أي جاؤوا كاذبين، وكدب بالدال غير المعجمة أي كَدِرٍ أو طريّ. وقيل: أصله البياض الخارج على أظفار الأحداث فشبه به الدم اللاصق على القميص، وعلى قميصه في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه أو على الحال من الدم إن جوّز تقديمها على المجرور. روي: أنه لما سمع بخبر يوسف صاح وسأل عن قميصه فأخذه وألقاه على وجهه وبكىٰ حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه . . . .

قميصه[١]، ولذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي سهّلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً، من السوْل وهو الاسترخاء. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل، وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخَلْق»[٢]. ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على احتمال ما تصفونه من إهلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم إن صحّ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(١٩) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رِفقة يسيرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريباً من الجب، وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يَرِد الماء ويستقي لهم، وكان مالك بن ذعر الخزاعي. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ فأرسلها في الجب ليملأها، فتدلىٰ بها يوسف، فلما رآه ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ نادىٰ البشرىٰ بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا أوانك، وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه. وقرأ غير الكوفيين يا بُشْرايَ بالإضافة، وأمالَ فتحةَ الراء حمزةُ والكسائي، وقرأ ورش[٣] بين اللفظين، وقرىء يا بشريَّ بالإدغام وهو لغة[٤]، وبُشْرايْ بالسكون على قصد الوقف. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي الواردُ وأصحابُه من سائر الرفقة. وقيل أخفوْا أمره وقالوا لهم دفعه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصر. وقيل الضمير لإخوة يوسف، وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوتَه، فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامُنا أَبَقَ منّا فاشتروْه، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه[٥]. ﴿بِضَاعَةً﴾ نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة، واشتقاقُه من البَضْع[٦] فإنه ما بُضِع من المال للتجارة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه أسرارهم أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم.

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه؛ وفي مرجع الضمير الوجهان، أو اشتروه من إخوته[٧]. ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٦٣) عن السدي.

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٦٦) عن حِبّان بن أبي جبلة مرسلاً وفيه سنيد الحسين بن داود ضعيف.

(٣) هو عثمان بن سعيد بن عبدالله المصري، ويُكنى أبا سعيد، و(ورش) لقب له لُقِّب به لشدة بياضه.
كان جيد القراءة، حسن الصوت، انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه لا ينازعه فيها منازع.
توفي سنة سبع وتسعين ومائة عن سبع وثمانين سنة.
[غاية النهاية (١/٥٠٢)].

(٤) على لغة من يقلب الألف ياء ويدغمها في ياء المتكلم. تقول هَوِيّ في هواي.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٦٩) عن ابن العباس.

(٦) والبضع هو القطع.

(٧) وعدل عن صيغة الافتعال ـ فلم يقل اشتروه ـ لأن أخذهم إنما كان بطريقة البضاعة لا بطريق الاجتباء والاقتناء (س٤/ ٢٦٠).

مبخوس لزيفه أو نقصانه. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من الثمن. ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ قليلة فإنهم كانوا يَزِنون ما بلغ الأوقية ويَعُدّون ما دونها. قيل[١] كان عشرين درهماً وقيل[٢] كان اثنين وعشرين درهماً. ﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾ في يوسف. ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ الراغبين عنه، والضمير في وكانوا إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لأنهم اُلتقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه آبق. وفيه متعلق بالزاهدين إن جُعل اللام للتعريف، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف يبينه الزاهدين لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول.

وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو إطفير، وكان الملِك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات في حياته. وقيل كان فرعون موسىٰ عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[٣]. والمشهور أنه من أولاد فرعون يوسف. والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي: أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهوُ ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به من جعل شراءه به غير الأول فقيل[٤]. عشرون ديناراً وزوجا نعلٍ وثوبان أبيضان. وقيل ملؤه فضة وقيل ذهباً. ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ راعيل أو زليخا. ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً، والمعنى أحسني تعهده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضِياعنا وأموالنا ونستَظْهِرَ به في مصالحنا. ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ نتبناه وكان عقيماً لما تفرس فيه من الرشد، ولذلك قيل[٥]: أَفْرسُ الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت «يا أبت

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٧٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/١٧٣) عن ابن عباس، بلفظ «كانت عشرين درهماً».

(٣) غافر: «٣٤».

(٤) هذا وغيره مما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ وهو من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من هذه الروايات المأخوذة بجملتها من الإسرائيليات. حتى ولو كان لبعضها إسناد إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) من رواية أبي الأحوص عن ابن مسعود.
وكذلك أخرجه (٣/ ٩٠) من رواية أبي عبيدة عنه.
وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي في كلا الطريقين. مع أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٥ رقم ٨٨٢٩ و٨٨٣٠) من طريق سفيان وسعيد بن منصور عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦٨) وقال «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح إن =

استأجره»[1]، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهما. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكما مكنّا محبته في قلب العزيز أو كما مكناه في منزله أو كما أنجيناه وعطّفنا عليه العزيز مكنا له فيها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمَر تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه، أي كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنيّه. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يرده شيء ولا ينازعه فيما يشاء أو على أمر يوسف، أراد به إخوتُه شيئاً وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أراده. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمة وهو العلم المؤيّد بالعمل، أو حُكْماً بين الناس. ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علم تأويل الأحاديث. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله وإتقانه في عنفوان أمره.

(٢٣) ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ طلبت منه وتمحلت أن يواقعها، مِنْ رَادَ يُرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد[2]. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ قيل كانت سبعة، والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أَقْبِلَ وبادر، أو تهيأت، والكلمةُ على الوجهين اسم فعل بُني على الفتح كأَيْنَ، واللام للتبيين كالتي في سُقيا لك. وقرأ ابن كثير بالضم وفتح الهاء تشبيهاً له بحَيْثُ، ونافعُ وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كعِيَط، وقرأ هشامُ كذلك إلا أنه يهمز وقد روي عنه ضم التاء وهو لغة فيه، وقرىء هِيتَ كَجِيرَ، وهِئْتَ كجِئْتَ من هاء يهيىء إذا تهيأ، وقرىء هِيئتَ وعلى هذا فاللام من صلته. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً. ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الشأن. ﴿رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ سيدي قطفير أَحْسَنَ تعهدي إذ قال لكِ في: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فما جزاؤه أنْ أخونه في أهله. وقيل الضمير لله تعالى أي إنه خالقي أحسن منزلتي بأن عطّف عليّ قلبَه فلا أعصيه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المجازون الحسن

= محمد بن كثير هو العبدي، وإن كان هو الثقفي فقد وثق على ضعف كثير فيه» ١هـ.
قلت: ـ والطريق الأخرى للطبراني رجالها أيضاً ثقات إلا شيخ الطبراني محمد علي الصائغ المكي، فقد ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ١٥٢).
والخلاصة أن الأثر صحيح والله أعلم.

(١) القصص: «٢٦».

(٢) والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السرّ أو للاستهجان بذكره. وإيراد الموصول «التي» لتقرير المراودة، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام (س٤/ ٢٦٦).

بالسيء. وقيل الزناة فإن الزنا ظلم على الزاني والمزني بأهله.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ قصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهمّ بالشيء قَصْده والعزم عليه ومنه الهُمَام وهو الذي إذا هم بشيء أمضاه، والمراد بهمِّه عليه الصلاة والسلام مَيْل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله. ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالَطَها لشَبَقِ الغُلْمَة وكثرة المغالبة، ولا يجوز أن يجعل وهمّ بها جوابُ لولا فإنها في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابُها، بل الجواب محذوف يدل عليه. وقيل رأى جبريل عليه الصلاة والسلام، وقيل تمثل له يعقوب عاضاً على أنامله، وقيل قطفير، وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مِثْلُ ذلك التثبيت ثبتناه، أو الأمر مثل ذلك. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ خيانة السيد. ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ﴾ الزنا. ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام، أي الذين أخلصوا دينهم لله.

(٢٥) ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي تسابقا إلى الباب، فحُذِف الجار أو ضُمّن الفعل معنى الابتدار. وذلك أن يوسف فرّ منها ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ اجتذبته من ورائه فانقد قميصه، والقَدُّ الشق طولاً والقَطُّ الشق عرضاً[1]. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وصادفا زوجها. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيهاماً بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييرَه على يوسف وإغراءَه به انتقاماً منه، وما نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء جزاءه إلا السجن؟[2].

(٢٦) ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾ طالبتني بالمؤاتاة، وإنما قال ذلك دفعاً لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم ولو لم تكذب عليه لما قاله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيل ابن عم لها. وقيل

---

(١) وإسناد القدّ إليها خاصة ـ مع أن لقوة يوسف دخلاً فيه ـ إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة، وإما للإيذان بمبالغتها في منعه عن الخروج (س٤/ ٢٦٧).

(٢) وعدم تعيين الجزاء لتهويله.

وقولها «بأهلِك» حيث ذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز لإعظام الخطب وإغرائه على تحقيق ما تتوخاه (س٤/ ٢٦٨).

ابن خال لها صبياً في المهد. وعن النبي ﷺ: «تكلم أربعةٌ صغاراً ابنُ ماشطة فرعون، وشاهدُ يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام»[١] وإنما ألقىٰ الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها. ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قُدامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه.

وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته. والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول، وتسميتُها شهادة لأنها أدت مؤداها، والجمع بين إنْ وكان على تأويل أَنْ يعلمَ أنه كان ونحوه ونظيره قولك: إن أحسنتَ إلي اليوم فقد أحسنتُ إليك من قبل، فإن معناه إن تمنن علي بإحسانك أَمْنُن عليك بإحساني لك السابق. وقرىء مِنْ قُبُلُ ومِنْ دُبُرُ بالضم لأنهما قُطِعا عن الإضافة كقَبْلُ وبعدُ، وبالفتح كأنهما جُعِلا علمين للجهتين فمُنعا الصرف، وبسكون العين.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ إن قولَك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً، أو إن السوء، أو إن هذا الأمر. ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها، أو لسائر النساء[٢]. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأنهن يواجهن به الرجال والشيطان يوسوس به مسارقةً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٧٦ رقم ٣٤٣٦) ومسلم (٤/ ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ رقم ٨) عن أبي هريرة.
● وأخرج أحمد (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) وابن حبان في الموارد (ص٣٩ رقم ٣٦) وأبو يعلى في المسند (٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥ رقم ١٩٠/ ٢٥١٧) وابن جرير في «جامع البيان» (٧/ج١٢/ ١٩٣) والطبراني في الكبير (١٠/ ٤٥٠ ـ ٤٥١ رقم ١٢٢٧٩) والبزار في كشف الأستار (١/ ٣٧ رقم ٥٤).
كلهم من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً عليه عقب حديث ماشطة ابنة فرعون المرفوع.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٨) فيه عطاء بن السائب قد اختلط.
وتعقبه الشيخ أحمد شاكر بقوله: وفات الحافظ الهيثمي أن حماد بن سلمة سمع من عطاء قبل اختلاطه ـ كما في المسند رقم (٢٨٢٢) ـ. وقال العراقي في التقييد والإيضاح ص٤٤٣: «قال يحيى بن سعيد القطان سمع حماد بن زيد من عطاء بن السائب قبل أن يتغير.
وقال النسائي رواية حماد بن زيد، وشعبة، وسفيان عنه جيدة» هـ.
● وأخرج مسلم (٤/ ٢٢٩٩ ـ ٢٣٠١ رقم ٧٣/ ٣٠٠٥) من حديث صهيب الطويل وفيه « . . . . حتى جاءتِ امرأة ومعها صبيٌ لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري. فإنك على الحق».
ولمزيد من الإيضاح انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٨٠).

(٢) وتعميم الخطاب للإشارة إلى أنه خُلُق في النساء عريق (س٤/ ٢٦٩).

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي
الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ
بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿ يُوسُفُ ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتفطّنه للحديث. ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ اكتمه ولا تذكره. ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ يا راعيل. ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ من القوم المذنبين من، خَطِىء إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب.

(٣٠) ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ هي اسم لجمع امرأة وتأنيثه بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جُرد فعلُه، وضم النون لغة فيها. ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ظرف لقال أي أشَعْن الحكاية في مصر، أو صفة نسوة وكن خمساً: زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب. ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ تطلب مواقعة غلامها إياها. والعزيز بلسان العرب المَلِكُ. وأصل فتى فَتَيٌ لقولهم فِتْيان، والفتوّة شاذة. ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها حباً، ونصْبُه على التميز لصرف الفعل عنه. وقرىء شَعَفَها مِنْ شعف البعير إذا هنأه بالقطران فأحرقه. ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ في ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب[١].

(٣١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ باغتيابهن. وإنما سماه مكراً لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، أو قلن ذلك لتريهن يوسف، أو لأنها استكتمتهن سرها فأفشينه عليها. ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن، قيل دعت أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات. ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد. ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ حتى يتكئن والسكاكين بأيديهن فإذا خرج عليهن يُبْهتن ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فيُبكّتن بالحجة، أو يهابُ يوسفُ مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر. وقيل متكأ طعاماً أو مجلس طعام، فإنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب ترفاً ولذلك نُهِيَ عنه. قال جميل[٢]:

فظَللنـــا بِنِعْمَـــةٍ وَاتكـــأْنَـــا وشَـــرِبْنَـــا الحَـــلالَ مِـــنْ قُلِلِـــهْ

وقيل المتكأ طعام يُحَزُّ حزاً كأن القاطع يتكىء عليه بالسكين. وقرىء مُتَّكا بحذف الهمزة، ومتكاء بإشباع الفتحة كمنتزاح ومُتْكاً وهو الأترج أو ما يُقطَع من متك الشيء إذا بتكه، ومَتْكاً من تكىء يتكأ إذا اتكأ. ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ عظمنه وهِبْنَ حُسْنه

(١) وإنما لم يقلن إنها لفي ضلال مبين إشعاراً بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن.
مجازفة، بل عن علم ورأي، مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه (س٤/ ٢٧١).

(٢) هو جميل بن عبدالله بن معمر العذري، القضاعي (أبو عمرو) شاعر افتتن ببثينة من فتيات قومه. فتناقل الناس أخبارها. من آثاره: ديوان شعر. مات عام ٨٢هـ.
[معجم المؤلفين (٣/ ١٦٠ ـ ١٦١) والأعلام (٢/ ١٣٨)].

الفائق[١]. وعن النبي ﷺ: «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر»[٢] وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران. وقيل أكبرن بمعنى حِضْن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل الكبر بالحيض، والهاء ضمير للمصدر أو ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي[٣]:

خـفِ اللهَ وَاسْتُـرْ ذَا الجَمَـالَ بِبـرقـعٍ   فـإنَ لحتَ حَـاضَـتْ فِي الخُـدُورِ العَـواتِقُ

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة. ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز وتعجباً من قدرته على خلق مثله. وأصله حاشا كما قرأ أبو عمرو في الدرْج فحُذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً، وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوُضع موضع التنزيه، واللام للبيان كما في قولك سقيا لك. وقرىء حاشَ اللهِ بغير لام بمعنى براءةَ اللهِ، وحاشاً لله بالتنوين على تنزيله منزلة المصدر. وقيل حاشا فاعلٍ من الحَشَا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف، أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه. ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، وهو على لغة الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتها في نفي الحال. وقرىء بَشَرٌ بالرفع على لغة تميم، وبِشِرَىٰ أي بعد مُشْتَرىٰ لئيم. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا المَلَك.

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٢) ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني في الافتتان به قبل أن تتصورنه حق تصوره، ولو تصورْتنّه بما عاينتن لعذرتنني. أو فهذا هو الذي لمتنني فيه، فَوَضَعَ ذلك موضع هذا رفعاً لمنزلة المشار إليه. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع طلباً للعصمة، أقرتْ لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي ما آمر به؛ فحذف الجار، أو أمري إياه بمعنى موجب أمري فيكون الضمير ليوسف. ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ من الأذلاّء وهو مِنْ صَغِرَ ـ بالكسر ـ يَصْغُر صِغَراً وصَغَاراً، والصغير من صَغُرَ بالضم صِغَراً. وقرىء ليكوننّ، وهو يخالف خط المصحف لأن النون كتبت فيه بالألف كنسفعاً على حكم الوقف وذلك في الخفيفة لشبهها بالتنوين.

---

(١) وقوله «فلما رأينه» عطف على مقدر يستدعيه المقام، وقد حذف تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن (س٤/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً. كما في الكافي الشافِ رقم ٢٠٦ ـ قلت: أبو هارون العبدي ضعيف ـ.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي (أبو الطيب) شاعر حكيم ولد في الكوفة، ونشأ في الشام. واتصل بسيف الدولة فانقطع إليه، ثم مضى إلى مصر، فمدح بها كافور الأخشيدي، . . . من آثاره: ديوان شعر.

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر[١]. ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي آثَرُ عندي من مؤاتاتها زناً نظراً إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهيه النفس وذلك مما تكرهه. وإسنادُ الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوّفنه من مخالفتها وزيّنّ له مطاوعتها، أو دعونه إلى أنفسهن. وقيل إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا، وإنما كان الأَوْلىٰ به أن يسأل الله العافية، ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر[٢]. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ وإن لم تصرف عني. ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبْوة الميل إلى الهوىٰ ومنه الصَّبَا لأن النفوس تستطيبها وتميل إليها. وقرىء أصب من الصبابة وهي الشوق. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعلمون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء[٣].

(٣٤) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله: «وإلا تصرف» ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فثبته بالعصمة حتى وطّن نفسه على مشقة السجن وآثرَها على اللذة المتضمنة للعصيان. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ثم ظهر للعزيز وأهلِه من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقدّ القميص وقطع النساء أيديهَن واستعصامه عنهن، وفاعل بَدَا مضمَر يفسره: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذلك لأنها خَدَعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تُبصرَ ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين. وقرىء بالتاء على أن بعضهم خاطب به العزيزَ علىٰ التعظيم أو العزيزَ ومَنْ يليه، وعتّىٰ[٤] بلغة هذيل.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي أُدخِل يوسف السجن واتُّفق أنه أُدخل حينئذ آخران من عَبيد الملك «شَرَابيَّهُ وخبّازه» للاتهام بأنهما يريدان أن يسُمّاه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ يعني الشَّرَابيُّ. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾

---

(١) أي بفتح السين «السَّجَن».

(٢) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال عليه السلام: «قد سألت البلاء، فسل الله العافية» رواه أحمد (٢٠٩/١) وإسناده حسن كما في تخريج كتاب الشكر لابن أبي الدنيا رقم (١٥٠) تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط.

(٣) قوله «السجن أحبّ..» حيث عبر عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس. والاقتصار على ذكر السجن من حيث إن الصغار من فروعه ومستتبعاته (س٤/ ٢٧٤).

(٤) عطف على قوله وقرىء بالتاء، أي قرىء «عتىٰ حين» بالعين بدل الحاء وهي بلغة هذيل.

أي في المنام، وهي حكاية حال ماضية. ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنباً وسماه خمراً باعتبار ما يؤول إليه. ﴿وَقَالَ ٱلْآخَرُ﴾ أي الخباز. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهش منه. ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يُحسِنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين، وإنما قالا ذلك لأنهما رأياه في السجن يُذكِّر الناس ويَعْبُرُ رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسِن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ
قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا
كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي بتأويل ما قصصتما علي، أو بتأويل الطعام يعني بيان ماهيته وكيفيته فإنه يشبه تفسير المشكل، كأنه أراد ان يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلَهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير. ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا﴾ أي ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ بالإلهام والوحي وليس من قبيل التكهن أو التنجيم. ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي علمني ذلك لأني تركت ملة أولئك.

(٣٨) ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أو كلامٌ مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتُهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ولذلك جُوِّزَ للخامل أن يصف نفسه حتى يُعْرَفَ فَيُقْتَبَسُ منه، وتكريرُ الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأكيد كفرهم بالآخرة[1]. ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء. ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي شيء كان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد. ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وعلى سائر الناس يبعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا الفضل فيُعْرِضون عنه ولا يتنبهون، أو من فضلِ الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيُلْغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

(٣٩) ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله:

يا سَارِقَ اللَيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام. ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره.

---

(١) وقدم ذكر تركه لملتهم على اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية (س٤/ ٢٧٧).

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ
ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ
ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

(٤٠) ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ خطاب لهما ولمَنْ على دينهما من أهل مصر. ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي إلا أشياء باعتبار أسَامٍ أطلقتم عليها من غير حجة دل على تحقق مسمياتها فيها فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماءَ المجردة. والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهيةَ عقلٌ ولا نقلٌ آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ ما الحكم في أمر العبادة. ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته الموجِدُ للكل والمالك لأمره. ﴿أَمَرَ﴾ على لسان أنبيائه. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج عن القويم. وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة: بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنها، ثم نصَّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيرَه ولا يرتضي العلم دونَه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيخبطون في جهالاتهم.

(٤١) ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ يعني الشَرَابيّ [١]. ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ كما كان يسقيه قبلُ ويعود إلى ما كان عليه. ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ يريد به الخباز. ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فقالا: كَذَبْنَا، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قُطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤول إليه أمركما ولذلك وَحّدَه، فإنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أرادا استبانة عاقبة ما نزل بهما [٢].

(٤٢) ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظانُّ يوسف إن ذَكَرَ ذلك عن اجتهاد، وإنْ ذَكَرَه عن وحي فهو الناجي. إلا أن يؤوّل الظنُّ باليقين. ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ اذكر حالي عند المَلِك كي يخلِّصني. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ فأنسيَ الشرابيَّ أن يذكره لربه، فأضاف إليه المصدر لملابسته له أو على تقدير ذكر إخبار ربه، أو أُنسيَ يوسفُ ذكرَ الله حتى استعان بغيره، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعاً بعد

---

(١) وإنما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلاً بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوؤه (س٤/ ٢٧٩).

(٢) وقد عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلاً لأمره وتفخيماً لشأنه، لأن الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلةِ الحكم المبهمة الجواب.

وإيثار صيغة الاستقبال في قوله «تستفتيان» مع سبق استفتائهما فيه لأنهما بصدده حتى يقضي عليه السلام من الجواب وَطَرَه (س٤/ ٢٧٩).

الخمس»[١]. والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محمودة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء. ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضع ما بين الثلاث إلى التسع، مِنَ البَضْع وهو القطع.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

(٤٣) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ لما دنا فَرَجُه رأى المِلِكُ سبعَ بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبعَ بقرات مهازيل فابتلعت المهازيلُ السمان. ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها. ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وسبعاً أخر يابسات قد أَدرَكَت فالتوت اليابساتُ على الخُضر حتى غلبت عليها، وإنما استَغنىٰ عن بيان حالها بما قص من حال البقرات، وأجرىٰ السِمَان على المميز دون المميز لأن التمييز بها، وَوَصَفَ السبع الثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف؛ فإنه لبيان الجنس؛ وقياسُه عُجُف لأنه جمع عَجْفاء لكن حُمِل على سِمَان لأنه نقيضه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ عَبِّرُوها[٢]. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها من العبور وهي المجاوزة، وعبرت الرؤيا عِبَارة أثبت من عَبَّرَتها تعبيراً، واللامُ للبيان، أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أُخر عن مفعوله ضعُف فقوّي باللام كاسم الفاعل، أو لتضمن تعبرون معنى فعلٍ يُعدّىٰ باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا.

(٤٤) ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي هذه أضغاث أحلام وهي تخاليطُها، جمعُ ضِغْث، وأصلُه ما جُمع من أخلاط النبات وحُزم، فاستعير للرؤيا الكاذبة. وإنما جَمَعُوا للمبالغة في وصف الحُلُم بالبطلان كقولهم: فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة، فهو كأنه مقدمة ثانية للعذر في جهلهم بتأويله.

(٤٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن وهو الشرابي. ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة. وقرىء ـ إِمّة بكسر الهمزة ـ وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة، وأَمَهٍ أي نسيانٍ يقال أَمِهَ يَأْمَهُ أَمْهاً إذ نسي، والجملة اعتراض ومقول القول: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي إلى من عنده علمه أو إلى السجن.

---

(١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه. وهذا إسناد ساقط ـ كما في الكافي الشاف (ص٩٠ رقم ٢١٣).

(٢) وعبر عنه بالإفتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (س٤/ ٢٨٠).

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ
يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي فأُرسِل إلى يوسفَ فجاءَه فقال يا يوسف، وإنما وَصَفَه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جَرّب أحوالَه وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك[١]. ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك، وإنما لم يبتّ الكلام فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما اخترم دونه ولا يعلمهم.

(٤٧) ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على عادتكم المستمرة. وانتصابُه على الحال بمعنى دائبين، أو المصدرِ بإضمار فعله أي تدأبون دأباً، وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص دَأَباً بفتح الهمزة وكلاهما مصدر دأب في العمل[٢]. وقيل تزرعون أَمْرٌ أَخرَجَه في صورة الخبر مبالغة لقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلا يأكله السوس، وهو على الأول نصيحة خارجة عن العبارة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهْلُهن ما ادّخرتم لأجلهن فأُسْنِد إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبَّر والمعبَّر به. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تُحرزون لبذور الزراعة.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يُمْطَرون من الغيث، أو يغاثون مِنَ القحط مِنَ الغوث. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما يُعْصَر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار[٣]، وقيل يحلبون الضروع. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي، وقرىء على بناء المفعول من عصره إذا أنجاه، ويحتمل أن يكون المبني للفاعل منه أي يُغيثهم الله ويغيث بعضُهم بعضاً، أو مَن أَعْصَرَتِ السحابةُ عليهم فعدِّي بنزع الخافض أو بتضمينه معنى المطر. وهذه بشارة بشرهم بها بعد ان أَوَّل البقراتِ السمان والسنبلات

---

(١) قال له هنا «أفتنا» بينما قال في السابق هو وصاحبه «نَبِّئنا» وذلك بعدما عاين من علوّ رتبته عليه السلام وفضله. وفي قوله «أفتنا» بالجمع ـ مع أنه المستفتي وحده ـ للإشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره (س٤/ ٢٨٢).

(٢) الأصل عنده قراءة من قرأ بسكون الهمزة «دَأْباً» ولم يقرأ غير حفص بفتحها.

(٣) والتعرض لذكر العَصْر ـ مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة، كما اكتفي به عن ذكر تصرفهم بالحبوب ـ إما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب لأن المذكورات يتوقف صلاحها على أمورٍ أخرى غير المطر، وإما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به بشارةً له.
وتكرير «فيه» إما للإشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زماناً وعنواناً، وإما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام. ولأجله قُدِّم في الموضعين على الفعلين (س٤/ ٢٨٣).

الخضر بسنين مخصِبة والعجاف واليابسات بسنين مجدِبة وابتلاع العجاف السمانَ بأكل ما جُمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله عَلِمَ ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجدب بالخصب أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ
رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن
سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ
أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

(٥٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجه. ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تأنّىٰ في الخروج وقدّم سؤال النسوة وفَحْصَ حالهن لتظهر براءةُ ساحته ويُعْلَمَ أنه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يُجْتَهَدَ في نفي التّهم ويُتّقىٰ مواقعُها. وعن النبي ﷺ: «لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة»[1]. وإنما قال فاسْأله ما بالُ النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن تهييجاً له على البحث وتحقيق الحال، وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرماً ومراعاة للأدب. وقرىء النُّسْوَةِ بضم النون. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قُلْن لي أَطِع مولاتك، وفيه تعظيمُ كيدهن والاستشهادُ بعلم الله عليه وعلى أنه بريء مما قذف به والوعيد لهن على كيدهن.

(٥١) ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ قال الملك لهن ما شأنكن. والخَطْبُ أمر يَحِقُّ أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خُلُقٍ عفيف مثله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ثبت واستقرّ، مِنْ حصحص البعير إذا ألقىٰ مَبَارِكه ليناخ قال:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصفَا ثَفِنَاتِه　　　ونَاءَ بِسَلْمَىٰ نَوأَةً ثُمَّ صَمَّمَا

أو ظهر مِنْ حَصَّ شَعْرَه إذا ستأصله بحيث ظهرت بَشَرَةُ رأسه. وقرىء على البناء للمفعول. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[2].

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ قاله يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن، أي ذلك التثبتُ ليعلم العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب، وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني، أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

---

(١) رواه أحمد بلفظ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر» وفي الصحيحين بلفظ «... ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(٢) يوسف: «٢٦».

لا يُنفذه ولا يسدِّده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغةً. وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجَها وتوكيد لأمانته ولذلك عقّبه بقوله:

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾

(٥٣) ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ ﴾ أي لا أنزهها تنبيهاً على أنه لم يُرد بذلك تزكيةَ نفسه والعجبَ بحاله، بل إظهارَ ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق. وعن ابن عباس أنه لما قال: «ليعلم أني لم أخنه بالغيب» قال له جبريل ولا حين هممت فقال: ذلك. ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها وتستعمِلُ القوىٰ والجوارح في أثرها كل الأوقات. ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكنْ رحمةُ ربي هي التي تصرف الإساءة. وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف وأضرابه. وعن ابن كثير ونافع بالسُّوّ على قلب الهمزة واواً ثم الإدغام. ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ يغفر هَمَّ النفس ويرحم من يشاء بالعصمة، أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

(٥٤) ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾ أجعلْه خالصاً لنفسي. ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أي فلما أتوا به فكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء. ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿ أَمِينٞ ﴾ مؤتمن على كل شيء. روي[١] أنه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلمه بها، فأجابه بجميعها، فتعجب منه فقال: أحب أن أسمع رؤياي منك، فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه امره. وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدها عذراء وولد له منها أفرائيم وميشا.

(٥٥) ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ وَلِّني أمرها، والأرض أرض مصر. ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لها ممن لا يستحقها. ﴿ عَلِيمٞ ﴾ بوجوه التصرف فيه، ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة آثر ما تعم فوائده وتجل عوائده. وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها، والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد أن المَلِك أسلم على يده[٢].

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٢٥٠) عن وهب بن منبه.
قلت: ولا يمكن الوقوف على الحكم عليه لأنه من الإسرائيليات.

(٢) إنما لم يذكر إجابة الملك لغناه عن التصريح وللتنبيه على أن كل ذلك من الله تعالى والمَلِكُ وسيلة لتنفيذ قدر الله =

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى
ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر[١]. ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ يَنْزِل من بلادها حيث يَهوى. وقرأ ابن كثير نشاء بالنون. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً.

(٥٧) ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه.

(٥٨) ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشأم ونواحيهما، وتوجه إليه الناس فباعها أولاً بالدراهم والدنانير حتى لم يبقَ معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك، فأَعْتَقَهم وردّ عليهم أموالهم، وكان قد أصاب كنعانَ ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوبُ بنيه - غير بنيامين - إليه للميرة. ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[٢] أي عرفهم يوسفُ ولم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه وتوهمهم أنه هلك وبُعْد حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقوه وقلة تأملهم في حُلاه من التهيب والاستعظام.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدتهم وأَوْقَر ركائبهم بما جاؤوا لأجله، والجَهاز ما يعد من الأمتعة للنُّقْلة كعُدَد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما تزفّ به المرأة إلى زوجها. وقرىء بِجِهَازِهم بالكسر. ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ روي: أنهم لما دخلوا عليه قال: من أنتم وما أمركم لعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله إنما نحن بنو أب واحد وهو شيخ كبير صدِّيق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال كم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أحدنا إلى البرية فهلك، قال: فكم أنتم ههنا قالوا عشرة، قال فأين الحادي عشر؟ قالوا عند أبينا يتسلى به عن الهالك، قال فمن يشهد لكم؟ قالوا لا يعرفنا أحدٌ ههنا فيشهد لنا، قال فَدَعُوا بعضكم عندي رهينةً وائتوني بأخيكم من أبيكم حتى أصدِّقكم، فاقترعوا فأصابت شمعون. وقيل كان يوسف يعطي لكل نفر حِمْلاً فسألوه حملاً زائداً لأخ لهم من أبيهم فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّه. ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان أَحْسَنَ إنزالَهم وضيافتَهم.

= (س٤/ ٢٨٧).

(١) وفي التعبير عن الجَعْل بالتمكين في الأرض مسنداً إلى ضميره سبحانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والإشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفىٰ (س٤/ ٢٨٧).

(٢) ولما كان إنكارهم لمعرفته مستمرة في المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية المفيدة للاستمرار (س٤/ ٢٨٨).

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ
ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ
ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا
فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ
أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

(٦٠) ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي ولا تقربوني ولا تدخلوا دياري، وهو إما نهي أو نفي معطوف على الجزاء.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا نَتَوانىٰ فيه.

(٦٢) ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيّالين جمع فتى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص لِفِتْيانه على أنه جمع الكثرة ليوافق قولَه: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ فإنه وَكَّل بكل رَحْل واحداً يعني فيه بضاعتهم التي شروْا بها الطعام وكانت نِعالاً وأدماً، وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمنَ الطعام منهم وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لعلهم يعرفون حق ردها، أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ انصرفوا ورجعوا. ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفتحوا أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

(٦٣) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ حُكِمَ بمَنْعِه بعد هذا إنْ لم نذهبْ ببنيامين. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفعُ المانع من الكيل ونكتلُ ما نحتاج إليه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ، أي يكتل لنفسه فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

(٦٤) ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم في يوسف «وإنا له لحافظون» ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ فأتوكل عليه وأفوض أمري إليه، وانتصاب حفظاً على التمييز، وحافظاً على قراءة حمزة والكسائي وحفص يحتمله والحال كقوله: لله دره فارساً، وقرىء خيرُ حافِظٍ، وخيرُ الحافظين. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين.

(٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وقرىء رِدَّت بنقل كسرة الدال المدغمة إلى الراء نَقْلَها في بيع وقيل. ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك أكرمَنا وأحسنَ مثوانا وباعَ منّا ورد علينا متاعنا، أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه. وقرىء ما تَبْغي على الخطاب أي: أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الدليل على صدقنا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استئناف موضِّح لقوله ما نبغي[1]. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾

---

(١) وإيثار صيغة البناء للمفعول في «ردت» للإيذان بكمال الإحسان الناشىء عن كمال الإخفاء المفهوم من كمال =

معطوف على محذوف أي ردت إلينا فنستظهر بها ونميرَ أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وِسْقَ بعير باستصحاب أخينا، هذا إذا كانت ما استفهامية فأما إذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل أن تكون الجُمَلُ معطوفةً على ما نبغي، أي لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا ونحفظ أخانا. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيل قليل لا يكفينا، استقلوا ما كِيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يُكال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى كيل بعير أي ذلك شيء قليل لا يضايقنا في الملك ولا يتعاظمه، وقيل إنه من كلام يعقوب ومعناه إن حِمْل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

(٦٦) ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذْ رأيتُ منكم ما رأيت. ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أي عهداً مؤكداً بذكر الله. ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ جواب القسم، إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به. ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تُغلَبُوا فلا تطيقوا ذلك، أو إلا أن تَهْلِكُوا جميعاً، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير: لتأتنني به على كل حال إلا حالَ الإحاطة بكم، أو من أعم العلل على أن قوله لتأتنني به في تأويل النفي أي لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم: أقسمتُ بالله إلا فعلتَ أي ما أطلب إلا فعلك. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم. ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه[1] . ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع.

(٦٧) ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جَمال وأُبّهة مشتهرين في مصر بالقُربة والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيُعَانوا[2] . ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين. وللنفس آثار منها العين، والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عوذته «اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة»[3] . ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾

= غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله (س٤/ ٢٩٠).

(١) وإيثار صيغة الاستقبال «نقول» لاستحضار صورته المؤدي إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكرة ومراقبته (س٤/ ٢٩٢).

(٢) أي يصابوا بالعين.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١) وأبو داود (رقم ٣٨٩٣) والترمذي (٣٥١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ورجاله ثقات بلفظ «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه ومن شر عباده، ومن شر همزات الشيطان، وأن يحضرون».

وله شاهد عند أحمد (٤/ ٧٤)، (٦/ ٦) من حديث الوليد بن الوليد، ورجاله ثقات لكن فيه انقطاع. ولفظه قال=

مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم فإن الحذر لا يمنع القدر. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يصيبكم لا محالةَ إن قضىٰ عليكم سوءاً ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جَمَعَ بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأنَّ الواو للعطف والفاء لإفادة التسبب، فإن فِعْل الأنبياء سبب لأن يُقتدى بهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ
قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ
ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ
جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ رَأْيُ يعقوب واتباعهم له. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام، فسُرِقُوا وأُخِذ بنيامين بوُجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب. ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناء منقطع، أي ولكن حاجة في نفسه، يعني شفقته عليهم وحرازته من أن يعانوا. ﴿قَضَىٰهَا﴾ أظهرها ووصّىٰ بها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال وما أغني عنكم من الله من شيء ولم يغترّ بتدبيره[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر وأنه لا يغني عنه الحذر.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامينَ على الطعام أو في المنزل، روي[2] أنه أضافهم فأجلسهم مثنىٰ مثنىٰ فبقي بنيامين وحيداً فبكىٰ وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته ثم قال: لِينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؛ قال: مَنْ يجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن، افتعالٌ من البؤس. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في حقنا فيما مضىٰ.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ المَشْربة. ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به. وقيل كانت تُسقىٰ الدواب بها ويكال بها وكانت من فضة، وقيل من ذهب. وقرىء وَجَعَل على حذف جواب فلما تقديره أَمْهلهم حتى انطلقوا. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادىٰ منادٍ. ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ

= يا رسول الله إني أجد وحشة، قال «إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ..».
والخلاصة فهو حديث حسن.

(١) وفي تأكيد الجملة بإن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه وتعالى من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبته وبيان علمه (س٤/ ٢٩٣) ولذلك قالوا بعد «نفقد صراع الملك».

(٢) هذه التفصيلات في لقاء يوسف لأخيه أخرجها الطبري في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٥ ـ ١٦) وفي «تاريخه» (١/ ١٧٩) عن السدي، ووهب بن منبه. وهي من الإسرائيليات.

﴿لَسَـٰرِقُونَ﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه الصلاة والسلام، أو كان تعبية السقاية والنداء عليها برضا بنيامين، وقيل معناه إنكم لسارقون يوسفَ من أبيه، أو أئنكم لسارقون. والعِيرُ القافلةُ، وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال لأنها تَعِير أي تتردّد، فقيل لأصحابها كقوله عليه الصلاة والسلام: «يا خيلَ الله اركبي»[(١)]. وقيل جمع عير، وأصله فِعْل كسَقْفٍ فُعِلَ به ما فُعل ببِيْضٍ، تُجُوِّز به لقافلة الحمير ثم استُعير لكل قافلة.

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

(٧١) ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أيُّ شيء ضاع منكم. والفَقْدُ غيبة الشيء عن الحسّ بحيث لا يُعْرَف مكانُه[(٢)]. وقرىء تُفْقِدُون من أَفْقدتُه غذا وجدتُه فقيداً.

---

(١) قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤ رقم ٣١٧٠).
«رواه أبو الشيخ في «الناسخ والمنسوخ» عن عبدالكريم قال: حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين،، قال كان ناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نبايعك على الإسلام، فذكر القصة، وفيها فأمر النبي ﷺ فنودِيَ في الناس يا خيل الله اركبي، فركبوا، لا ينتظر فارسٌ فارساً.
ـ وللعسكري عن أنس في حديث ذكره، فنادى منادي رسول الله ﷺ يا خيلَ الله اركبي.
ـ وفي رواية له عن أنس أيضاً أن النبي ﷺ قال لحارثة بن النعمان: كيف أصبحت؟ ـ الحديث ـ وفيه أنه قال يا نبي الله ادع لي بالشهادة، فدعا له، قال: فنودِيَ يوماً بالخيل: يا خيل الله اركبي فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد.
ـ ولابن عائذ في «المغازي» عن قتادة قال: بعث رسول الله ﷺ يومئذٍ ـ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب ـ منادياً ينادي يا خيل الله اركبي.
ـ وعزى السهيلي في «روضه» في غزوة حنين هذه اللفظةَ لمسلم فلتنظره.
نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» ـ (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧) ـ أنه لما قدم رسول الله ﷺ من بني لحيان، فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ صرخ في المدينة فقال «يا خيل الله اركبوا» وجاءت عن علي، وخالد بن الوليد، ففي المستدرك للحاكم ـ (٢/ ٣٦٥ ـ ٥٦٦) ـ في قصة أويس عن أسيد بن جابر، فذكر قصة، وقال في آخرها فنادى علي «يا خيل الله اركبي» وفي الردة للواقدي عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم القيامة «يا خيل الله اركبي» فركبوا وساروا إلى بني حنيفة.
ـ وقال أبو داود في السنن (٣/ ٥٤) باب النداء عند النفير يا خيل الله اركبي، وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ سمى خيلنا بخيل الله.
ـ وللعسكري من حديث ابن نفيع الحارثي عن شِيخة من قومه أن النبي ﷺ قال: الأناة في كل شيء خير إلا في ثلاث: إذا صِيح في خيل الله فكونوا أول من شخص. وذكر حديثاً.
ـ قال العسكري قوله: يا خيل الله اركبي على المجاز والتوسع، أراد يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصر لعلم المخاطب بما أراد، والله أعلم» هـ.
(٢) وصيغة المضارع في «تفقدون» لاستحضار الصورة. =

(٧٢) ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وقرىء صَاعَ، وصَوْعَ بالفتح والضم والعين والغين، وصواغ من الصياغة. ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جُعْلاً له. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجِعَالة، وضمان الجُعْل قبل تمام العمل[١].

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

(٧٣) ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه معنى التعجب، والتاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ استشهَدُوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرّتيْ مجيئهم ومداخلتهم للمَلِك مما يدل على فَرْط أمانتهم كردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم وكَعَمِّ الدواب[٢] لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[٣].

(٧٤) ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو الصواع على حذف المضاف. ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة.

(٧٥) ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي جزاء سرقته أَخْذُ من وُجد في رحله واسترقاقُه، هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقولُه فهو جزاؤه تقرير للحكم وإلزام له، أو خبرُ مَنْ، والفاءُ لتضمنها معنى الشرط أو جواب لها على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر جزاؤه على إقامةِ الظاهرِ فيها مقامَ الضمير كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالسرقة.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ فبدأ المؤذّن. وقيل يوسف لأنهم رُدّوا إلى مصر. ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين نفياً للتهمة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يُذَكّر ويؤنث. ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ وقرىء بضم الواو، ويقلبها همزة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الكيد. ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَۖ﴾ بأن علمناه إياه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ مَلِكِ مصر، لأن دينَه الضربُ وتغريمُ ضِعف ما أُخذ دون الاسترقاق، وهو بيان للكيد. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، فالاستثناء

= وأجابوا بقولهم «ماذا تفقدون» ولم يقولوا ماذا سُرق منكم لبيان كمال نزاهتهم، فلعله أن يكون فُقِد منهم (س٤/ ٢٩٥).

(١) الجُعْل والجعالة هو الأجر.

(٢) عمُّ الدواب أي كَمُّ أفواهها.

(٣) لم يكتفوا بنفي الإفساد السرقة بل استشهدوا بعلمهم بذلك إلزاماً للحجة عليهم وتحقيقاً للتعجب من اتهامهم بذلك (س٤/ ٢٩٥).

من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعاً أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته[١]. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أرفع درجة منه، واحتجّ به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقُه من هو أعلم منه، والجوابُ أن المراد كل ذي علم من الخَلْق لأن الكلام فيهم ولأن العليم هو الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي له العلم البالغ لغة ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

(٧٧) ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شبّ أراد يعقوبُ انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها، فوُجدت محزومة عليه، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل[٢] كان لأبي أمه صنم فسرقه وكسره وألقاه في الجِيَف. وقيل كان في البيت عناق[٣] أو دجاجة فأعطاها السائل. وقيل دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب. ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أكنّها ولم يُظهرها لهم، والضمير للإجابة أو المقالة أو نسبة السرقة إليه، وقيل إنها كناية بشريطة التفسير يفسرها قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فإنه بدل من أَسَرّها. والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة في السرقة لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه، وتأنيثُها باعتبار الكلمة أو الجملة، وفيه نظر إذ المفسَّر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

(٧٨) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي في السنّ أو القَدْر، ذكروا له حالَه استعطافاً له عليه. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدلَه فإن أباه ثُكلانٌ على أخيه الهالك مستأنِسٌ به. ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتمم إحسانك، أو من المتعوِّدين بالإحسان فلا تغير عاداتك.

(٧٩) ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ فإنّ أَخْذَ غيره ظلم على فتواكم فلو أخذنا أحدكم مكانَه[٤] ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم هذا، وإن مرادَه أن الله أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله لمصلحته ورضاه عليه فلو أخذتُ غيره كنت ظالماً.

---

(١) وإيثار صيغة الاستقبال في «نرفع» للإشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة (س٤/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/ج١٣/ ٢٨) عن سعيد بن جبير. وكذلك أخرجه (٨/ج١٣/ ٢٨) عن قتادة.
قلت: لم يرد نص صحيح في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها. والله أعلم.

(٣) العناق هي الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول (المصباح المنير مادة عنق).

(٤) وإيثار «من وجدنا متاعنا عنده» دون سَرَقَ متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام، مع تمام المرام فإنهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محملٍ غير السرقة (س٤/ ٢٩٩).

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾
ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ ﴾ يئسوا من يوسف وإجابتَه إياهم، وزيادةُ السين والتاء للمبالغة. ﴿ خَلَصُواْ ﴾ انفردوا واعتزلوا. ﴿ نَجِيًّا ﴾ متناجين، وإنما وَحّده لأنه مصدر أو بِزِنَتِهِ كما قيل هو صديق، وجمعُه أَنْجِيَة كنَدِيّ وأندية. ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السن وهو روبيل، أو في الرأي وهو شمعون، وقيل يهوذا. ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عهداً وثيقاً، وإنما جُعِل حَلِفُهم بالله مَوْثقاً منه لأنه بإذنٍ منه وتأكيد من جهته. ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ ومن قبل هذا. ﴿ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ قصّرتم في شأنه. وما مزيدةٌ ويجوز أن تكون مصدريةً في موضعَ النصب بالعطف على مفعول تعلموا ـ ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف ـ أو على اسم أَنّ وخبرُه «في يوسف» أو «من قبل»، أو الرفعِ بالابتداء والخبرُ من قبلُ وفيه نظر؛ لأن «قبلُ» إذا كان خبراً أو صِلة لا يُقطَع عن الإضافة حتى لا يَنْقُص، وأن تكونَ موصولة أي: ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه في حقه من الجناية، ومحلُّه ما تقدم. ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ فلن أفارق أرض مصر. ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ في الرجوع. ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه. روي أنهم كلموا العزيز في إطلاقه، فقال روبيل: أيها الملِك والله لَتَترُكنا أو لأصيحن صيْحة تضع منها الحوامل، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه: قم إلى جنبه فَمُسَّه، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسه الآخرُ ذهب غضبه، فقال روبيل مَنْ هذا إن في هذا البلد لبِزراً من بِزْر يعقوب. ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

(٨١) ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر. وقرىء سُرِّق أي نُسب إلى السرقة. ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ ﴾ عليه. ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ بأن رَأينا أنّ الصواع استُخرِج من وعائه. ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ لباطن الحال. ﴿ حَٰفِظِينَ ﴾ فلا ندري أنه سَرَقَ أو سُرِق الصواع في رحله، أو وما كنا للعواقب عالمين فلم ندرِ حين أعطيناك الموثق أنه سيَسْرق، أو أنك تصاب به كما أُصبت بيوسف.

(٨٢) ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنون مصر أو قريةً بقربها لَحِقَهم المنادي فيها، والمعنى أَرْسِلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة. ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وأصحابَ العير التي توجهنا فيهم وكنا معهم. ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تأكيدٌ في محل القَسَم.

(٨٣) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أي فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم قال: بل سولت أي زينت وسهلت. ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أردتموه فقدرتموه، وإلا فما أدرى المَلِكَ أن السارق يؤخذ

بسرقته؟ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبرٌ جميلٍ أجمل. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقّف بمصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرهما.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهةً لما صادف منهم. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي يا أَسَفَا تعاليْ فهذا أوانُك، والأَسَفُ أشد الحزن والحسرة، والألف بدل من ياء المتكلم، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ـ والحادثُ رِزْؤُهما ـ لأن رِزْأَه كان قاعدةَ المصيبات وكان غضاً آخذاً بمجامع قلبه. . ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته، وفي الحديث: «لم تُعْطَ أمة من الأمم» «إنا لله وإنا إليه راجعون» عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال يا أسفا[1]. ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ لكثرة بكائه من الحزن كأن العَبْرة مَحَقَتْ سوادهما، وقيل ضَعُف بصره، وقيل عمي. وقرىء من الحَزَن. وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فإنه قَلَّ من يَمْلِك نفسه عند الشدائد، ولقد بكىٰ رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلبُ يجزع والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[2]. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يُظهِره، فعيل بمعنى مفعول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[3] مِنْ كَظَمَ السِّقَاءَ إذا شده على مِلْئِه، أو بمعنى فاعل كقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[4] مِنْ كَظَمَ الغيظَ إذا اجترعه، وأصلُه كَظَمَ البعيرُ جَرَّتَهُ إذا ردها في جوفه.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢١٥): «أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي، عن إسحاق بن الربيع بن سفيان بن زياد المعصفري، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعاً.
ـ وأخرجه الطبراني في «الدعاء» ـ (٣/١٣٧٧ رقم ١٢٢٨) من وجه آخر عن سفيان بن زياد.
ـ ورواه عبدالرزاق ـ في التفسير (٦٣/١٢٩٨) ـ من طريق الطبري عن القوزي عن سفيان عن زياد المعصفري عن سعيد بن جبير أقول.
ـ وكذا رواه البيهقي في الشعب ـ (٧/١١٧ رقم ٩٦٩١) ـ من رواية أبي عامر عن الثوري قال: ورفعه بعض الضعفاء وليس بشيء» هـ.
قلت: وأخرجه الطبراني أيضاً في الكبير (١٢/٤٠ رقم ١٢٤١١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣٠) وقال: فيه محمد بن خالد الطحان وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٧٢ ـ ١٧٣ رقم ١٣٠٣) ومسلم (٤/١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ رقم ٦٢). من حديث أنس في سياق أطول من هذا.

(٣) القلم: «٤٨».

(٤) آل عمران: «١٣٤».

(٨٥) ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه، فَحَذَفَ لا كما في قوله:

فقُلْتُ يَمينَ الله أَبْرَح قَاعِداً

لأنه لا يَلتبس بالإثبات، فإن القَسَمَ إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي. ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مُشْفياً على الهلاك. وقيل الحَرَضُ الذي أذابه همٌّ أو مرض، وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يُجمَع، والنعتُ بالكسر كدَنِفٌ ودَنَفٌ. وقد قرىء به، وبضمتين كجُنُب. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ من الميتين.

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٦) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ همي الذي لا أقدر الصبر عليه، مِنَ البَثّ بمعنى النشر. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فَخَلُّوني وشكايتي. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من صنعه ورحمته فإنه لا يُخَيِّبُ داعيَه ولا يَدَعُ الملتجىء إليه، أو مِنَ الله بنوع من الإلهام. ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف. قيل رأى مَلَكَ الموت في المنام فسأله عنه فقال: هو حي، وقيل علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يَخِرّ له إخوتُه سُجَّداً.

(٨٧) ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما. والتحسس تطلّب الإحساس. ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيسه. وقرىء مِنْ رُوح الله أي من رحمته التي يحيا بها العبادُ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله وصفاته، فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ بعد ما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ شدة الجوع. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ رديئة أو قليلة تُرَدّ وتدفَع رغبة عنها، مِنْ أَزجيتُه إذا دفعته، ومنه تزجيةُ الزمان. قيل كانت دراهم زيوفاً، وقيل صوفاً وسمناً، وقيل الصنوبر والحبة الخضراء، وقيل الأقط وسَويق المُقِل[1]. ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فأتمم لنا الكيل. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ برد أخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها[2]. واختُلف في أن حرمة الصدقة تعم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبينا ﷺ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق التفضل

---

(١) وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة عليهم (س٤/٣٠٣).
(٢) وسموه تصدقاً للتواضع، أو أرادوا التصدق فوق ما يعطيهم بالثمن (س٤/٣٠٣).

مطلقاً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في القصر: «هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[١]. لكنه اختص عرفاً بما يبتغىٰ به ثواب من الله تعالى.

(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي هل علمتم قبحه فتبتم عنه، وفِعْلُهم بأخيه: إفرادُه عن يوسف وإذلالُه حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قبحه فلذلك أقدمتم عليه أو عاقِبَتَه، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبةً وتثريباً، وقيل أعطوه كتاب يعقوب في تخليص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك. وإنما جَهَّلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حينئذ صبياناً طياشين.

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

(٩٠) ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ استفهام تقرير، ولذلك حُقِّق بإنّ ودخولِ اللام عليه. وقرأ ابن كثير على الإيجاب[٢]. قيل عرفوه برُوائه وشمائله حين كلمهم به، وقيل تبسم فعرفوه بثناياه، وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقَرْنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارةَ ويعقوب مثلها. ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ من أبي وأمي، ذَكَرَه تعريفاً لنفسه به وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ أي بالسلامة والكرامة. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي يتق الله. ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وَضَعَ المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جَمَعَ بين التقوى والصبر.

(٩١) ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة. ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك.

(٩٢) ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تأنيبَ عليكم، تَفْعيلٌ من الثَّرْب وهو الشحم الذي يغشى الكِرْشَ للإزالة كالتجليد، فاستُعير للتقريع الذي يمزق العِرْض ويُذْهِبُ ماء الوجه. ﴿ٱلْيَوْمَۖ﴾ متعلق بالتثريب أو بالمقدَّر للجارّ الواقع خبراً للتثريب، والمعنى لا أثربكم اليوم الذي هو مظنته فما ظنكم بسائر الأيام؟ أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم حينئذ واعترفوا بها. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب، ومِنْ كَرَمِ يوسف عليه الصلاة والسلام أنهم لما عَرَفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبُكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحي منك لما فَرَط منّا فيك، فقال: إن أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بَلَّغَ عبداً بيع بعشرين درهماً

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٤٧٨ رقم ٦٨٦).
(٢) أي قرأ «إنك».

ما بلّغ، ولقد شَرُفْتُ بكم وعظمت في عيونهم حيث علموا أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا
فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى
ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ
أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ
لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

(٩٣) ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ القميص الذي كان عليه. وقيل القميص المتوارث الذي كان في التعويذ. ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يرجع بصيراً أي ذا بصر. ﴿وَأْتُونِى﴾ أنتم وأبي. ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من مصر وخرجت من عُمْرانِها. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره. ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح ما عَبِق بقميصه من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً. ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفَنَد وهو نقصان عقلٍ يَحدُث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مُفْنِدة لأن نقصان عقلها ذاتي[1]. وجواب لولا محذوف تقديره لصدقتموني أو لقلت إنه قريب.

(٩٥) ﴿قَالُواْ﴾ أي الحاضرون. ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قُدُماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقائه.

(٩٦) ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يهوذا، روي أنه قال: كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه فأُفرِحُه بحمل هذا إليه. ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ طرح البشيرُ القميصَ على وجه يعقوب عليه الصلاة والسلام أو يعقوبُ نفسُه. ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام وإنزال الفرح. وقيل إني أعلم كلامٌ مبتدأ والمقول لا تيأسوا من روح الله، أو إني لأجد ريح يوسف.

(٩٧) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ ومن حق المعترِف بذنبه أن يصفح عنه ويسأله المغفرة.

(٩٨) ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَخّره إلى السَّحَر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة الجمعة تحرياً لوقت الإجابة، أو إلى أن يَستحِلَّ لهم من يوسف، أو يعلمَ أنه عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة. ويؤيده ما روي أنه استقبل القبلة قائماً يدعو وقام يوسفُ خَلْفَه يُؤَمِّن وقاموا خلفَهما أذلة خاشعين، حتى نزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله أجاب دعوتك في ولدك

(١) يقال شيخ مُفْنِدٌ ولا يقال عجوز مفندة إلا أن تكون في شبابها ذات رأي فتفند في كبرها.

وعَقَد مواثيقهم بعدك على النبوة، وهو إن صح[١] فدليل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل استنبائهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

(٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ روي[٢] أنه وَجَّه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، واستقبله يوسفُ والملِكُ بأهل مصر، وكان أولادُه الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهَرْمىٰ. ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما، نزَّلها منزلة الأم تنزيلَ العم منزلة الأب في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[٣]، أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه والرابَّة تدعى أماً ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من القحط وأصناف المكاره، والمشيئةُ متعلقة بالدخول المكيَّف بالأمن، والدخولُ الأول كان في موضع خارج البلد حين استقبلهم.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا﴾ تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها، وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً، وقيل الضميرُ لله تعالى والواو لأبويه وإخوته. والرفعُ مؤخر عن الخُرور، وإن قُدِّم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ التي رأيتُها أيام الصبا. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ صدقاً. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يَذْكُر الجُبَّ لئلا يكون تثريباً عليهم. ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أفسد بيننا وحرّش، مِنْ نزغ الرائضُ الدابة إذا نَخَسها وحملها على الجري. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة. روي[٢] أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل، قال: أمرني جبريل عليه السلام، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أَبْسَطُ مني إليه فاسأله، فقال جبريلُ: الله أمرني بذلك لقولك ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[٤]، قال: فهلا خِفْتَني؟.

---

(١) قال الألوسي: (والحق عدم الصحة) روح المعاني (١٣/٥٦).

(٢) غالب هذه الأخبار مأخوذة عن أهل الكتاب، والله أعلم.

(٣) البقرة: «١٣٣».

(٤) يوسف: «١٣».

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ
هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠١) ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ بعض المُلْك وهو مُلْك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ الكُتُب أو الرؤيا، ومِنْ أيضاً للتبعيض لأنه لم يؤت كل التأويل. ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدعُهما. وانتصابُه على أنه صفة المنادى، أو منادى برأسه. ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ ناصري ومتولي أمري. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما. ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ اقبضني. ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة. روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي، وأوصىٰ أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به ودفنه ثمةَ، ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم تاقت نفسُه إلى المُلْك المخلد فتمنىٰ الموتَ فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهلُ مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً فيه، ثم نقلَه موسىٰ عليه الصلاة والسلام إلى مدفن آبائه وكان عمره مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل أفرائيم وميشا ـ وهو جد يوشع بن نون ـ ورحمة امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه الصلاة والسلام، والخطاب فيه للرسول ﷺ، وهو مبتدأ. ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران له. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ كالدليل عليهما، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تَحْضُر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غَيَابة الجب وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفىٰ على مكذبيك أنك ما لَقِيتَ أحداً سمع ذلك فتعلمتَه منه، وإنما حذف هذا الشِّقُّ استغناءً بذكره في غير هذه القصة كقوله: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾(١).

(١٠٣) ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم وبالغتَ في إظهار الآيات عليهم. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر.

(١٠٤) ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جُعْل(٢) كما يفعله حَمَلَةُ الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة.

(١٠٥) ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ وكم من آية، والمعنىٰ وكأيٍّ عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات ويشاهدونها.

---

(١) هود: ﴿٤٩﴾.
(٢) الجُعْل ـ بالضم ـ ومصدره الجَعْل ـ بالفتح ـ وهو الأجرة على الشيء فعلاً أو قولاً. [النهاية: ١/٢٧٦].

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقرىء والأرضُ ـ بالرفع ـ على أنه مبتدأ خَبَرُه يمرّون فيكون لها الضمير في عليها، وبالنصب على ويطؤون الأرضَ[1]، وقرىء والأرضُ يمشون عليها، أي يترددون فيها فيرون آثار الأمم الهالكة.

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته. ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الأحبار أرباباً ونسبةِ التبني إليه تعالىٰ، أو القول بالنور والظلمة، أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك. وقيل الآية في مشركي مكة، وقيل في المنافقين، وقيل في أهل الكتاب.

(١٠٧) ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها.

(١٠٨) ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني الدعوةَ إلىٰ التوحيد والإعدادَ للمعاد، ولذلك فَسَّر السبيل بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وقيل هو حال من الياء. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء. ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في أدعو، أو على بصيرة لأنه حال منه، أو مبتدأ خبرُه على بصيرة. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزهه تنزيهاً من الشركاء.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[2] وقيل معناه نفي استنباء النساء ﴿نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ كما يوحىٰ إليك ويميزون بذلك عن غيرهم. وقرأ حفص نُوحِي في كل القرآن، ووافقه حمزة والكسائي في سورة الأنبياء[3]. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك، أَو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ولدار الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء حملاً على قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل لهم أفلا تعقلون.

(١) أي وقرىء بنصب الأرض، على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره «يمرون» وهو يطؤون.
(٢) فصلت: «١٤».
(٣) الآية: «٧» و«٢٥».

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١١٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ غايةُ محذوفٍ دلّ عليه الكلام، أي لا يغررهم تمادي أيامهم فإن مَنْ قبلهم أُمْهِلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفهين متمادين فيه من غير وازع. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ أي كذَبَتهم أنفُسُهم حين حدثتهم بأنهم يُنْصَرون، أو كذبهم القومُ بوعد الإيمان. وقيل الضمير للمرسَل إليهم، أي وظن المرسَل إليهم أن الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل الأول للمرسل إليهم والثاني للرسل، أي وظنوا أن الرسل قد كُذِّبوا وأُخْلِفوا فيما وُعِد لهم من النصر وخَلْط الأمر عليهم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن الرسل ظنوا أنهم أُخْلِفُوا ما وَعَدَهم الله من النصر، إن صح[1] فقد أراد بالظن ما يَهْجُس في القلب على طريق الوسوسة. هذا وإن المراد به المبالغة في التراخي والإمهال على سبيل التمثيل. وقرأ غير الكوفيين بالتشديد، أي وظن الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أَوْعدوهم. وقرىء كَذَبُوا بالتخفيف وبناء الفاعل أي وظنوا أنهم قد كَذَبوا فيما حَدَّثوا به عند قومِهم لمّا تراخىٰ عنهم ولم يروا له أثراً. ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ النبي والمؤمنين، وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضي المبني للمفعول[2]، وقرىء فنجا. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم، وفيه بيان للمَشِيئين.

(١١١) ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف وإخوته. ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقول المبرأةِ من شوائب الإلف والركون إلى الحسّ. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً يفترى. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُحتاج إليه في الدين، إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنال بها خير الدارين. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدِّقونه. وعن النبي ﷺ: «علموا أرقّاءكم سورةَ يوسف، فإنه أيُّما مسلم تلاها وعلمها أهلَه وما ملكت يمينُه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يَحْسُد مسلماً»[3].

☆ ☆ ☆

(١) رواه البخاري (٢٥٢٤).
(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة «فننجي» بنونين والبناء للفاعل، وقراءة عاصم ويعقوب وابن عامر «فَنُجِّيَ».
(٣) وهو حديث موضوع أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي بن كعب (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).

سُورَةُ الرَّعْدِ

ترتيبها ١٣ — آياتها ٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ
يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

سورة الرعد مدنية

وقيل مكية إلا قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . الآية﴾[1] وهي ثلاث وأربعون آية.

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٤/٥٩٩):
«أخرج النحاس في ناسخه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سورة الرعد نزلت بمكة».
وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة الرعد مكية.
وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة الرعد بالمدينة.
وأخرج ابن مردويه، عن ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت الرعد بالمدينة.
وأخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ، عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة الرعد مدنية، إلا آية مكية.
«ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» [الرعد: ٣١]» هـ.
ـ وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/٢٩٩):
«اختلفوا في نزولها على قولين:
(أحدهما): أنها مكية. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة. وروى صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين منها. قوله «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» إلى آخر الآية [الرعد: ٣١] وقوله «ويقول الذين كفروا لست مرسلاً» [الرعد: ٤٣].
(والثاني): أنها مدنية، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد، وروي عن ابن عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله «ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال» إلى آخرها [الرعد: ٣١]. وقال بعضهم: المدني منها قوله «هو الذي يريكم البرق ـ إلى قوله ـ له دعوة الحق» [الرعد: ١٤]» هـ.
وقال السيوطي في «الإتقان» (١/٣٦) بعد أن ذكر الاختلاف في سبب نزولها. =

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓرۚ﴾ قيل معناه أنا الله أعلم وأرى. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ يعني بالكتاب السورة، وتلك إشارةٌ إلى آياتها، أي تلك الآياتُ آياتُ السورة الكاملة أو القرآن. ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو القرآن كله. ومحله الجر بالعطف على الكتاب عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى، أو الرفع بالابتداء وخبرُه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ والجملةُ كالحجة على الجملة الأولى، وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزَّل بكونه حقاً فهو أعمّ من المنزَّل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس وغيره مما نطق المنزَّلُ بحسن اتباعه[١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ وخبر، ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبرُ يدبر الأمرَ. ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أساطين ـ جمعُ عِمَاد ـ كإهاب وأَهَبٌ، أو عمود كأديم وأَدَمٌ[٢]. وقرىء عُمُدٍ كرُسُل. ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لعَمَد أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السمواتِ كذلك، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعَها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجُرْمية واختصاصَها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصِّص ليس بجسم ولا جسماني يرجِّحُ بعضَ الممكنات على بعض بإرادته، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ بالحفظ والتدبير. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ﴾ ذللهما لِمَا أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع دونَها سيرُه، وهي: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[٣]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يُنَزِّلها ويبيِّنها مفصلة، أو يُحدِث الدلائل واحداً بعد واحد. ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي تتفكروا فيها وتتحققوا كمالَ قدرته، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قَدِر على الإعادة والجزاء.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بَسَطَها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدامُ ويتقلبَ عليها الحيوان.

«والذي يجمع به بين الاختلاف: أنها مكية إلاّ آيات منها» هـ.

ـ وقال سيد قطب في الظلال (٤/٢٠٣٩): ـ

السورة مكية بخلاف ما ورد في المصحف الأميري وبعض المصاحف ـ اعتماداً على بعض الروايات ـ أنها مدنية... ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها أو في جوها العام، الذي لا يخطىء تنسمه من يعيش فترة في ظلال القرآن! هـ.

(١) وفي التعبير عنه بالموصول وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبني للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل إليه والإيماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفى (س٥/٢).

(٢) جمع إهاب على أَهَب ـ بفتحتين ـ (كذلك أديم فهو على غير القياس والقياسُ بضمتين «أُهُب وأُدُم» قال بعضهم: وليس في كلام العرب فِعَالٌ يُجْمَع على فَعَلٍ ـ بفتحتين إلا إهاب وأَهَب وعِمَاد وعَمَد... (المصباح المنير مادة أهب).

(٣) التكوير: «١ـ٢».

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت، مِنْ رسا الشيء إذا ثبت، جمعُ راسية والتاءُ للتأنيث على أنها صفة أَجْبُل أو للمبالغة[١]. ﴿ وَأَنْهَٰرًا ﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها. ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين، كالحلو والحامض والأسود والأبيض والصغير والكبير. ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ يُلْبِسُه مكانه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يُغَشِّي بالتشديد. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيها فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمرها وهيأ أسبابها.

وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(٤) ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ بعضها طيبة وبعضها سَبْخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس. ولولا تخصيصُ قادرٍ موقِعٍ لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويَعْرِض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة في النِّسَب والأوضاع. ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزروع، وتوحيدُ الزرع لأنه مصدر في أصله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص وزرعٌ ونخيلٌ بالرفع عطفاً على وجنّات[٢]. ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ نخلات أصلها واحد. ﴿ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ متفرقات مختلفات الأصول[٣]. وقرأ حفص بالضم، وهو لغة بني تميم، كقِنْوانٍ في جمع قِنْوٍ. ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادرٍ مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب يُسقى بالتّذكير على تأويل ما ذُكِر، وحمزةُ والكسائيُّ يُفَضِّلُ بالياء ليطابق قوله: «يُدَبِّرُ الأمرَ» ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكر[٤].

---

(١) ولم يذكر الموصوف ـ الذي هو الجبال ـ لإغناء غلبة الوصف بها.
والتعبير عن الجبال بهذا العنوان ـ أي الرواسي ـ لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها (س٥/ ٤).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ «وزرعٍ ونخيلٍ» بالجر، وقد قرأ بها غير مَنْ ذكر وهي عطفٌ على أعناب.

(٣) قال الراغب الأصفهاني في المفردات مادّة (صنو): الصِّنْوُ: الغصن الخارج عن أصل الشجرة، يُقال هما صِنْوا نخلة وفلان صِنْو أبيه، والتثنية صِنْوانِ [بكسر النون] والجمع صِنْوانٌ [بتنوين النون].

(٤) وفي الآية لفتات بيانية أشار إليها أبو السعود وهي أنه أفرد الزرع لمراعاة أصله، وقدم ذكر الجنات عليه ـ مع كونه عمود المعاش ـ لظهور حالها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها.
ولعل تأخير ذكر النخيل لئلا يقع بينها وبين صفتها ـ وهي «صنوان وغير صنوان» ـ فاصل (س٥/ ٥).

۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

(٥) ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمدُ من إنكارهم البعث. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيق بأن يُتعجب منه، فإن من قَدِر على إنشاء ما قُص عليك كانت الإعادة أيسرُ شيء عليه، والآياتُ المعدودةُ كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته. ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدل من قولهم أو مفعول له، والعاملُ في «إذا» محذوف دل عليه «أئنا لفي خلق جديد» ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون بالضلال لا يُرجىٰ خلاصُهم أو يُغَلُّون يوم القيامة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار.

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبلِ العافية، وذلك لأنهم استَعْجَلُوا ما هُدِّدوا به من عذاب الدنيا استهزاءً. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ عقوباتُ أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها ولم يُجَوِّزوا حلول مثلها عليهم؟. والمَثُلَةُ ـ بفتح الثاء وضمها كالصَّدَقَة والصدُقَة ـ العقوبةُ، لأنها مِثْلُ المعاقَبِ عليه، ومنه المِثَال للقصاص وأَمْثَلْتُ الرجلَ من صاحبه إذا اقتصصتُه منه. وقرىء المَثْلات بالتخفيف، والمُثُلاَت بإتباع الفاءِ العينَ، والمُثْلات بالتخفيف بعد الإتباع، والمُثَلات بفتح الثاء على أنها جمع مُثْلَة كرُكْبة ورُكَبات. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ مع ظلمهم أنفسَهم. ومحله النصبُ على الحال، والعاملُ فيه المغفرةُ. والتقييدُ به دليلٍ على جواز العفو قبل التوبة. فإن التائب ليس على ظلمه، ومَنْ منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفَّرَةِ لمجتنب الكبائر أو أول المغفرة بالستر والإمهال. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[١] للكفار أو لمن شاء، وعن النبي ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزُه لما هَنَأَ أحدٌ العيشَ، ولولا وعيدُه وعقابُه لاتّكل كلُّ أحد»[٢].

---

(١) قال ابن الجوزي في «ناسخ القرآن ومنسوخه» ص٤٤٤ ـ ٤٤٥:
«قد توهم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة، لأنه قال: المراد بالظلم ها هنا، الشرك. ثم نسخت بقوله «إنَّ الله لا يغفرُ أن يشرك به» [النساء: ٤٨] وهذا التوهم فاسد لأن الظلم عام. وتخصيصه بالشرك ها هنا يحتاج إلى دليل. ثم إن كان المراد به الشرك، فلا يخلو الكلام من أمرين:
ـ إما أن يراد به التجاوز عن تعجيل عقابهم في الدنيا.
ـ أو الغفران لهم إذا رجعوا عنه، وليس في الآية ما يدل على أنه يغفر للمشركين إذا ماتوا على الشرك» هـ.
وقال ابن الجوزي أيضاً في «زاد المسير» (٤/٣٠٦): «والمحققون على أنها محكمة» هـ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب «لما نزلت: «وإن ربك لذو مغفرة، الآية» قال رسول الله ﷺ فذكره ـ كما في «الكافي الشافِ» لابن حجر (ص٩١ رقم ٢٢٢).
قلت: ـ مراسيل ابن المسيب مقبولة. ولكن في الأثر علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

(٧) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزَّلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام. ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ مُرْسَل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيانُ بما تصح به نبوتُك من جنس المعجزات لا بما يُقْتَرَحُ عليك. ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو اللهُ تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاءُ هدايتَه بما يُنَزِّل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدَره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم يَنْزِل لعلمه بأن اقتراحَهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهدهم لسَبْق قضائه عليهم بالكفر فقال:

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

(٨) ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ أي حَمْلَها أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمترقَّبة. ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ وما تُنْقِصه وما تزداده في الجِثَّة والمدة والعَدَد. وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا، وخمس عند مالك، وسنتان عند أبي حنيفة. روي[1] أن الضحاك ولد لسنتين وهرمَ بن حيان لأربع سنين[2]. وأعلى عَدَده لا حد له، وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله: أخبرني شيخ باليمن أن امرأته وَلَدت بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده. وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد، قال تعالى: ﴿ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾[3] فإن جعلتهما لازمين تعين ما أن تكون مصدرية، وإسنادُهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ بقَدَر لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[4] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين وهيأ له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿ هَادٍ ﴾[5]

---

(١) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).

(٢) هذا خبر مكذوب. قاله ابن حزم (المحلى بالآثار: ١٠/ ١٣٣).

قال ابن حزم في المحلى «١٠/ ١٣١ ـ ١٣٣» ـ «ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر، لقول الله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» [الأحقاف: ١٥] وقال تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» [البقرة: ٣٣]. فمن ادعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل جهاراً» هـ.

ثم ذكر ابن حزم جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من تسعة أشهر، ولكنه عقب عليها بقوله «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدق ولا يُعرف مَن هو؟ ولا يجوز الحكم في دين الله بمثل هذا» اهـ.

قلت: هذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده. وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

(٣) الكهف: «٢٥».

(٤) القمر: «٤٩».

(٥) الرعد: «٧».

﴿وَالٍ﴾[١] و﴿وَاقٍ﴾[٢] ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾[٣] بالتنوين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يَصِلُون بالتنوين ويقفون بغير ياء.

عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

(٩) ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الغائب عن الحس. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الحاضر له. ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

(١٠) ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ في نفسه. ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيره. ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ طالب للخفاء في مُختبأ بالليل. ﴿وَسَارِبُۢ﴾ بارز. ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد[٤]، مِنْ سرب سُرُوباً إذا برز، وهو عطف على مَنْ أو مستخف على أنَّ من في معنى الاثنين كقوله:

تكن مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان

كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار، والآية متصلة بما قبلها مقرِّرة لكمال علمه وشموله.

(١١) ﴿لَهُۥ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب. ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، جمع مُعَقِّبة مِنْ عقَّبَهُ مبالغة عَقَبَه إذا جاء على عقِبه كأن بعضهم يَعْقِب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها، أو اعتقب فأدغمت التاءُ في القاف والتاءُ للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات. وقرىء مَعَاقيب جمع معقّب أو معقبة على تعويض الياء من حذف إحدى القافين. ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدم وأخر. ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضار، أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى. وقد قرىء به. وقيل مِنْ بمعنى الباء، وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات، وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من العافية والنعمة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ فلا راد له، فالعامل في إذا ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع

---

(١) الرعد: «١١».

(٢) الرعد: «٣٤».

(٣) النحل: «٩٦».

(٤) وتقديم الإسراء على الجهر والاستخفاء على السروب لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر، وإلا فنسبته إلى الكل سواء (س٥/٨).

عنهم السوء، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. وانتصابُهما على العلة بتقدير المضاف أي إرادةَ خوفٍ وطمع أو التأويلِ بالإخافة والإطماع، أو الحالِ من البرق أو المخاطبين على إضمار ذو، أو إطلاقِ المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء. ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته[١]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَك موكل بالسحاب معه مخاريق[٢] من نار يسوق بها ....

(١) التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص. وهو نوعان: تسبيح دلالة وتسبيح مقالة، أما تسبيح الدلالة فكل المخلوقات تدل على أن الله هو خالقها وأنه تعالى عالم قدير سميع بصير حي مريد.. وأما تسبيح المقالة فيكون من باب القول كما يتكلم الإنسانُ بلسانه.. ولما كان من منهج المعتزلة إخضاع جميع المخلوقات إلى حكم العقل قالوا بتعذر نطق المخلوقات وحملوها على غير الحقيقة... والبيضاوي تأثر بالزمخشري في بعض اعتزالياته وحمل السجود على غير الحقيقة.
لكنّ النطق والقول غير مختص بالإنسان والله تعالى هو الذي أنطق الإنسان وعلمه البيان وهو قادر على إنطاق جميع المخلوقات. والنصوص كثيرة في ذلك وحملها على المجاز تكلف، فسليمان عليه السلام علمه اللهُ منطق الطير وقد ذكر القرآن الكريم قصة محادثته مع الهدهد، وفي آخر الزمن تخرج دابة من الأرض تكلم الناس، والله تعالى يُنطق الألسنة والأيدي والأرجل فتشهد على صاحبها يوم القيامة وكذلك الجلود.. وقد تكلم في المهد عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره... وفي الصحيح أنّ نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام كان إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكّت حتى استقرت، فقال عليه السلام: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر» ـ رواه البخاري ـ.
فإذا كان الأمر كذلك من نطق الجمادات فلماذا يُستبعَد نطق الرعد بالتسبيح لله تعالى ويُحمَل على غير حقيقته؟!
وقد أثبت القرآن الكريم عدم فهم الإنسان لتسبيح الجمادات كما قال تعالى: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً» ـ الإسراء «٤٤» ـ.

(٢) ثوب يلف، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وأراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. [النهاية: ٢/٢٦].

السحاب»(١). ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله، وقيل الضمير للرعد. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه. ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسولَ الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم. والجدالُ التشدد في الخصومة من الجَدْل وهو الفتل. والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامرَ بن الطفيل وأَرْبَدَ بن ربيعة ـ أخا لبيد ـ وفدا على رسول الله ﷺ قاصديْن لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبه له رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اكفنيهما بما شئت» فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، ورمىٰ عامراً بغدة فمات في بيتِ سلوليّة، وكان يقول غدةٌ كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت(٢). ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ المماحلةُ: المكايدةُ لأعدائه، من مَحَل فلانٌ بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة، ولعل أصله المَحْل بمعنى القحط. وقيل فِعال من المَحْل بمعنى القوة. وقيل مِفْعل من الحول أو الحيلة أُعِلّ على غير قياس، ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مَفْعَل من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم: فساعِدُ الله أشدُّ وموساه أحدُّ.

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

(١٤) ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويُدعىٰ إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه، ويؤيده ما بعده. والحقُّ على الوجهين ما يناقض الباطل، وإضافةُ الدعوة إليه لما بينهما من الملابسة، أو على تأويل دعوة المدعو الحق. وقيل الحق هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق. والمراد بالجملتين إن كانت الآية في أربد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يَشْعرا به مِحَالٌ من الله إجابةً لدعوة رسوله ﷺ أو دلالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٩٤ رقم ٣١١٧) عنه في سياق طويل.
وقال: حديث حسن غريب.
قلت: في إسناده بكير بن شهاب الكوفي قال الحافظ في التقريب (١/ ١٠٧): مقبول.
والحديث أخرجه أيضاً من هذا الوجه أحمد (٢/ ٢٧٤) في سياق أطول من سياق الترمذي وكذا النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٣٩٤).
والخلاصة أن الحديث حسن انظر «الصحيحة» للألباني (رقم: ١٨٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ج١٣/ ١٢٦) عن ابن جريج مختصراً.
وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٧٢) عن ابن جرير وابن زيد مطولاً.
وكذلك أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٣٧٩ رقم ١٠٦٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٢٦٦). من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤١) وقال: وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.
قلت: ـ بل هو متروك انظر «التقريب (١/ ٥١١)».

وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول مِحَالِهِ بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون فَحَذَف الراجعَ، أو والمشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليه. ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ من الطلبات. ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ إلا استجابة كاستجابة مَنْ بسط كفيه ﴿إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه. ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ لأنه جماد لا يَشْعُر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيانِ بغير ما جبل عليه، وكذلك آلهتُهم. وقيل شبهوا في قلة جدوىٰ دعائهم لها بمَنْ أراد أن يغترف الماءَ ليشربه فبسط كفيه ليشربه. وقرىء تَدْعُون ـ بالتاء ـ وباسطٍ بالتنوين. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ يُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكةُ والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرةُ كرهاً حال الشدة والضرورة ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ بالعَرَض، وأن يرادَ به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شاؤوا أو كرهوا، وانقيادُ ظِلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص. وانتصاب طوعاً وكرهاً بالحال أو العلة، وقولُه ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ ظرفٌ ليسجد، والمراد بهما الدوام، أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تُعظَّم وتكثر فيهما. والغدو جمع غداة كقُنِيٍّ جمع قناة، والآصالُ جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر، ويؤيده أنه قد قرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل.

(١٦) ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خالقُهما ومتولي أمرَهما. ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه، أو لَقِّنْهم الجواب به ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ ثم أَلْزِمْهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل. ﴿أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاءَ أن يشفعوا لهم. ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها، والموحِّد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم. ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ بل أجعلوا، والهمزةُ للإنكار، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار. ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ خَلْقُ الله وخَلْقُهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خَلَقوا كما خلق اللهُ فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ

﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالقَ غيره فيشاركه في العبادة. جعل الخلق موجِبَ العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عمن سواه ليدل على قوله ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء.

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

(١٧) ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء، أو من السماء نفسِها فإن المبادىء منها. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار، جمعُ وادٍ وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتّسع فيه واستُعْمِلَ للماء الجاري فيه، وتنكيرُها لأن المطر يأتي على تناوبٍ بين البقاع. ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالىٰ أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكِبَر. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ رَفَعه، والزَّبَدُ وَضَرُ الغَلَيان. ﴿رَّابِيًا﴾ عالياً. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ يعمّ الفِلِزّات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب حُلّي. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصودُ من ذلك بيان منافعها. ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي ومما يوقدون عليه زَبَد مثْلُ زبد الماء وهو خَبَثُه، ومِنْ للابتداء أو للتبعيض. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس[1]، وإضمارُه للعلم به. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ مَثَل الحق والباطل، فإنه مِثْلَ الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأوديةُ على قدر الحاجة والمصلحة فيَنْتفعُ به أنواعُ المنافع، ويمكث في الأرض بأن يَثْبُتَ بعضُه في منافعه ويسلك بعضُه في عروق الأرض إلى العيون والقُنِيّ والآبار، وبالفلز الذي يُنتفع به في صوغ الحُلىٰ واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما، وبيّن ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يُجْفَأُ به أي يَرمي به السيلُ والفلزُّ المذاب. وانتصابه على الحال ـ وقرىء جُفَالاً ـ والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ كالماء وخلاصة الفلزّ. ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلُها. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لإيضاح المشتَبِهات.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ للمؤمنين الذين استجابوا. ﴿لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ الاستجابة الحسنىٰ. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وهم الكفرة، واللام متعلقة بيضرب على أنه جَعَلَ ضَرْبَ المَثَل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما. وقيل للذين استجابوا خبرُ الحسنىٰ ـ وهي المثوبة أو الجنة ـ والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبرُهُ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وهو على الأول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو المناقشةُ فيه، بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يُغْفَرُ منه شيء. ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ مرجعهم. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المستقرّ، والمخصوصُ بالذم محذوف.

---

(١) أي «ومما يوقدون».

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا
يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ
صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ
لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ
بَابٍ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ فيستجيب. ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ عمَى القلب لا يَستبصر فيستجيب، والهمزةُ لإنكار أن تقع شبهةٌ في تشابههما بعد ما ضُرِب من المثل. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الإلف ومعارضة الوهم.

(٢٠) ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلىٰ، أو ما عَهِد الله تعالى عليهم في كُتُبه. ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴾ ما وثَّقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص.

(٢١) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاةُ جميع حقوق الناس. ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ وعيدَه عموماً. ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ خصوصاً فيحاسِبُون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا[1].

(٢٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى[2]. ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما. ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المفروضة. ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ بعضَه الذي وجب عليهم إنفاقه. ﴿ سِرًّا ﴾ لمن لم يُعْرَفْ بالمال. ﴿ وَعَلَانِيَةً ﴾ لمن عُرِف به. ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ويدفعونها بها فيجازُون الإساءة بالإحسان، أو يُتْبِعُون السيئة الحسنة فتمحوَها[3]. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة. والجملةُ خبر الموصولات إن رُفِعَتْ بالابتداء، وإن جُعِلت صفات لأولي الألباب فاستئنافٌ بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

(٢٣) ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من عقبىٰ الدار، أو مبتدأٌ خَبَرُهُ: ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ والعَدْنُ: الإقامةُ، أي جناتٌ يقيمون فيها، وقيل هو بطنان . . . .

---

(١) خص البيضاوي الخشية بخشية وعيده تعالى، لكنّ الظاهر أن المراد به مطلق الخشية.
وقوله تعالىٰ في الأول «يخشون» وفي الثاني «يخافون» هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به (روح المعاني ١٣/ ١٤٠) وقد فرق الراغب بين الخشية والخوف فقال: (الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشىٰ منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: «إنما يخشىٰ اللهَ من عباده العلماء» ـ فاطر «٢٨» ـ) المفردات مادة (خشي).

(٢) أورد الصبر بصيغة الماضي للدلالة على الاعتناء بشأنه ووجوب تحققه، فإنه ملاك الأمر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة (س/ ٥/ ١٧).

(٣) وتقديم المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة (س/ ٥/ ١٧).

الجنة[١]. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر، أو مفعول معه والمعنىٰ أنه يَلحقُ بهم مَنْ صلح مِنْ أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يُقْرَن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أُنسهم، وفي التقييد بالصَّلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين:

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا
بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(٢٤) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ بشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بعليكم، أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم، لا بسلام.. فإن الخبر فاصل. والباءُ للسببية أو للبدلية. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وقرىء فَنَعْم بفتح النون، والأصلُ نَعِمَ فسُكِّن العينُ بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره.

(٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين. ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهييج الفتن. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذاب جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعه ويضيقه. ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ أي أهلُ مكة. ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم كعُجَالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أَشِرُوا بما نالوا من الدنيا ولم يَصْرِفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نَزْرٌ قليل النفع سريع الزوال.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات[٢]. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرىٰ التعجب من قولهم: كأنه قال قل لهم ما أَعْظَمَ عنادَكم! إن الله يُضِل من يشاء ممن كان على صفتكم فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أُنزِلَت كلُّ آية، ويهدي إليه من أناب بما جئتُ به بل بأدنى منه من الآيات.

(٢٨) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل مِنْ مَنْ، أو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أُنساً به

---

(١) أي وسطها.
(٢) وإظهار الموصول «الذين كفروا» لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكي عنهم من أقوال (س٥/١٩).

واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو يذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ تَسْكن إليه[١].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

(٢٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأٌ خبرُه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهو فُعْلَىٰ من الطِّيب قُلبت ياؤه واواً لضمة ما قبلَها، مصدر لطاب كبُشْرىٰ وزُلْفىٰ، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرىء: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب.

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذلك، يعني إرسال الرسل قبلك. ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾ تقدمَتْها. ﴿أُمَمٌ﴾ أُرسلوا إليهم، فليس ببِدْعٍ إرسالُك إليهم. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وحالُهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نِعَمَه وخصوصاً ما أُنعِم عليهم بإرسالك إليهم. وإنزالِ القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنياوية عليهم[٢]. وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، فقالوا: وما الرحمن؟![٣] ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ أي الرحمنُ خالقي ومتولي أمري. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابُه، والمرادُ منه تعظيم شأن القرآن أو المبالغةُ في عناد الكفرة وتصميمِهم أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارّها. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجُعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجيب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغايةُ في الإعجاز والنهايةُ في التذكير والإنذار، أو

(١) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «وتطمئن» لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (س٥/ ٢٠).

(٢) والعدول إلى المُظْهَر المتعرض لوصف الرحمة «الرحمن» من حيث إن الإرسال ناشىء منها (س٥/ ٢١).

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس من رواية الضحاك (ص٢٧٩) ومعلوم أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

لما آمنوا به كقوله: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾[١] الآية. وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن سرّك أن نتبعك فسيِّر بقرآنك الجبالَ عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائعَ، أو سخّرْ لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت[٢]. وعلى هذا فتقطيع الأرض قَطْعُها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وما بينهما اعتراض. وتذكيرُ كُلِّم خاصة لاشتمال الموتىٰ على المذكر الحقيقي. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيء، وهو إضرابٌ عما تضمنته لو من معنى النفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وذهب أكثرُهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا أفلم يتبين، وهو تفسيره. وإنما استعمَلَ اليأسَ بمعنى العلم لأنه مسبَّب عن العلم، فإن الميؤوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن معناه نفي هدي بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم ييأس الذين آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، أو بآمنوا. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من الكفر وسوء الأعمال. ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تَقْرعهم وتُقْلقهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ليفزعون منها ويتطاير إليهم شررها. وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث السرايا عليهم فتَغِير حواليهم وتختطف مواشيَهم، وعلى هذا يجوز أن يكون تَحُل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حلّ بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه. والإملاءُ أن يترك ملاوة من الزمان في دَعَة وأمن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي إياهم.

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم، والخبرُ محذوف تقديره كمن ليس كذلك، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

---

(١) الأنعام: «١١١».
(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٢/ ٤٠ ـ ٤١) وفي سنده عبد الجبار بن عمر الأيلي وهو ضعيف كما في التقريب (١/ ٤٦٦) وفيه عبدالله بن عطاء وهو مدلس وقد عنعن (التقريب ١/ ٤٣٤).
والحديث ضعفه الهيثمي في المجمع (٧/ ٨٥).

شُرَكَآءَ﴾ استئناف أو عطف على كسبت إن جعلت ما مصدرية. أو لم يوحّدوه، وجعلوا عطفٌ عليه، ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة. وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها، والمعنى صِفُوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة. ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بل أتنبئونه. وقرىء تُنْبِئُونه بالتخفيف. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنىً كتسمية الزنجي كافوراً، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ تمويههم فتخيلوا أباطيلَ ثم خالُوها حقاً، أو كيدهم للإسلام بشركهم[1]. ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ سبيل الحق. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وصَدُّوا بالفتح، أي وصَدّوا الناس عن الإيمان، وقرىء بالكسر وصِدٌ بالتنوين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدىٰ.

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ
ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ
ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ لشدته ودوامه. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه أو من رحمته. ﴿مِن وَاقٍ﴾ حافظ.

(٣٥) ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ صفتُها التي هي مَثَلٌ في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة. وقيل خبرُه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۖ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمر، أو على حَذْفِ موصوفٍ أي مَثَل الجنة جنةٌ تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل، وهو على قول سيبويه حال من العائد أو المحذوفِ أو من الصلةِ. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها. ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ أي وظلها كذلك لا يُنْسَخُ كما ينسخ في الدنيا بالشمس. ﴿تِلْكَ﴾ أي الجنة الموصوفة. ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ﴾ مآلهم ومنتهىٰ أمرهم. ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير. وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقناط للكافرين.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابن سلام وأصحابه ومَنْ آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني كَفَرَتُهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن . . . .

(١) فقوله «للذين كفروا» وضع الموصول موضع المضمر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالكفر (س٥/ ٢٤).

الأشرف[١] وأصحابه والسيد[٢] والعاقب[٣] وأشياعهما. ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم، أو ما يوافق ما حرفوه منها. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ جواب المنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحِّده، وهو العمدةُ في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس ببِدْع مخالفةُ الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. وقرىء ولا أشركُ بالرفع على الاستئناف. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ لا إلى غيره. ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القَدَر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم فلا معنىً لإنكاركم المخالفة فيه.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا
وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الإنزالِ المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ يَحكُمُ في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة[٤]. ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجَماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه. وانتصابه على الحال. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بنسخ ذلك. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك، وهو حسم لأطماعهم وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ تُقترَحُ عليه وحُكم يُلتَمَسُ منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنه المليء بذلك. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت وأمد حكم يُكتَب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم.

(٣٩) ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يَستَصوِب نسخَه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما تقتضيه حكمته، وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها، وقيل يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاءٌ ويترك غيره مثبَتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه، وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين، وقيل يمحو الفاسدات

---

(١) انظر خبر كعب بن الأشرف مفصلاً في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٧٤ ـ ٨٤).
(٢) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/٦٢٩) «والسيد: ثِمالُهم، وصاحِبُ رحلهم، ومجتمعهم، واسمه الأيهم» هـ.
(٣) قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٣/٦٢٩) «العاقِبُ أميرُ القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يَصدُرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبدالمسيح» هـ.
(٤) والتعرض لوصفه حكماً ـ مع أن بعضه ليس بحكم ـ لتربية وجوب مراعاة وتحتم المحافظة عليه (س٥/ ٢٦).

الكائنات[١]. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويُثَبِّتُ بالتشديد. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحالُ أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله[٢]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير. ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفلْ بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم، فإنا فاعلون له وهذا طلائعه.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ الكفرة. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا راد له، وحقيقته الذي يُعقِّب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقِّب لأنه يَقفُو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حَكَمَ للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره. ومحل لا مع المنفي النصبُ على الحال، أي يحكم نافذاً حُكْمُه[٣]. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين به منهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فَيُعِدُّ جزاءها. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعَدُّ لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم. واللام تدل على أن المراد بالعقبىٰ العاقبة المحمودة، مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو الكافرُ على إرادة الجنس، وقرىء الكافرون، والذين كفروا، والكُفْرُ أي أهله، وسَيُعْلَمُ مِنْ أَعْلَمَه إذا أخبره.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود[٤]. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أَظْهَرَ من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ

(١) والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات.

(٢) صيغة المضارع في «نعدهم» لحكاية الحال الماضية أو لتجدده. وإيراد البعض رمز لإرادة بعض الموعود (س٥/٢٧).

(٣) وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة بقوله «والله يحكم...» وبناء الحكم على الاسم الجليل «الله» من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفىٰ (س٥/٢٨).

(٤) وصيغة الاستقبال بقوله «ويقول» لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها أو للدلالة على التجدد والاستمرار (س٥/٢٩).

﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علم القرآن وما أُلِف عليه من النظم المعجز، أو عِلْمُ التوراة وهو ابن سلام وأضرابه، أو عِلْمُ اللوح المحفوظ وهو الله تعالى، أي كفىٰ بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يَعْلَمُ ما في اللوح المحفوظِ إلاَّ هوَ شهيداً بيننَا فَيُخْزِي الكاذبَ مِنَّا، ويؤيِّدُه قراءةُ مَنْ قرأ ومِنْ عِنْدِه بالكسر وعِلْمُ الكتاب. وعلىٰ الأول مرتفعٌ بالظرف فإنه معتمدٌ على الموصول، ويجوز أن يكون مبتدأً والظرف خبرُه وهو متعيِّنٌ على الثاني. وقُرِىءَ ومِنْ عِنْدِه عُلِمَ الكتابُ على الحرفِ والبناءِ للمفعول. عن رسول الله ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الرعد أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بوزن كلِّ سحابٍ مضَىٰ وكلِّ سحاب يكون إلى يومِ القيامة من الموفينَ بعهدِ الله»(١).



(١) حديث موضوع، رواه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبيّ (الفتح السماوي ص٧٤٢) وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٠).

سورة إبراهيم

ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ
شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣

سورة إبراهيم عليه السلام مكية[1] وهي اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ أي هو كتابٌ. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائِك إيَّاهم إلى ما تضمَّنه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من أنواع الضلال. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهدى. ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ بتوفيقِه وتسهيلِه، مُسْتَعَارٌ من الإذْنِ الذي هو تسهيلُ الحجاب، وهو صلة لِتُخرِجَ أو حالٌ من فاعلِه أو مفعولِه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكريرِ العاملِ، أو استئنافٌ على أنه جوابٌ لِمَنْ يسألُ عنه. وإضافةُ الصراطِ إلى اللهِ تعالى إما لأنه مقصدُه أو المظْهِرُ له. وتخصيصُ الوصفين للتنبيه على أنه لا يَذِلُّ سالِكُه ولا يَخِيبُ سابِلُهُ.

(٢) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ على قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ[2] مبتدأٌ وخبرٌ، أو اللهُ

---

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/٣).
«أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
وأخرج النحاس في تاريخه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت في مكة، سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً. . .» إلا آيتين نزلتا في قتلي بدر من المشركين وانظر «زاد المسير» (٤/٣٤٣).

(٢) قراءة نافع وابن عامر برفع لفظ الجلالة.